الارتشاف
من أدبيات الحافظ السقاف

مصدر
بصفحات من حياة العلامة
عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف



انتخب الأدبيات ورتب الصفحات
أحمد بن غانم الأسري

المكتبة الأسدية
مكة المكرمة

حقوق الطبع محفوظة

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠ م

رقم الإيداع: 2020/2877

الترقيم الدولي: 978-977-6715-04-2



المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة - العزيزية شمالية

بجوار مدخل جامعة أم القرى

تلفون: ٠١٢٥٢٧٣٠٣٧

ايميل: alasadi٢٠٠٠@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبةُ المؤلف

الحمدُ للهِ كاشفِ الغُمَمِ، وباسطِ النِّعمِ، ودافعِ النِّقَمِ، وصلى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه خيرِ الأُممِ[١].

أما بعدُ: فهذهِ ارْتِشَافاتٌ أدبيةٌ[٢]، ونفحاتٌ نَدِيَّةٌ، مما جادتْ بهِ قَرِيحَةُ الحافظِ الأوحدِ والأديبِ الأمجدِ: عبدِ الرحمنِ بنِ عُبيدِ اللهِ السَّقَّافِ المولودِ سنةَ ثلاثِ مئةٍ وألفٍ، والمتوفَّى سنةَ خمسٍ وسبعينَ وثلاثِ مئةٍ وألفٍ -رحمهُ اللهُ تعالى-.

في كتابَيْه النَفِيسين:

الأول: «العُودُ الهنديُّ عن أماليَّ في ديوانِ الكِنْديّ -مجالسُ أدبيةٌ في ديوانِ المتنبي -».

الثاني: «بَلابِلُ التَّغْرِيدِ فيما استفدناهُ أيامَ التجريدِ».

قَضيتُ معَهما مجالسَ مُمْتِعَةً، وكيف لا تكونُ كذلكَ وهي مع حافظِ فَرْدٍ، وأديبٍ فذٍّ، وناقدٍ بارعٍ، يَطوفُ بِكَ على فنونِ العلمِ وصُنوفِ المعرفةِ، يَلْتقطُ الدُّرَّ ويَنْظِمُ الدُّرَرَ.. بحُججِ الوحيينِ الشريفينِ، ودقائقِ التفسيرِ، ولطائفِ المأثورِ، وراقي المنظومِ، ونافعِ القَصَصِ، وبدائعِ أخبارِ السَّلفِ..

---

(١) مقدمة السقاف لكتابه: «السيف الحاد لقطع الإلحاد».

(٢) الارتشاف: الامتصاص، وفي المثل: (الرَّشْفُ أَنْقَعُ) أي: تَرَشُّفُ الماء قليلًا قليلًا أسكنُ للعطشِ، ولأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥) : كتاب جامعٌ سمَّاه: «ارتشاف الضَرَب من لسان العرب»، والضَّرَب -بتحريك الراء، وهو الأشهر، والتسكين لغة قليلة-: العسل الأبيض الرقيق.

بِرُوحٍ لطيفةٍ، ونَفَسٍ نسيمٍ، مَصْحُوبٍ بُحسنِ عَرْضٍ، وجَميلِ صياغةٍ، ورشيقِ إشارةٍ، تَجْمَعُ لكَ بينَ الحُسْنَيينِ: جَزالةِ اللَّفظِ، وعُمْقِ المعنى، فَتَقِفُ عندَ أكثرِ الكلماتِ مرتينِ: أُولاها: لِفَهْمِ اللَّفظِ، وثانيها: لارْتِشَافِ المعنى!

وحَسْبُكَ أنَّه يصِلُكَ بِمعاجمِ لغةِ الضَّادِ الشريفة بجِسْرٍ وثيقٍ، تَتَغنَّى بألفاظِهِ، وتَسْتوضِحُ عِبارَاتِهِ! يَنْتَهي بِكَ إلى «النِّهايةِ..»، ويُتوِّجُكَ بـ «التَّاج..»!

وكمْ في ذلكِ من نَشوةِ الطَّرَبِ بِمَعْرِفَتِكَ جَدِيدَ ألفاظِ العربِ..

ثُمَّ تَعودُ إلى المعنى الَّذي يُخاطبُ الرُوحَ، أو يُدَاوِي عِللَ القلبِ المَجْروحِ؛ بِتَقَلُّبَاتِ الأيامِ، ونكباتِ اللِّئامِ، وسُوءِ عِشْرَةِ الطَّغامِ!

فهو يُمْلِيها بِمِدَادِ قَلْبِهِ، وحِبْرِ عَقْلِهِ، وقدْ حَلَبَ الدَّهرَ أشْطُرَهُ، وحنَّكَه بُالتَّجَارِبِ، وعرَّفَهُ بِتَقَلُّباتِ الأصْدِقاءِ والأقَارِبِ، فَلَيْستْ كلماتِ تنظيرٍ.. بل تحبيراتُ داهيةٍ خطيرٍ!

فلما رَسَتْ بي سَفِينَةُ التَّطْوافِ رَغِبْتُ أنْ أُتْحِفَ بِهَا حَملةَ الحديثِ، وطلبةَ الفِقْهِ.. لِيَرْتَشِفُوا مِنْ مَعِينِهِ، ويَرْتَووا مِنْ رَحِيقِهِ .. عَسى أنْ يَرِدُوا مَعِينَ كُتُبِ الأدَبِ، ودَوَاوِينَ أَخْبارِ العَرَبِ؛ لِتَعْذُبَ كَلِمَاتُهمْ، وتَلْطُفَ عِبَارَاتُهم، فَإِنَّ «مَنْ نَظَرَ في العَرَبِيَّةِ والشِّعْرِ رَقَّ طَبْعُهُ»[1]، وَعَذُبَ لَفْظُهُ.. مصداقًا لقوله ﷺ «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا، وإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**»[2].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٢٣)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٢١٨)، عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري بشطريه الأول (٥١٤٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والثاني (٦١٤٥) عن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومعالمُ عملي هُنا هي:

الأولُ: نَشْرُ صَفَحَاتٍ مِنْ حَيَاةِ العلامةِ السقَّافِ.

الثاني: نَشْرُ مُنْتَخَبَاتٍ مِنَ: «العودِ الهنديِّ».

الثالثُ: المُنْتَخَبَاتُ مِنَ: «بَلابِلِ التَّغْرِيدِ».

ثم وَقَفتُ على كتابه: «تَحْقِيقُ الفرْقِ بينَ العَامِلِ بِعلْمِهِ وَغَيْرِهِ»، فانتخبتُ منه ما استحْسَنَه الخاطرُ القاصرُ.

الرابعُ: وَضْعُ عَناوينَ تَقْرِيبِيَّةٍ للْمَنْقُولِ، بَعْضُهَا مِنْ الكلام المأخوذ، والآخرُ مِمَّا جالَ في الخَاطِرِ الفَاتِرِ.

الخامسُ: توضيحُ الألفاظ المبهَمةِ، من معاجمِ اللغةِ الشريفةِ.

السادسُ: تَخْرِيجُ الأحاديثِ والآثارِ، معَ بيانِ صحتِها أو ضعفِها، من كلامِ المحدِّثينَ رضي الله عنهم غالبًا.

السابعُ: ذِكرُ مصادرِ أقوالِ أهل العلمِ.

الثامنُ: ترجمةٌ موجَزةٌ لبعضِ الأعلامِ.

وسمَّيتُه: «**الارتشاف من أدبيَّاتِ الحافظِ السَّقَّاف**».

واللهَ أَسْأَلُ، وباسْمِهِ الأعظمِ أتوسلُ أنْ يَنْفَعَ بِهذا الانْتِخَابِ جَامِعَهُ وسَائرَ الأحْبَابِ، إنَّهُ هوَ الكرِيمُ الوهابُ.

كتبَهُ

أبو الفَتَّاحِ أحمدُ بنُ غانمِ بنِ حمدٍ الأسَدِيُّ

ليلةَ الثلاثاءِ لعشرٍ بَقِينَ مِنْ جُمادى الآخِرةِ لعامِ تِسعةٍ وثلاثينَ وأربعمئةٍ وألفٍ

مِنْ هِجْرَةِ الرسولِ الأعظمِ ﷺ (١٤٣٩/٥/٢٠)

صفحاتٌ مِنْ حياةِ العلامةِ السَّقَّافِ[١]

الاسمُ والنسبُ:

هوَ: عَبدُ الرحمنِ بنُ عُبَيدِ اللهِ بنِ مُحسنِ بنِ علويِّ بنِ سَقَّافِ بنِ محمدٍ... يَرتقِي نَسَبُه إلى الإمامِ الشهيدِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المولدُ والنَّشأةُ:

وُلِدَ في السابعِ والعشرينَ مِنْ شهرِ رجبٍ سنةَ ثلاثِمئةٍ وألفٍ، في المَحَلِّ المسمَّى: (عَلَمَ بَدْرٍ) بمدينةِ سَيونَ[٢]، إحْدَى أشْهَرِ مُدُنِ حضرموتَ.

---

(١) ترجم له حمد الجاسر في «مجلة العرب» العددان (٥/ ٦)، ذي القعدة وذي الحجة، سنة (١٤١١)، والزِّركلي في «الأعلام» (٣/ ٣١٥-٣١٦)، وزبارة في «نيل الحسنيين» (١٦٧-١٦٨)، وعمر بن أبي بكر باذيب، في «القلادة-مجموعة مقالات أدبية وبحوث تاريخية» (٢١٨-٢٤٧)، ووضاح بن عبد الباري في «ضحايا المؤرخين-ابن خلدون وابن عبيد الله السقاف أنموذجًا»، وأحمد با حارثة في «الانتصاف لابن عبيد الله السقاف» (٢٧-٥٩)، وعبد الله الحبشي في «مصادر الفكر الإسلامي في اليمن» (٢/ ٥٦٢)، وأمين السعدي في «الصوفية في حضرموت» (١٠١١-١٠١٤)، وعلوي بن عبد القادر السقاف في مقدمة «تحقيق الفرق بين العامل بعلمه» (١١-١١٦) -وهي من أبسط التراجم للسقاف-، وعلي بن محسن السقاف في مقدمة «بلابل التغريد» (٥-٢٧)، ومحمد بن أبي بكر باذيب في مقدمة «العود الهندي» (٣١-٣٩)، -وأشار إلى أنه اقتطفها من ترجمة حافلة موسعة للسقاف- وغيرهم ممن لم أقف على كتبهم، أجزل الله ثوابهم.

(٢) قال السقاف في «إدام القوت» (٣٦٠): سَيْوُون: زِنة زَيْدُون، يكتبها بعضهم بواو واحدة، وبعضهم بواوين، والقاعدة: أن ما كثر استعماله واشتهر وفيه واوان، يُكْتب بواحدةٍ فقط، كداود، وقد قُلت في منظومةٍ أنشأتها في علم الخط:

مـــا كَـــثُرَ اســـتعمالهُ وفيـــه ... واوانِ واوٌ واحـــــــدٌ يكفيـــــــه

قلت: لم أقف على هذه المنظومة، والنداء مرفوع إلى أحفاده؛ في نشرها.
تنبيه: أهل زماننا ينطقونها بالهمز: (سيئون).

ونَشَأَ في تِلكَ البَلْدةِ المشهورةِ بالعلماءِ والفقهاءِ كَابرًا عَنْ كَابِرٍ..

السقاف في بيته:

تَحَدَّثَ السقَّافُ عَنْ زَوجَتِهِ وأَوْلادِهِ بأسلُوبٍ مُمتِعٍ طَرِيفٍ، في سِياقِ تَرْجمَةِ والدِ زَوْجَتِهِ. فقال:

«وكَانتْ صُغْرَى بناتِهِ، ومَوضعَ رِعايتِهِ، وأَحَبَّهنَّ إليهِ .. هي زَوجتيْ المُعِمّةُ المُخْوِلةُ...[1]

وهي أمُّ أولادي: حسنٍ، ومحمَّدٍ، وعيدروسٍ، وأحمدَ، وعَلَويٍّ، وشقائِقِهمُ الموجودينَ اليومَ، وقد ماتَ لي منها: بَصْرِيٌّ، واشتدَّ حَزَني عليه، ورَثيتُهُ بعِدَّةِ مَرَاثٍ تُوجَدُ بِمواضِعها مِنَ «الدِّيوانِ»، وعليٌّ ، وَرَثيتُهُ بِمَرْثاةٍ واحدةٍ، وأكْبَرُ وَجْدِي عليهِ؛ لأنَّه جدَّدَ الجروحَ الَّتي لمْ تَكنْ لِتَنْدَمِلَ على بَصْرِيٍّ:

فَما سرَّ قلبي مُنْذُ شطَّت بهِ النَّوى ... نَعيمٌ ولا كأسٌ ولا متصرَّفُ
وما ذُقْتُ طَعمَ الماءِ إلَّا وجدتُهُ ... سِوى ذلكَ الماءِ الَّذي كنتُ أعرِفُ
ولمْ أشْهَدِ اللَّذَّاتِ إلَّا تكلُّفًا ... وأيُّ نعيمٍ يَقْتَضِيهِ التَّكلُّفُ

وقدْ ماتَ لي مِنها أيضًا غَيرُ هذينِ، ومعَ فَرْطِ الحُزنِ .. فلمْ نتدرَّعْ إلَّا بالصَّبرِ، ولمْ نَسْتَشْعِرْ إلَّا الرِّضا، ونَحْتَسِبُهمْ عندَ اللهِ فَرَطًا وذُخْرًا..

---

(١) اسمها زهراء، توفيت سنة (١٣٩٩) رَحِمَهَا اللَّهُ، وتزوج السقاف غيرها، ولدت له بعضهن، وعدد أولاده تسعة ذكور، وست إناث، أفادني بذلك حفيده حسين بن حسن بن عبد الرحمن السقاف.
المُعِمَّة: المتشبهة بعمتها. المُخْوِلة: المتشبهة بخالتها. كناية عن الشرف والنبل من جهة أبيها وأمها.

وقدْ أشَرتُ في بَعضِ المراثي إلى أنَّ نَصِيبِي مِنَ الرَّحمَةِ كانَ أوفرَ، وأنَّ حَظَّهَا مِنَ الرِّضَا بِقضاءِ اللهِ كانَ أكثرَ، وهيَ واللهِ كما قال حسَّان:

حَصـــانٌ رَزَانٌ مـــا تُـــزَنُّ بِرِيْبَـــةٍ وتُصْـبحُ غَـرْثَى مِـنْ لحـومِ الغوافـلِ

راضيةٌ بِعيشِهَا، قانعةٌ بِرزْقِهَا، مَصُونَةٌ في قَصْرِها، قائمةٌ بحقِّ ربِّها، صالحةٌ في دِينِهَا، على جانبٍ واسعٍ مِنَ المعرفةِ والأدبِ، لا يَعرِضُ لها حَالٌ إلَّا تمثَّلتْ بِبعضِ بيتٍ؛ إذْ كانَ عِندها مِئاتُ الأطرافِ مِنَ الأبياتِ، ولكنَّها بالأكثرِ لا تَسْتَوفي البيتَ حِفظًا ولا تُقِيمُهُ لحنًا، غيرَ أنَّها متى أنشدَتْ بِجُمْلَةٍ مِنهُ .. ذكَّرتْنِي بباقيهِ فأنْشَدتُه إنْ حَضرتُ.

وكانتْ إحْدى بَنَاتِها ـ وعندها شيءٌ مِنَ العلمِ ـ لا تَقْتَدِي بها[1]؛ تَزْعُمُ أنَّها لا تُحْسِنُ الضَّادَ، بلْ تُبْدِلُها ظاءً، ولكنَّ أكثرَ أهلِ العلمِ كما ذَكَرهُ ابنُ كثيرٍ في «تفسيرِهِ»[2] على اغْتِفَارِهِ.

وأنا وإيَّاها ـ ولله الحمدُ ـ في عيشٍ طيِّبٍ، وبالٍ رخيٍّ، وسكونٍ تامٍّ، ومودَّةٍ ورحمةٍ، واسترسالٍ ومؤازرةٍ، لا نَخْتَلفُ في شيءٍ قطُّ مِنَ أمْرِ الدُّنيا، وإليها ـ مع أنَّها أمِّيَّةٌ لا تَكْتُبُ ولا تَحْسُبُ ـ أمْرُ البيتِ كما قَضَى رسولُ اللهِ ﷺ بينَ عليٍّ

---

(١) أي: في الصلاة.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» [الفاتحة: ٧]، «وبين القراء المتأخرين معارك طويلة في مخرجهما، خرجت ببعضهم إلى القول بإبطال صلاة المخالف، ويحدثون في كل حين ضجيجًا، باعثه التعصب، وقلة الإنصاف، والتقليد عند كثير منهم، والصواب في ذلك: أن لهجات العرب مختلفة في النطق بها، وأنهم درجات في إخراجه مستطيلًا مستعليًا» «معاني الحروف» للشيخ عبد العزيز الحربي (١٠-١١).

وفاطمةَ[١]، إلَّا أنَّ مِنْ شَأنِها :

١- بُطْءَ الحركةِ، ومِنْ طَبيعتي الاستعجالَ.

٢- وهيَ مُبتلاةٌ بضياعِ المفاتيحِ ـ وكلُّها في يَدِها ـ فكثيرًا ما أَعْدَمُ حاجتي عندَ طَلَبِهَا.

٣- وقدْ تَقْصُرُ عَنْ فَهمِ إشَارَتي ولا تَسْتوضِحُها؛ اعْتِمادًا على فَهْمِهَا، أو خَشْيَةَ أنْ تَقْطعَ عليَّ فِكْرًا أو كتابةً أو مطالعةً، مِنْ أمثلةِ ذلكَ: أنَّه ورَدَني ضيفٌ بعدَ ما ترجَّلَ النَّهارُ[٢]، فأَشرْتُ بِذَبْحِ جَدْيٍ لا تزيدُ قِيمَتُهُ على أربعِ روبيَّاتٍ، فذهبَ وهْمُها إلى شاةٍ تزيدُ عَنْ ثلاثينَ، وأدْخلوا اللَّحمَ على حالِهِ لم تؤثِّرْ فيهِ النَّارُ.

٤- وأنَّها لا تلومُ أحدًا مِنْ أولادِها .. إلَّا كنتُ معَها عليهِ، ومتى انعكستِ القضيَّةُ .. كانتْ معهُ إلْبًا عليَّ، مع اعتقادي أنِّي مُصِيبٌ في الحَالَينِ.

أمَّا مِنْ هذهِ المواضعِ.. فإنَّ الشَّيطانَ يجدُ السَّبيلَ المَهيعَ[٣]، فيُذْكِي جَمَراتِ الغضبِ، ويُثيرُ مَعركَةَ النِّزاعِ، ويقفُ مع النَّظَّارةِ، ولا تَسَلْ عمَّا يَجْري حِينئذٍ.

---

(١) أخرج مسدد كما في «المطالب العالية» (٨/ ٢٩٥)، والدولابي كما في «سبل الهدى» (١١/ ٤١)، عن ضمرة بن حبيب قال: قضى رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة رضي الله عنها بخدمة البيت، وعلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان من خارج البيت»، وهو كما ترى مرسل؛ ضمرة تابعي، وانظر: «النوادر والزيادات» (٤/ ٦١١)، «زاد المعاد» (٥/ ٢٦٢).

(٢) ترجَّل النَّهار: ارتفع.

(٣) السبيل المهيع: الطَّريق الواسع.

ورُبَّما يكونُ أوَّلُ المعركةِ العتْبَ الجميلض لشيءٍ صغيرٍ مِنْ أنواعِ ما تقدَّمَ، فيَحصلُ في الاعتذارِ لونٌ مِنَ التَّلبيسِ، فعندَ ذلكَ يَشْتَعِلُ الوطيسُ، ويَبْلغُ ما يُرِيدُهُ الشَّيخُ إبليسُ!

ومِنْ سيِّئاتِها: أنَّها لمْ تَغْرِسْ لِنفْسِهَا هَيبةً في صُدورِ أولادِها تُعِينُها على ما يَجبُ على الأمِّ مِنَ التَّأديبِ والتَّثقيفِ والتَّعليمِ والتَّهذيبِ .. بلْ تُلقي لهمُ الحبالَ على الغوارِبِ، فلا تُعاتِبُ أحدًا على تقصيرٍ، ولا تَزْجرُهُ عَنْ إساءةِ أدبٍ، ولا تُكلِّفُ أحدًا بِعملٍ يَنْفَعُهُ عندَ الحاجةِ، فهي تُسيءُ إليهمْ مِنْ حيثُ تُريدُ الإحسانَ.

غيرَ أنَّه يكفُّ مِنْ ثَورَتِي عليها لذلكَ قولُ الإمامِ مالكٍ: «الأدبُ أدبُ اللهِ، لا أدبُ الآباءِ والأُمَّهاتِ»، وقولُ الشَّعرانيِّ: «لقدْ كنتُ في عناءٍ مِنْ تأديبِ ولدي عبدِ الرحمنِ، حتَّى وكَلْتُ أمْرَهُ إلى اللهِ .. فَصَلَحَ» أو ما يَقْرُبُ مِنْ هذا.

ومن جرَّاءِ ذلكِ: استهانَ الخدمُ بأوامرِها؛ ولطَالمَا أشَرْتُ عليها أنْ تَعزِمَ عليهم بقَشْرِ الباذِنجانِ الأحمر ـ لأنِّي أكرَهُ قِشْرَهُ وبَذْرَهُ ـ .. فلمْ يفْعلوا يومًا ما، وإنَّه ليأتِيني في كلِّ وجبةٍ بقِشْرِهِ وبَذْرِهِ على ما لا أُحِبُّ، فإمَّا أنْ تكونَ مستخِفَّةً بعَتْبي ـ على شِدَّتِه في بَعضِ الأحيانِ ـ وإمَّا أنْ يكونَ الطُّهاةُ غيرَ مبالينَ بأمْرِها وإرْشَادِها، ومهما يَكنْ مِنَ الأمرِ .. فإنَّ إفْراطَها في المُيَاسَرَةِ معَ رعيَّتِها .. قدْ أتْعَبَنَا وإيَّاها، وأدَّى إلى خَسَائرَ جسيمةٍ وإلى خَللٍ لا يُحْتَمَلُ، ولا سيَّما في تدبيرِ أمرِ البيتِ؛ لأنَّني أَجْعَلُ تَبِعَةَ تَقْصِيرِهِمْ عليها؛ بِحُكْمِ قولهِ ﷺ: «وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ومتى عَاتَبْتُها وأجابتْ بِمَا لَمْ تَرْعَوِ عنهُ مِنَ الأجوبةِ الباردةِ .. أَصْعَبْتُ لها القولَ، وناشبْتُها الشَّرَّ، فزاد النَّكَدُ، واشتدَّ التَّعبُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

ومِنَ النَّوادرِ: أنَّني لمَّا ذاكرتُها مَرةً بمسألةِ الشَّاةِ .. تنصَّلتْ مِنَ الذَّنبِ، وأحالتْهُ على شُؤمِ ناصيةِ الضَّيفِ، وقالت: إنَّه قد جاءَك مرَّةً، وأرسلْتَ في شِراءِ لحمٍ لهُ فأُنسِيَ الرَّسولُ، ثمَّ استأْنَفْتَ رسولًا فجاءَ بهِ متأخِّرًا، واقتضى الوقتُ إدْخالَهُ عليهِ في مِثْلِ حَالِ لحمِ الشَّاةِ.

وأُخْرى، وهي: أنَّ سَرَوَاتِ النِّساءِ يَقْصُدْنَها للمشاورةِ في أمورِهنَّ، فَيحمدنَ عاقبةَ رأيِها لهنَّ، ولكنِّي لستُ كذلكَ؛ ولئِنْ وُجِدَ عندي ضعفٌ في مشاورةِ النِّساء عندَما تكلَّمتُ على انطلاقِ خديجةَ برسولِ اللهِ ﷺ إلى وَرَقةَ بنِ نوفلٍ[1] في كتابي: «بَلابِلِ التَّغْرِيدِ» .. فما هو إلَّا مِنْ هذه البابةِ، وأسألُ اللهَ أنْ يُيسِّرَني وإيَّاها وأولادَنا لليُسرى، وأنْ يُجنِّبنا وإيَّاها العُسرى، وأنْ يَجْمَعَ لنا ولهمْ بينَ خيراتِ الدُّنيا والأخرى، وأنْ يُحسِنَ عاقِبَتَنَا وعاقِبَتَهم في الأمورِ كلِّها، ويُجيرَنا وإيَّاهم مِنْ خِزيِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، وأنْ يباركَ لي فيها وفي أولادِها، ولا يَضُرَّهم، وأنْ يجنِّبَنا وإيَّاهمُ الشَّيطانَ، ويَرزقَنا بِرَّهم، وأنْ يُطيلَ لنا ولهمُ الأعمارَ في خيرٍ ولطفٍ وعافيةٍ وثباتٍ على الإيمانِ، بِمَنِّه وجُودِهِ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) «إدام القوت» (٣١٣-٣١٧).

السَّقافُ مصنفًا:

لِلحافظِ السَّقَّافِ ميلٌ إلى التصنيفِ، ورُزِقَ فيهِ السَّعَةَ والسَّعَادَةَ، بِمَا وَهَبَهُ اللهُ مِنْ بَسْطَةِ اطِّلاعٍ، وَتَضَلُّعٍ بِصُنوفِ المعرِفَةِ، فَكُتُبُهُ نَاطِقَةٌ بِذَلكَ، يُدْرِكُهَا مَنْ يَلْمَحُ بِبَصَرِهِ فِيهَا، دَعْكَ لو أَرْحَبَ النَّظَرَ في مَطَاوِيْهَا، فَهِيَ أَسْفَارٌ مُسْفِرَةٌ عَنْ عِلْمٍ وَتَحْقِيقٍ، تَزْخَرُ بِالأَدَبِ، وَتَعُجُّ بِالأَشْعَارِ، مع اسْتطرَاداتٍ تُبَرْهِنُ عَلى قَلَمٍ سَيَّالٍ، يَسْبَحُ في بِحَارِ الأَفْكَارِ، فَيُفَتِّقُ الأَبْكَارَ..

ومع ذَلكَ يَخْتِمُ بَعْضَ اسْتطرَادَتِهِ وتَحْقِيقَاتِهِ بِقولِهِ: «فإِنْ قَنِعْتَ بِهِ وإِلَّا فولِّ وجْهَكَ شَطْرَ كِتابٍ...». ثم يذكر اسم الكتاب المحال عليه..

وَقَدْ قَسَمْتُ فُنونَ مُصنَّفَاتِهِ؛ لِيُدْرِكَ النَّاظِرُ تَفَنُّنَهُ في العِلمِ، وبَسْطَةَ مَعارِفِهِ، وبَدأتُ بِمُصَنَّفاتِهِ في الأدبِ؛ لأَنَّهُ مَيْدَانُه الرَّحْبُ، وفَضَاؤُهُ الوَاسِعُ؛ ولأَنَّه الأَوْفَقُ بِعنْوانِ أُكْتوبَتِي، وقبلَ ذلكَ لأَنَّه هوَ الذي أَثَارَ بالسقَّافِ إعْجَابي، واستهوى فُؤادي؛ لِـمَا فيهِ مِنَ الأناقةِ واللبَاقةِ، وصِدْقِ المَشَاعِرِ، ومُرْهَفِ إحْسَاسِ الشَّاعِرِ!

الأول: مصنَّفاتُه الأدبيةُ

١- العُودُ الهنديُّ عَنْ أَمَاليَّ في دِيوانِ الكِنْديِّ -مَجالسُ أدبيةٌ في شَرحِ دِيوانِ المُتَنَبي-. مَطْبوعٌ مشهورٌ.

٢- النَّجْمُ المُضيْ في نَقْدِ عَبْقَرِيَّةِ الشَّرِيفِ الرَّضيْ. ويُسَمَّى: مِفْتاحَ الثَّقَافةِ. مَطْبوعٌ.

٣- الدِّيوان. طُبِعَ الجزءُ الأولُ تَحْتَ نَظرِ وتَصْحِيحِ مُفْتِي الدِّيارِ المِصْرِيَّةِ الشيخِ حَسَنين محمد مَخْلوفٍ الَّذي وَصَفَ الديوانَ بقولِهِ: «ولقدْ تَضمَّنَ الديوانُ مادةً لغويةً واسعةً، دلَّتْ على سَعَةِ اطِّلاعِ صاحبِهِ على مَكْنُونِ اللُّغَةِ، واسْتِيعَابِ قَوَامِيسِهَا، حتَّى لقدْ كُنَّا في الشَّرْحِ نَبْحَثُ عَنِ الكَلِمَةِ، فَلا نَجِدُهَا إلَّا في أُمَّهَاتِ كُتبِ اللُّغةِ، وبالجُمْلَةِ فَهوَ دِيوانُ شِعْرٍ وَعِلْمٍ وأَدَبٍ وتاريخٍ وسِيَرٍ ودِينٍ وأخْلَاقٍ».

٤- مُعَارَضةُ البُرْدَةِ. مَطبوعٌ.

٥- الرِّحْلَةُ الدَّوْعَنِيَّةُ. منْظُومةٌ رَائِعةٌ، نَظَمَهَا حِينَ رَحلَ إلى وادي دَوْعَنَ بِبِلادِ حَضْرَموتَ سَنةَ (١٣٦٠). مَخْطُوطٌ.

٦- النَّقْدُ الذَّوْقِي لِشِعْرِ شَوْقِي. مُطبوعٌ.

الثاني: مصنَّفاتُه الحديثيةُ:

١- بَلابِلُ التَّغْرِيدِ فِيمَا اسْتَفَدْنَاهُ أَيَّامَ التَّجْرِيدِ. سَيأتي الحديثُ عنهُ مُفصَّلًا- إنْ شاء الله تعالى-.

٢- حَاشِيَةٌ على كِتَابِ «الشَّمَائلِ المُحَمَّدِيَّةِ» للحافظِ التِّرْمِذيِّ. مَخطوطٌ.

٣- مَنْظُومَةٌ لِنُخْبَةِ الفِكَرِ في مُصْطَلَحِ أهلِ الأثَرِ. مَخطوطٌ.

الثالث: مصنَّفاتُه الفِقْهيةُ:

١- صَوْبُ الرُّكامِ في شُؤونِ القَضاءِ والأَحْكَامِ. مَطبوعٌ.

٢- حَاشِيَةٌ على كِتَابِ «فَتحِ الجَوادِ بِشرحِ الإرشادِ» الشرحُ لابنِ حَجَرٍ الهيتميِّ، و«الإرشادُ» للعلامةِ إسماعيلَ بنِ أبي بَكرٍ المُقْرِيْ الزَّبِيدِيِّ. مَخطوطٌ.

٣- حَاشِيَةٌ على كِتَابِ «مِنْهَاجِ الطَّالِبِينَ» للإمامِ النَّوويِّ. مَخطوطٌ.

٤- حَاشِيَةٌ على كِتَابِ «تُحْفَةِ المُحْتَاجِ بِشرحِ المِنْهَاجِ» لابنِ حَجَرٍ الهَيْتَمِيِّ. مَخطوطٌ.

الرابع: مصنَّفاتُه التاريخيةُ:

١- بَضَائِعُ التَّابُوت في نُتَفٍ مِنْ تَارِيخِ حَضْرَموت. مَخطوطٌ، عسى أن يُطْبَعَ قريبًا.

قالَ المؤرخُ الزِّرِكليُّ: «وأتَى فيهِ بعلمٍ غَزيرٍ، في تاريخِ حضرموتَ وبُيوتِهَا، وحُكَّامِها، وأعلامِها، إلى استطراداتٍ في فنونٍ مختلفةٍ، مِنْ أدبٍ، وحَديثٍ، وفقهٍ، إلى وثائقَ سِياسيةٍ، ومُعاهداتٍ ومَلْحُوظَاتٍ»[1].

٧- إدامُ القُوت في ذِكْرِ بُلدانِ حَضْرمَوت. ويُسَمَّى: مُعْجمُ بُلدانِ حضرموتَ. مَطبوعٌ طبعتينِ في كليهما سَقْطٌ، واللهُ الموفِّقُ والمستعانُ.

---

(١) «الأعلام» (٣/ ٣١٥).

الخامس: مؤلَّفاتُه العقديةُ:

١- السَّيْفُ الحَاد لِقَطْعِ الإلحِاد. ردٌّ على كتابِ «تَوحيدِ الأديانِ» لحسينٍ الصافيّ مِنَ أهلِ جَيْزَانَ. وهوَ مُصَوَّبٌ لِدُعَاةِ وَحْدَةِ الأديانِ وشُبُهَاتِ النَّصارى ضِدَّ الإسلامِ. مَطبوعٌ.

٢- تحقيقُ الفَرْقِ بينَ العامِلِ بِعلمِهِ وغيرِه وما يتصِلُ بذلكَ مِنْ حدِّ الوِلايةِ وحُكْمِ الإلهامِ. مَطبوعٌ.

٣- الكَوْكَبُ الدُّرِّي في الرَّدِّ على السيدِ سالمِ بنِ عَلَويٍّ الجفري. مَخطوطٌ.

نُبوغُ السَّقَافِ:

إنَّ المتأملَ في مؤلفاتِ هذا العَلَمِ يَعلمُ أنَّه مِنْ نَوادرِ الدَّهرِ، وأفْرادِ الزَّمَنِ، جَمَعَ اللهُ لهُ ما تَفَرَّقَ في كثيرٍ مِنْ أبْناءِ عَصْرِهِ.. والفضلُ بِيدِ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ.

أَتْقَنَ أُصولَ العِلمِ مُبكِّرًا، ثُمَ أَبْحَرَ في سَفِينَةِ البَحْثِ والمُطَالَعةِ، فَجاءَ بالعَجَبِ العُجَابِ.

يقولُ عَنْ نَفْسِهِ: «كُنْتُ أَيَّامَ شَبَابي أحْيَانًا أَضَعُ يَدِيْ عَلى الصَّفْحَةِ اليُسْرى خَوْفًا مِنْ أنْ تَقعَ عَيني عليها ويَسْبِقَ حِفْظِي لهَا!!»[١].

بل بالغ فقال: إنَّهُ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ العِلمِ شيئًا بَعدما بَلغَ سِنَّ الخَامِسةِ والعِشْرِينَ!![٢].

وقال أيضًا: «... غَيرَ أني لَسْتُ على يقينٍ مِنْ ذلكَ؛ إذْ عَهدي بِقراءةِ الكتابِ على والدي -رضوانُ اللهِ عليه- وأنَا في الحاديةَ عَشْرةَ مِنْ عُمْري..»[٣].

ويقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذَكرتُ أنَني أَقرأُ على والدي في «تَاجِ العَرُوسِ» وأنَا في الثَّانِيةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْري تَقْرِيبًا...»[٤].

وذَكَرَ أنَّه أَعَدَّ أربعين بيتًا في ساعةٍ ورُبْعٍ[٥].

---

(١) «مقدمة العود الهندي» (٣٢).

(٢) انظر «بلابل التغريد» (٨).

(٣) «بلابل التغريد» (٨، ٤٣).

(٤) «نسيم حاجر» (١٧).

(٥) «العود الهندي» (٦٧١).

ويَكْفِيكَ أَنَّ كِتَابَهُ المُجَابَ: «العودَ الهنديَّ» مَجالسُ إملائيةٌ مِنْ حِفْظِهِ، يقولُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فهذهِ مَجالسُ في «ديوانِ المتنبِّي» كَتَبناها مِنْ عَفوِ الخَاطِرِ، ولسانِ القلمِ، بلا إعناتِ رَوِيَّةٍ، ولا إرهاقِ فِكْرٍ، ولا كَدِّ قَريحةٍ، ولا إتعابِ خاطِرٍ، ولا جنايةٍ على العينِ، أرَدنا بها الإحماضَ، وإجمامَ الفِكْرِ[1]، مِنْ مُعَانَاةِ الفقهِ، لَـمْ نَقصِدْ بها التأليفَ، ولـمْ نسلُكْ بها سَبيلَ التصنيفِ، وإنَّما نَعمِدُ لِـمَا بَينَ أيدينا مِنْ «شَرحِ العُكْبَريِّ»[2] فنُلِمُّ بهِ، ولا يحضرُنا ساعةَ القراءةِ كتابٌ سِواهُ، ثم نَعُوجُ لِـمَا بَقِيَ بِخِزانةِ الحِفظِ، مـمَّـا عَلِقَ بها مِنْ سَالفِ النَّظَرِ في الأدبِ، فنُضِيفُهُ إليه بلا تنسيقٍ ولا ترصيفٍ، ولا ترتيبٍ ولا تصفيفٍ، ومتى مرَّ بنا شيءٌ أو تذكَّرناه-وهو يناسبُ موضِعًا منها- ألحقناهُ بهامشِ المُسوَّدَةِ.

---

(١) الإحماض: الإفاضة فيما يؤنس من الكلام والأخبار لما فيها من مُلَحٍ وحكايات. وإجمام الفكر: إراحته وتنشيطه.

(٢) عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبريُّ البغدادي، أبو البقاء: العلامة، النحوي...صاحب التصانيف...برع في الفقه والأصول، وحاز قصب السبق في العربية. أصله من (عُكْبرا)- بضم، فسكون، ففتح- بُليدة على دجلة، ووفاته ببغداد سنة (٦١٦)، من مصنفاته: «إعراب القرآن»، و«إعراب الحديث»، و: «التبيان في شرح الديوان-ديوان المتنبي-»- وغيرها. «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٩١-٩٢).
هكذا اشتهر أنه شارح ديوان المتنبي، وهو خطأ، واختار بعض المحققين المعاصرين أنه لتلميذه عفيف الدين علي ابن عدلان (ت:٦٦٦)، وذهب آخرون إلى أنه لزكي الدين السعدي، فالله أعلم. انظر: «التبيان لا للعكبري ولا لابن عدلان» بحث للشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الهليّل، نشر في: «مجلة الدراسات اللغوية» الصادرة عن مركز الملك فيصل بالرياض العدد (٢)، ربيع الآخر (١٤٢٢).

مِنْ أَمثِلةِ ذَلكَ: مَا ذَكَرْنَاهُ في أَثناءِ المَجْلِسِ السادسِ، مِمَّا اتفقَ لنا بِـ (مِنًى) سَنةَ (١٣٥٤)، وكانَ العزمُ على مواصلةِ العملِ، غيرَ أنَّ القارئَ ملَّ، فانعكسَ الأملُ، واستنوقَ الجملُ[١].

ومِمَّا ذَكَرْناهُ يَتَمَهَّدُ العذرُ للنقصِ والزيادةِ، والتحريفِ في الروايةِ، ولا بِدْعَ إنْ كَثُرَ الغلطُ، لأنَّا لمْ نَعتمدِ المراجعةَ لَهُ قطُّ، إلا معَ التبييضِ في بعضِ نُقَطٍ، ولا مُحاسبةَ إنْ قَلَّتِ المُنَاسَبةُ، ولا إيرادَ إنْ لـمْ يعذُبِ الاستطرادُ؛ إذِ التصنيفُ هو المخصوصُ بالنَّيقَةِ، لا ما كانَ على هذهِ الطريقةِ، وإنَّها مع الارتجالِ، وعدمِ الاتِّساعِ في المجالِ.. لَوِعاءُ طُرَفٍ وأدبٍ، ونُكَتٍ ونُخَبٍ، وجِدٍّ وهَزلٍ، ووَقْشٍ وجَزْلٍ، ومَا ذَاكَ بِقَلِيلٍ مِنْ مِثْلِي على كَثْرةِ إضَاعتِهِ، وقلَّةِ بِضَاعَتِهِ»[٢].

وَيَقولُ العَلَّامة حَمَدُ الجَاسِرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُعدُّ كتابُ «العُودِ الهنديِّ» مِنْ أحفَلِ كُتبِ الأدبِ بالفوائدِ والفرائدِ مِنَ الأشعارِ والأخبارِ، ممَّا يدلُّ على ما يَتصِفُ بهِ مؤلِّفُه مِنْ سَعَةِ الاطلاعِ، مع رَحَابةِ الصدرِ، في إيرادِ ما قد يتَحاشَى البعضُ من إيرادِهِ مِنَ النُكَتِ النوادرِ، وقد يَسوقُ بعدَ ما يُوردُ مِنَ الشواهدِ طرائفَ من الشِّعْرِ أوِ القِصص الحديثةِ»[٣].

---

(١) استنوق الجمل: أي صار كالناقة، مثلٌ يضرب للرجل يكون في حديث ثم ينتقل إلى غيره فيخلطه به.

(٢) «العود الهندي» (٥٥-٥٦). النيقة: المبالغة في التحسين. الوَقْشُ: صغار الحطب، والجزل: ما عظم من الحطب.

(٣) «مجلة العرب» العددان (٥/ ٦) ذي القعدة وذي الحجة، سنة (١٤١١)، عن مقدمة «العود الهندي» (٣٢).

ويقول أيضا: «ومعَ أنَّ السيدَ السَّقَّافَ لم يَتلقَّ العلمَ -فِيما عَلمتُ عنه- خارجَ الجزيرةِ، إلا أنَّ المرءَ حينَ يُطالعُ أَحَدَ مؤلَّفاتِه كِكتابِهِ عَنْ المتنبِّي.. يَعجبُ مِنْ سَعَةِ اطلاعِه، وقُوَّةِ استحضارِهِ للشواهدِ والنصوصِ عندَ الحاجةِ، وسُرعةِ بَدِيْهَتِه»[1].

ومِنْ شواهدِ نُبوغِه أنَّ حِوارًا دار بينَه وبينَ أحدِ شيوخِه في أحسنِ موضوعاتِ الشِّعْرِ، وأيُّهما أبلغُ تأثيرًا؟!

قال شيخُه: أحسنُها الغَزَلُ والنسيبُ، ولهذا كان شعراءُ العربِ يُقدِّمونَ النسيبَ والغزلَ في قصائدِهم.

فاستوقَفَه تلميذُه قائلًا: أمَّا أنا .. فالذي أَراه أنَّ أحسنَ مواضيعِه المؤثرةِ: شَكوى الفراقِ، وَلِيَ دليلٌ على ذلكَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالى.

فسأله شيخُه: ما دليلُك؟

فأجابه: دليلي عليه مِن سورةِ يوسفَ، قولُه تعالى لِنبيِّه ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. وسورةُ يوسفَ كلُّها محتويةٌ على شكوى الفِراقِ.

فاستحسَنَ الشيخُ جوابَ تلميذِهِ، فقَبَّلَ بينَ عينيه[2].

---

(١) «المصدر السابق».

(٢) مقدمة «العود الهندي» (٣٤-٣٥).

السَّقَّافُ روحةُ تحرُّرٍ ومَعينُ إنصافٍ:

نبوغُ السقافِ وحافظتُه المدهِشةُ، وَسَعَةُ اطلاعِه، وتضلُّعُه في العلمِ، ولا سيَّما علمَ العربيةِ نظمًا ونثرًا..ومن نَظَرَ في العربيةِ رَقَّ طبْعُه، وعذُبَ لفظُه..

وقبلَ ذلكَ رفيقُ التوفيقِ الذي أسالَ له الرِيْقَ وأوضحَ له الطريقَ إلى تجريدِ الاتِّباعِ للمعصومِ، والإنصافِ للأسلافِ!.

جَعَلَه يَلْهَجُ بتحكيمِ حُجَجِ الوحيينِ، ويَرُدُّ ما اختُلفَ فيه إليهما، فهما المعصومانِ الهاديانِ.

سيرًا منه على القاعدة المأثورةِ[١]، وهو مِنْ نَقَلَتِها فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُلٌّ يُؤخذُ مِنْ كلامِه ويُتركُ؛ ما عدا صاحبِ القبرِ الأعطرِ ﷺ».

مَعَ عِفَّةِ لفظٍ، وسلامةِ لسانٍ، فلا وَكْسَ ولا شَطَطَ، ولا شَطْحَ ولا نَطْحَ، فإن وافقَ فبعلمٍ، وإنْ خالفَ فبحِلْمٍ!

فهو القائلُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما يُوسِّعُ شُقَّةَ الخلافِ التَعصُّبُ»[٢].

وهو القائلُ: «والخَطْبُ يسيرٌ لم يُوَسِّعْهُ إلاَّ الحَسَدُ والتَّعصبُ، وإلاَّ.. فالتثريبُ في موضعِ الاختلافِ ممنوعٌ»[٣].

---

(١) أخرجها ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٧٦١، ١٧٦٢) عن الحكم بن عتيبة، ومجاهد بن جبر المكي، وذكرها السبكي في «الفتاوى» (١/ ١٤٨) من قول ابن عباس ثم قال: «وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس، مجاهد، وأخذها منهما مالك واشتهرت عنه»، وذكرها الحافظ ابن عبد الهادي في «إرشاد السالك» (٤٠٢)، فقال: قد صح عن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال... فذكرها.

(٢) «بلابل التغريد» (٦٧).

(٣) «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت» (٥٨٥).

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا قطيعةَ بينَ أهلِ الإنصافِ»[١].

وقالَ عَنْ والدِه رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: «وقدِ انطبعَتْ نَفْسُه ورَسَخَتْ أعضاؤُه على اتباعِ السُّنَّةِ في يَقَظَتِهِ وانتباهِهِ، وقُعودِه وقيامِهِ، ومَدْخلِهِ ومَخْرجِهِ، وقضائِه للحاجةِ، وأَكْلِه وشُرْبِه، انطباعًا لا يحتاجُ معَه إلى تكلُّفٍ... وإنْ كان ليَجُرُّنِي السِّنُّ فأُناقشَه إلى مسائلَ وأُجاذبَه البحثَ، فلا يَزيدُه إلا سرورًا واغتباطًا، على شَرْطِ أن أتوكَّأَ على الدليلِ، وأَعتمِدَ على النَّصِّ»[٢].

وامتدحَ أحدَ المصنِّفينَ المغاربةِ عندما اعترضَ على والدِه، وخَطَّأه في مسألةٍ فقال:

«ولله دَرُّ هذا الولدِ المُنْصِفِ، فلَقَدْ جعلَ الحقَّ رائدَه، ولم تَأْخذْه فيه عاطفةٌ، ولم تَثْنِهِ عنه عَصَبيَّةٌ، فبِمِثْلِه تَقَرُّ عينُ الإسلامِ، وعلى مِثْلِ هذا درجَ السلفُ الكرامُ، فإنَّ الحقَ أحقُّ أنْ يُتَّبَعَ»[٣].

وإليكَ أسطرًا ناصعةً، وأَحْرُفًا نيِّرةً تُنْبِئُكَ عَنْ بعضِ ذلك:

فحينَما شرَحَ حديثَ موسى والخَضِرِ ذكرَ دعوى بعضِ غلاةِ الصوفيةِ حِيَازَةَ عِلْمِ الخضرِ، الذي خُصَّ بهِ على الأنبياءِ، وبَنَوا على ذلكَ تفضيلَ الأولياءِ على الأنبياءِ شَنَّ عليهم غارةً نقديةً.. واحتج بقولِ الجُنيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطُرُقُ كُلُّها مسدودةٌ إلا على مَنِ اقتفى أَثَرَ الرسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ».

---

(١) «نسيم حاجر» (٢٥).

(٢) «إدام القوت» (٣٧١، ٣٧٤).

(٣) «بلابل التغريد» (٣٣٠).

وبقولِه أيضًا: «مَنْ لم يَحفظِ القرآنَ ولم يَكْتُبِ الحديثَ لا يُقتدى به في هذا العلمِ؛ لأنَّ عِلْمَنا مُقَيَّدٌ بالكتابِ والسُّنةِ»(١).

ثم تابعَ السَّقَّافُ في الردِّ عليهم إلى أنْ قالَ:

«إذْ لا كرامةَ إلَّا بِلزومِ الاستقامةِ..»(٢).

وختمَ كلامَه بقولِهِ: «وإنَّما أَطَلْتُ في هذا لِتَطَلُّعِ ضِبابِ القَرْمَطةِ(٣) عندَنا من أجحارِها، وبدأَ بعضُ مَنْ يُريدُ أنْ يَتفضَّلَ على أهلِ العلمِ بانتحالِ الكَشْفِ والوِلايةِ، وادِّعاءِ تِلكَ الحالِ الممقوتةِ، ولولا تضحيتي بالجاهِ والنَفِيسِ، لَاسْتَفْحلَ أمرُهم وجَرَى منهم ما جَرى مِنَ الضالِعيِّ(٤) في يافعَ، بدليلِ أنَّهم يُحَبِّذُونَهُ ويُكاتِبُونَهُ، ولكنِّي وَقَفْتُ لهم مَصْعَدَ النَّفَسِ، وأخذتُ مِنْ ضلالتِهم بِالـمُخنَّقِ، وأنا وحدي، واستعنتُ عليهمْ بالتدريسِ في «الشمائل النبويةِ»...فانقمعَ بعضُ الشَّرِّ، وانْحَسَمَ كثيرٌ مِنَ الداءِ، ووَقَفَ عندَ حَدِّهِ الغُرورُ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ»(٥).

---

(١) أخرجهما عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٥٥، ٢٥٧) وهما مشهوران عنه مستفيضان.

(٢) «بلابل التغريد» (٢٢٩).

(٣) الضب: دويبة معروفة، والجمع ضباب وأضب.

(٤) حسن هارون الغزالي، من دعاة نحلة وحدة الخالق بالمخلوق، الكافرة الخاسرة، وفد من بلاد (تهامة) إلى بلاد (يافع) سنة (١٣٤٣)، وبث فيها هذا المذهب الكفري، وأظهر القول برفع التكاليف عن الناس، وإنكار صحَّة نبوَّة نبينا ﷺ، وثبوت القرآن وإعجازه، حتى هلك سنة (١٣٥٤). وممن رد عليه: الإمام المحقق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ت١٣٨٦)، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أيام إقامته في مدينة عدن سنة (١٣٤١)، انظر «آثار المعلمي» (٦/ ١٧٩-)، «الموسوعة اليافعية» (٧/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٥) «بلابل التغريد» (٢٣٠-٢٣٥).

وقال بعدَها بأسطُرٍ: «وفيه [حديثُ موسى مع الخَضِرِ] حملُ الزادِ في السَّفَرِ، خلافًا لما عليه المتصوفةُ، وخيرُ الهديِ هديُ محمدٍ ﷺ، وقد كانَ يَدَّخرُ لأَهلِهِ قوتَ سَنَتِهم»[١].

وأَرسى قاعدةً عظيمةً في التعاملِ معَ ما ظاهرُه معارضةُ الشريعةِ فقال: «فمتى نُسِبَ ما يُنكِرُه الشرعُ إلى مَنْ تَحقَّقتْ وصَحَّتْ وِلايتُه: فالتعليلُ، فإنْ صَحَّ السَّندُ: فالتأويلُ.. فإنْ لم يكنْ إلا هوَ أو الشريعةُ فهيَ آثرُ؛ لأنَّ احترامَها يجبُ أنْ يكونَ أكثرَ...»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي إمكانِ القُبورِيِّينَ أنْ يَستأنِسُوا لِبعضِ شأنِهم بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١] لكنْ يُقالُ لهم: إنَّه شرْعٌ قديمٌ، وَرَدَ في شَرْعِنا مَنْعُه...»[٣].

---

(١) «المصدر السابق»، وادخاره ﷺ أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧)، عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولفظ البخاري: «أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم»، ولفظ مسلم: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله، مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله نفقة سنة، وما بقي يجعله في الكراع والسلاح، عدة في سبيل الله». قال الإمام النووي في شرح الحديث: وقوله: «ينفق على أهله نفقة سنة» أي: يعزل لهم نفقة سنة، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة، في وجوه الخير، فلا تتم عليه السنة، ولهذا توفي ﷺ ودرعه مرهونة على شعير استدانه لأهله، ولم يشبع ثلاثة أيام تباعًا وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بكثرة جوعه ﷺ وجوع عياله». وانظر «الفتح» (٩/ ٥٠٣).

(٢) «الديوان» (٢٥٨).

(٣) «بلابل التغريد» (٣٣٧).

وبَحَثَ مسألةَ التبرُّكِ بآثارِ الصالحينَ وأَطْنَبَ وأطالَ واختتمَ المقالَ فقال: «غَيْرَ أنَّ الجهلةَ يركبونَ الغَلَطَ، ويذهبونَ الشَّطَطَ، وينحرفونَ عَنِ الصِّراطِ، ويَميلونَ إلى جانبِ الإفراطِ، وعلى كلِ حالٍ فالاعتدالُ زَيْنٌ، والتعصبُ شَيْنٌ، والجهلُ مَهْواةٌ، والكلامُ لا يَنفعُ مَنِ الشيطانُ أغَواهُ، واتِّباعُ الطريقِ أحزَمُ، والتَحرِّي لدى الاشتباهِ أَلزمُ»[1].

وأَنكرَ الرَّقْصَ والسماعَ فقال: «وبهم ...اقتدى السادةُ الصوفيةُ في السماعِ، إلَّا أنَّ بعضَهمْ أَفرطَ فيه، واستعملَه في المساجدِ، فأَنكرَ عليهم أَئمةُ الشَّرْعِ، ومِنْ أَشدِّهم وَطْأَةً في الإنكارِ عليهمْ: الإمامُ ابن المقري، مؤلفُ «الإرشادِ»، و«الرَّوضِ»[2]، وما أَظنُّه يُبالغُ في ذلك، إلا وقد رأى مِنْ متصوفةِ وقتِه ما يُوجبُ ذلك عليه...

---

(١) «بلابل التغريد» (٣٤٧)، على أن له هفوات في هذا الباب عفا الله عنه، كما بها في «الديوان»، فلا أدري بآخر الأمرين.

(٢) «إرشاد الغاوي إلى مسالك الحاوي»، «روض الطالب ونهاية مطلب الراغب»، كلاهما للعلامة إسماعيل ابن أبي بكر بن عبد الله الشرجي الشهير بابن المقري الزبيدي (ت:٨٣٧)، والأول طبع بتحقيق الشيخ وليد الرُّبيعي، والثاني: طبع مع شرحه: «أسنى المطالب بشرح روض الطالب»، للقاضي زكريا الأنصاري، وطبع مفردًا بتحقيق الشيخ علي بن قاسم النوري.

وذِكْرُ السقاف لهذين الكتابين، من باب الإلزام... فكما أخذوا فقهه فليأخذوا منهجه في هذه المسائل!

وفي «إغاثةِ اللَّهْفانِ» لابنِ القَيِّمِ، نَعْيٌ على أفعالِهم، وتَشْهِيرٌ بهم، وقال: مَنْ لم يُطْرِبْهُ القرآنُ فلا شَفاهُ الله أبدًا»[١].

وأبانَ سَبَبَ اختلاقِ غُشَّاقِ الكَرَاماتِ لتلكَ الخُرافاتِ فقال: «واعلموا أنَّ أولئك الدَّجَّالِينَ لم يَلجأوا إلى تلكَ الأحلامِ والأوهامِ إلاَّ لصُفُورةِ اليَدِ مِنَ المكارمِ الصادقةِ التي لو ادَّعَوْها لِأصحابِهم لكذَّبَتْهمُ العبارةُ، فما اضْطُرُّوا إلى الإحالةِ على ما في الغيبِ، إلَّا بعدَ ما أَعْوَزوا ما في الجَيْبِ، وقد أَصَّلُوا في نفوسِ الجامدينَ أنَّ إنكارَ مثلِ ذلك علامةُ الحِجَابِ، ودليلُ الطَّرْدِ والـمَقْتِ، فتَبارَوا في ذلك إلى أَبعدِ شَوْطٍ، بعضُهم كَيْدٌ وتضليلٌ، وبعضُهم بَساطةٌ وسَذاجةٌ وتأويلٌ؛ لهذا تَجِدُ أكثرَ تراجمِ الكراماتِ والمدْحِ الـمُجَرَّدِ والتفاخرِ بما يَقرُبُ مِنْ كلامِ الباطنيةِ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُنكرًا صَعْقَ أهلِ السماعِ: «لا يَبْلُغُ تأثيرُ السماعِ إلى الصَعْقِ فيمَنْ بَلَغَ وَقارَ الجبالِ مِنَ الصحابةِ، وإنْ غَلَبَهمُ الخشوعُ، واستولى عليهمُ الخضوعُ، وفاضَتْ مِنْ مَحاجِرِهمُ الدموعُ، وإنَّما يَبلغُ ذلك فيمن خَفَّ نَسيمُه، ولم يَصِلْ إلى ما كان عليه سيدُ البشرِ، وكُمَّلُ أصحابِه، من نهايةِ الثباتِ والوقارِ»[٣].

---

(١) «بلابل التغريد» (٥١١)، ولم أقف على كلام الحافظ ابن القيم في الكتاب المذكور، والذي وقفت عليه في كتابه «زاد المعاد» (٤/ ٥٢٠)، هو قوله: «فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله». والله أعلم.

(٢) «بضائع التابوت» (٢/ ٢٦).

(٣) «العود الهندي» (٨١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُكِيَ عَنْ كثيرٍ مِنْ كُبَراءِ القومِ [الصوفيةِ] الاقتصارُ على الفرائضِ، وأقولُ: وهذا مما يُناقَشونَ فيه؛ فقد كان سيدُ الكامِلينَ ﷺ يَقومُ رمضانَ حتى تَتَفَطَّر قَدَماه، ويَختصُّ العَشْرَ الأواخِرَ منه بمواصلةِ الليلِ بالنهارِ في العبادةِ، وما يُخالِفُ هديَه فهو: لا؛ مِـمَّنْ كان!»[1].

كما ذكر عنِ الرازيِّ إجماعَ المتكلمينَ على أنَّ مَنْ عَبَدَ أو صَلَّى لِأجلِ خوفِ العقابِ، أو طَلَبِ الثوابِ، لم تَصِحَّ عبادتُه، لكنَّ النظرَ حينئذٍ في بقاءِ إسلامِه.

ثم قال السَّقَّافُ: «أقولُ: وهو كلامٌ تَقْشَعِرُّ له الجلودُ، ويَذوبُ منه الجُلمودُ، وتَنْفَسِخُ له القوائمُ، وتَعْجِزُ عن حَمْلِه القُوَى، وقد تأوَّلَ له ابنُ حجرٍ الهَيتميُّ بما إذا تَمحضَتِ العبادةُ لِقصْدِ ذلك، بِحيثُ لم تكنْ لولاه، ولكنَّه تأويلٌ باردٌ، لا يخلو عن السَفْسَفةِ؛ لِأنَّه ممجوجٌ بسائرِ آياتِ وأخبارِ الترغيبِ والترهيبِ...»[2].

ولَمْ يَكنْ ما سَبقَ مُحاجَّةً بِالكَلامِ -ونِعِمَّا هِيَ- بل كانتْ مُنازلةً في المَيدانِ، اسمعْ إليه وهو يَصِفُ بعضَ تلك الصَّوْلاتِ:

«وقد اتَّفقَ لي في شَرْخِ الشَّبابِ[3] أنْ أَفضْتُ في درسي كَجَاري عادتي في النَّعْيِ على الـخُـرَافيِّينَ، وتفنيدِ مزاعمِهِمْ، وأَنكرْتُ قولَ بعضِهم: إنَّ أَتَانَ الفقيهِ الـمُقدَّمِ -قُدِّس سرُّه- كانت تَعرُجُ إلى السماءِ، وَتَأتي بخَبرِها طَرَفَيِ النَّهارِ، معَ

---

(١) «بلابل التغريد» (١٧٥)، أي: وما يخالف هدي رسول الله ﷺ فلا قبول له..

(٢) «بلابل التغريد» (٥٢).

(٣) شرخ الشباب: أوله.

أنَّ البُراقَ لا يَقدِرُ على ذلك، فَلَوْ أنها حَضَرتْ ليلةَ المِعراجِ لأَغْنَتْ عنه!؛ لِأنَّ البُراقَ لم يُجاوِزْ إِيْليا على الأَصحِّ!

وَقولَ بعضٍ آخرَ عَنْ بعضِ العَلَويِّين: إنه كانت له زوجةٌ شريفةٌ مضى لِحَمْلِها ستةُ أَشهُرٍ فتزوَّجَ فلَّاحةً فنشَزَت الشريفةُ فخيَّرها بينَ الرجوعِ أو يَأخذَ الحَمْلَ مِنْ بطنِها إلى بطنِ الفلَّاحةِ، فلما أَصرَّتْ فَعَلَ ما تَهَدَّدَها به، وَوَلَدَتِ الأخيرةُ لِثلاثةِ أَشهرٍ مِنْ حينِ الدُخولِ!

وقولَ آخرَ: إنَّ أحدَ الأولياءِ ماتَ عَنْ زَوجةٍ صالحةٍ مِنْ غَيرِ وَلَدٍ، فاشْتَدَّ حُزنُ تلكَ الصَّالحةِ، وعَظُمَ وَجْدُها عَليه، فكانَ يَتَردَّدُ عليها مِنْ ضَريحِهِ حتى أَحْبَلَها بعدَ موتِه فجاءتْ بِوَلَدٍ نَسَبُوهُ إليهِ.

فلما أنكرتُ مِثْلَ هذهِ الأضاليلِ التي لها يَتَذَمَّرُ الإسلامُ، وتَتَنَكَّسُ الأعلامُ، وتَكِلُّ عَنْ عَدِّ شرِّها الأقلامُ، فما حصَّلْتُ إلاَّ الملامَ، وذلكَ هو الذي استَغْرقَ جُهدَهمْ في تَشويهِ سُمْعَتي، والتَّمَضُّضِ بِعِرْضِي، والتقوُّلِ عليَّ، والسِّعايةِ بي، لولا وقايةُ الله!»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَقَفْتُ نفسي -ولله الحمدُ- لجهادِ الدجالينَ، ومحاربةِ قضاةِ السُّوءِ المُسلَّطِينَ، وما عندي إلاَّ قوةُ الحقِّ، ونصوصُ العلمِ، وقد تَألَّبُوا ضِدِّي، كما يَعلمُ الخاصُّ والعامُّ، وانضمَّ إليهم السلاطينُ والوُجَهاءُ والأعيانُ، وأهلُ العِلْمِ الأجوفِ والولايةِ الزائفةِ، واستمالوا سائرَ الطبقاتِ، وكَتَبُوا

(١) «الديوان» (٢٥٨)، وانظر: «تحقيق الفرق» (١٥٧).

المحاضرَ عليَّ، وسيَّروها إلى دارِ الاعتماد بِعَدَنٍ، وإلى غيرِها، وقَصَدُوني بِكُلِّ أَذَى، فصبَّرتُ لهم نفسي؛ إذِ الأجرُ والفخرُ لا تُنال إلَّا كذا، ولم أَزَلْ أُثَقِّفُ العِوجَ، وأَكْشِفُ الرَهَجَ، وأُقارِعُ بالحُجَجِ، وحيدًا فريدًا، وما زَلَّ لي نَعْلٌ، ولا خَوَى نَجْمٌ، ولا جَفَّ رِيْقٌ، ولا اسْتَبْهمَ طريقٌ، ولم تأخذْني وَحْشةٌ مِنْ عَدَمِ المُعينِ، ولا دَهْشةٌ مِنْ كَثْرةِ المُتألبينَ، وأنا أَتحدَّاهمْ بالمناظرةِ والمُباهلةِ في كلِّ حينٍ، وأسألُ اللهَ أنْ يعزِمَ لي بالثباتِ حتى يأتِيَني اليقينُ»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقد عَمِلَ الشيخُ عَوَضُ جُبرانُ تابوتًا لقبرِ جدِّي المحسنِ فمنعتُهُ مِنْ وَضْعِه عليه!»[٢].

ولم يَكُنْ ذلك الصَدْعُ بالحقِ مِنْ وَهَجِ أيامِ الشبابِ، بل ظلَّ نجمُ الإنكارِ بازغًا وهو يُدْلِفُ إلى السبعينَ مِنْ عُمْرِه، أَنْصِتْ إليه وهو يتكلمُ بلسانِ الشابِّ في سِنِّ الشيخِ: «وأما إنكاري على القُبوريِّينَ والمغرورينَ فهو الذي ذهبَ بأكثرِ مصالحي المادِّيةِ، ولم يتركْ لي مِنْ صديقٍ، وقد دَخلتُ فيه دونَ العشرينَ، وها أنا ذا أُقْرِفُ فيه على السبعينَ لم أحِدْ عن مبدئي قِيدَ شَعْرَةٍ، ولم أَلتفِت عنه يمنةً ولا يَسْرةً، بغيرِ مساعدٍ ولا مُعينٍ، ولكنِّي بالله أَستعينُ. وأسألُه الثباتَ إلى المماتِ»[٣].

---

(١) «بلابل التغريد» (٤١)، والرهج: الغبار.

(٢) «إدام القوت» (٣٦٩).

(٣) «رسالة المساواة» (١٢). يدلف: يقرب، وأقرف: أدنو.

وشَبَّه حالَهم بحالِ الأحبارِ والرُّهبانِ! الذين فضحَهمُ القرآنُ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما مُنتحِلُو الوِلايةِ، ومُكلِّفُو الناسِ المبالغةَ في الاعتقادِ بهم، وتحسينَ الظنِّ فيهم، فإنَّ كَشْفَ عَوارِهم مِنْ أهمِّ الواجباتِ، وَلِذا اعتنى القرآنُ بِكَشْفِ دسائِسِ الأحبارِ والرُّهبانِ، وهؤلاءِ على شاكلتِهم، والسكوتُ على دعايةِ أصحابِهم، يُؤدِّي إلى مفاسدَ عظيمةٍ، ولهذا ضحَّيتُ بجميعِ مصالحي في هذا السبيلِ، بِلا مُعينٍ ولا نَصيرٍ، وباللهِ التوفيقُ»[١].

وجَهَرَ بالإنكارِ على الملأِ بإبطالِ «الأربعينَ» للسُّلَميِّ فقال: «...والذي نَدينُ الله بِه أنها موضوعةٌ لا تَحِلُّ روايتُها بحالٍ، ولكنَّ قومَنا يُحبونَ الطَّوامَّ، والتلبيسَ على العَوامِّ، والتقلبَ في أثوابِ الرياءِ؛ لصَيْدِ الحُطامِ، فيومًا يَتجاوزونَ بالعلماءِ مقاديرَهم لأَجلِ الغَرَضِ، وآخرَ يَحطُّونَ مِنْ كرامتِهم؛ لِمَا في قلوبِهم مِنَ المرضِ»[٢].

وأَنكَرَ ما يَحدُثُ عندَ قُبَّةِ الشيخِ الحَبْشِيِّ في سَيْئُونَ فقال[٣]: «بَلَغَنِي أنَّه عادَ إلى التطَلُّعِ بين السُّفَهاءِ في الأيامِ الأخيرةِ لِـمَا يَرونَه مِنْ عُكوفٍ له حولَ تابوتِه الضَخْمِ، وتلوينِهم قُبَّتَه بالصِّبْغِ الأخضرِ، تشبيهًا بِقُبَّةِ النبيِّ ﷺ وإغراقِهم في الثناءِ عليه ولا سِيَّما عندَ مَنْ يَعقِلُ:

تـــراهم عنـــدَ مَلْحـــدِهِ عكوفًـــا كمـــا عَكَفَـــتْ هُـــذيلٌ على سُـــواعِ

---

(١) «بلابل التغريد» (٣٨٦).

(٢) «تحقيق الفرق» (١٢٦)، وأصله محاضرة ألقاها في سيئون.

(٣) «بضائع التابوت» (٢/ ١٢٠).

وحذَّرَ من التعمُّقِ في حقائقِ التصوُّفِ فقالَ: «الخوضُ في حقائقِ الصُّوفيةِ والفلاسفةِ، لا يَقِلُّ خطرًا مِنَ الخوضِ في علمِ الكلامِ، وقد جُلْتُ فيه معَ الجائلين، حتى خَشِيتُ على نَفْسي مِنْ تَشَوُّشِ الفِكْرِ، فَطَفِقْتُ أُعالِجها بآياتٍ من القرآنِ، وتَناسِي تلك المباحثِ، حتى بَرِئْتُ ولله الحمدُ.. فَقِسْ عقيدةَ أهلِ الصلاحِ مِنَ العوامِّ بعقيدةِ المتكلمينَ، فترى اعتقادَ العاميِّ كالطَّودِ الراسخِ في الثَّباتِ، لا تُحركُه الدواهِيْ والصواعقُ، وعقيدةَ المتكلمِ؛ الحارسِ اعتقادَه بتقسيماتِ الجَدَلِ، كخيَطٍ مُرْسَلٍ في الهواءِ، تُميلُه الرياحُ مرةً هكذا ومرةً هكذا»[(١)].

وحَذَّرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ تَنكُّبِ سِيرةِ رسول الله ﷺ وسُنَّتِه فقالَ[(٢)]:

خَلُّوا الخرافاتِ والأحْلامَ إنَّ لنا ... دِينًا قَويمًا من الأوهامِ قد خلَصا
ما في شريعتِنا وَهْمٌ ولا شُبهٌ ... لكن عزائمُ صدقٍ مازجتْ رُخَصا
وهذهِ سيرَةُ الهادي وسُنَّتُه ... من حادَ عنها ولو قِيدَ البنان عَصَى
خير النبيين مَنْ شُبَّاكهُ لنُهَى ... أهل النُّهَى قَدْ غدا من حبِّهِ قَفَصَا

وشكى غُربَتَهُ بينَ المتعصِّبينَ، فقال[(٣)]:

فكم بدعةٍ أحيَوْا وكم سنَّةٍ محَوْا ... فهم منبعُ الداء العَيَا وجذُورُه
وكم قمتُ فيهم معلِنًا بنصيحتي ... كأنيَ داوودٌ ونصحي زَبُورُه

---

(١) «بلابل التغريد» (١٣)، «بضائع التابوت» (٢/ ٤٨)،
(٢) «الديوان» (٢٣٩).
(٣) «الديوان» (٣٦٩).

ونَقَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ تأويلَ صِفَةِ الكلامِ للهِ تعالى ثُمَّ قال: «سُبحانَك هذا بُهتانٌ عظيمٌ، فلا أَسلَمَ مِنَ اللِّياذِ بمذهبِ السَّلَفِ، مِنْ إمرارِ آياتِ الصفاتِ وأحادِيثِها على ما يَليقُ بها»[1].

ونَصَحَ المشغولينَ بعيب إخوانِهم أَنْ يَتفقَّدُوا أنفسَهم فقال: «اقتَرَحَ عليَّ جماعةٌ مِنَ الإخوانِ التأليفَ في الردِّ على الإرشاديِّينَ، فقُلتُ لهمْ: أَفْيَدُ مِنْ ذلكَ أنْ تُصلِحُوا أنفسَكم، فإنَّ الخَطْبَ بينكمْ أعظمُ منه بينكم وبينَ غيرِكم، وأَعداؤُكم مِنْ أَنْفُسِكمْ أَشدُّ مِمَّنْ سِواهمْ، ولا سَبيلَ إلَّا بحفظِ الشريعةِ التي لا يُضيِّعُ اللهُ مَنِ احتفظَ بها، وأَنْ تَأخذوا على يَدِ المخالفِ منكم، وتَرُدُّوه إلى الطريقةِ، فإذا قُمتمْ بذلكَ فقد كُفِيتمْ كلَّ مُؤْنةٍ، وحَصَلَتْ لكم كلُّ مَعونةٍ، وإلا فَأَنفسَكم لُومُوا، وعليها فارجِعُوا، وإنَّا لم نُؤمرْ بالسِّبابِ، ولا بتقطيعِ الأسبابِ.

وقلتُ في ذلكَ:

بـني الزهـراءِ جَـدَّ الأمـرُ فامضُـوا ... على سَـنَنِ الـهُدى والإتِّبـاعِ
وذُودوا عَـنْ حَـريمِ الدِّيـنِ وامحُـوا ... بِهِمَّـتِكُمْ ضـلالَ الإبتـداعِ
ولا تَهِنُـوا ولا تَـألُوا اجتهـادًا ... لِيأخُـذَ مجـدُكم في الإرتجـاعِ
فقـد عظُـم البـلاءُ ومـا نَهضـتُم ... إلى طُـرُقِ النجـاةِ بطُـولِ بـاعِ[2]

---

(١) «بلابل التغريد» (٦٢).

(٢) «الديوان» (٢٤٧). وسيأتي الحديث عن الإرشاديين.

ومِنْ مظاهرِ تحرُّرِه وإنصافِه أخْذُه عن علماءِ المذاهبِ الثلاثةِ، وإنصافُه لهم حتى من علماءِ مذهبِه الشافعيِّ.

فَقَدْ أخذَ عَنِ الإمامينِ: ابنِ تيميةَ وابنِ القيِّمِ[١] ناعتًا لهما -كثيرًا-: بالعلَّامةِ، ولِلأولِ بـ الشيخِ الإمامِ، وبـ بشيخِ الإسلامِ، التي يُرْهَقُ بها باصِرٌ لم يَكتحلْ بـ «الردِّ الوافر».

ولمَّا أبطلَ شبهةَ بعضِ أهلِ القبورِ احتجَّ بكلامِ الحُفَّاظِ فقالَ: «وكأنما يَتوكؤون في هذه التُّرهاتِ على مِثْلِ: .. «لو اعتقدَ أَحَدُكم في حَجَرٍ لنَفَعَه»، فهذهِ هي فيما إِخَالُ بَذْرةُ بِدْعتِهم وخَميرةُ غُلُوِّهِم، معَ أنَّ العلَّامةَ ابنَ تيميةَ، والحافظَ ابنَ حَجرٍ يقولانِ: إنَّ ذلكَ الحديثَ كذبٌ لا أَصْلَ له، بل قال العلَّامةُ ابنُ القيِّمِ: إنَّه مِنْ كلامِ عُبَّادِ الأَصنامِ»[٢].

بل قالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلِي في التوسُّلِ والاستغاثةِ رسالةٌ ضافيةُ الذيلِ، ابتعدتُ فيها عن طَرَفِ الإفراطِ والتفريطِ، واعتمدتُ فيها النَّقْلَ عَنِ العلَّامةِ ابنِ تيميةَ، وتلميذِه ابنِ القيِّمِ؛ لأنَّ كلامَهما أقوى حجةً في الموضوعِ، على مَنْ يَتطرفُ فيه»[٣].

---

(١) «بلابل التغريد» (٣٩، ٤٢، ٤٤، ٣٠٧، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٧٢، ٤٤٥، ٤٦٢، ٥١١، ٧٥٨، ٧٧٢، ٧٨٣، ٨١٢)، «إدام القوت» (٣٠٤، ٣٥٢، ٣٨٢، ٣٩٩، ٤٩٩، ٥٣٢، ٥٨٥).

(٢) «إدام القوت» (٤٦).

(٣) «بضائع التابوت» (٢/ ١٢٣).

وانتَصرَ لهما مِنَ ابنِ حَجَرٍ الهَيتميِّ الشافعيِّ فقال: «ومثلُ هذا الكلامِ موجودٌ بِكَثْرةٍ في كلامِ ابنِ تيميةَ وابنِ القيِّمِ، وهما من الحنابلةِ، فلَعلَّهُ إيَّاهما يَعني، وإليهما يُشيرَ، ولكنَّه لم يُفْصِحْ بأسمائِهما؛ لأنَّه كثيرًا ما يَتورَّكُ عليهما، ويرجُمُهما بِجَلامِيدِ الأحجارِ، إلَّا أنَّه عندَما يَحتاجُ للاستفادةِ مِنْ كلامِهما، يَنسى كلَّ شيءٍ، وسكوتُه على هذا الكلامِ هُنا أمارةُ اعتمادِه، بل إنَّه لم يَسُقْه إلَّا في مقامِ الاستدلالِ، فهو مُقَرِّرٌ له»[١].

وانْتَصفَ لأبي العباسِ مِنَ السُّيوطيِّ الذي رماه بالكِبْرِ فقال: «وهذا تقيُّ الدِّينِ ابنُ تيمية يُتروَّحُ مِنْ كلامِ الأُسيوطيِّ أنَّه مظلومٌ في التعصبِ عليه الذي أفضى بِه إلى السِّجْنِ ثم الموتِ فيه، ورأيتُه يعترفُ له بفضلٍ كبيرٍ خارقٍ للعوائدِ، إلَّا أنَّه وَصَمَه بالكِبْرِ فناقشتُه في رسالةٍ لي جَمَعَتْ كثيرًا مِنَ الفوائدِ، واستندْتُ في نَقْضِ كلامِه إلى أنَّني رأيتُ القرآنَ على طَرَفِ لسانِه وأَسِلَةِ قلمِه، والله عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]»[٢].

وانتصَفَ للسُّيوطيِّ مِن ابنِ حَجَرٍ الهَيتميِّ فقال: «وقد أَخذَ العلَّامةُ ابنُ حَجَرٍ الهَيتميُّ في «فتاواه الحديثيةِ» بغيرِ أمانةٍ، ومِنْ دونِ أدنى إشارةٍ للسيوطيِّ...».

وأفادَ أنَّها عادةٌ مِن ابنِ حَجَرٍ الهَيتميِّ معَ كلامِ غيرِهِ[٣].

---

(١) «بلابل التغريد» (٣٣٨-٣٣٩).

(٢) «تحقيق الفرق» (١٣٣).

(٣) «بلابل التغريد» (٧٠٦).

بل قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد مسخَ العلامةُ ابنُ حَجَرٍ بهذا الجوابِ مُؤَلَّفًا ضافيَ الذُيولِ لِلحافظِ السُّيوطيِّ، سمَّاه: «تزيينَ الآرائكِ»، ولم يَتفضَّلْ بإشارةٍ حتى خَفيَّةٍ إليه، معَ كَثْرَة ما يُقرِّرُ في مؤلَّفاتِه الفقهيةِ، مِنْ دقائقِ المسائلِ في أبوابِ السرقةِ!!»[١].

والسَّقَّافُ يُشدِّدُ في بيانِ الأخذِ مِن كُتبِ السَّابقينَ، وكم رأيتُه يُكرِّرُ -حينَما يَقفُ على ما سُبِقَ إليهِ مِنْ عِلمٍ-: «ويَشهدُ اللهُ، والرقيبُ الأدنى عليَّ أنِّي لم أَكنْ وَقَفتُ على ما قالَه....»[٢].

ولا شَكَّ أنَ بيانَ الأخْذِ مِنْ عِلْمِ مَنْ سَبَقَنا أكثرُ بركةً، وأبرُّ بسَلَفِنا..[٣].

وأشارَ إلى تَحقيقِ علَّامةِ اليمنِ ابنِ الوزيرِ بابَ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ فقال: «وأطالَ في ذلكَ العلَّامةُ ابنُ الوزيرِ في «إيثارِ الحقِّ» بما يَتعينُ الوقوفُ عليه»[٤].

وأخذَ عَنِ الشوكانيِّ في ثلاثةِ مواضعَ -محتجًّا بكلامِه-:

الأولِ: في إنكارِ شيخِ الإسلامِ الشوكانيِّ تطويلَ الأكمامِ في اللِّباسِ بما يُلحِقُه بالإسرافِ والخُيَلاءِ، ومخالفةِ السُّنةِ[٥].

---

(١) «المصدر السابق» (٧٣٠).

(٢) انظر مثالًا في «العود الهندي» (٦٥٨).

(٣) قال الشيخ علي القاري: «ومن الفائدة في الإسناد إلى صاحب الفائدة من زيادة العائدة ما قيل: علمان خير من علم واحد، مع ما في الإضافة من براءة من المخافة». «كشف الأسرار» (١٥١).

(٤) «السيف الحاد لقطع الإلحاد» المطبوع مع «بلابل التغريد» (٧٤١).

(٥) «بلابل التغريد» (٣٠٧).

الثاني: في ردِّ الشوكانيِّ على البيضاويِّ في قولِه الغريبِ كما وَصَفَه السَّقَّافُ-: «مَنِ اتخذَ مسجدًا في جوارِ صالحٍ وقَصَدَ التَّبركَ بالقربِ، لا لتعظيمٍ له، ولا لتوجهٍ نَحْوَه، فلا يَدخلُ في الوعيدِ، أي الواردِ في النَّهْيِ عَنِ اتِّخاذِ القبورِ مَساجدَ».

قال السقافُ: «ووافَقَه القَسْطلَّانيُّ، وردَّه الحافظُ الشوكانيُّ، وقال: إنَّه مصادمٌ لِلنَّصِّ»[١].

الثالثِ: في بابِ السماعِ ذَكَرَ كلامَ الشوكانيِّ بِطُولِه ثم قالَ في آخِرِه: «قالَ [الشوكانيُّ] بعدَ الإطالةِ: وإذا تَقرَّرَ جَميعُ ما حَرَّرْنَاهُ مِن حُجَجِ الطريقينِ، فلا يَخفى على الناظرِ أنَّ مَحلَّ النِّزاعِ إذا خَرَجَ عَنْ دائرةِ الحرامِ، لم يَخرجْ عن دائرةِ الاشتباهِ، والمؤمنون وَقَّافونَ عندَ الشُّبُهاتِ، كما صَرَّحَ به في الحديثِ الصحيحِ[٢]، ومَنْ تَرَكَها فقدِ استبرأ لِعرْضِه ودِيْنِه، ومَنْ حامَ حولَ الحِمى يُوشِكُ أنْ يَقَعَ فيهِ».

قال السقافُ: «انتهى كلامُ الشوكانيِّ بِيَسيرِ تَصَرُّفٍ، ولَقْطٍ واختصارٍ، وآخِرُه جِدٌّ نَفيسٌ»[٣].

---

(١) «المصدر السابق» (٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) «بلابل التغريد» (٥٠٠)، وكلام شيخ الإسلام الشوكاني في «نيل الأوطار» (١٤/ ٥٢٣-٥٢٩).

واستَدركَ على ابنِ حَجَرٍ الهيتميِّ -في دعواه الإجماعَ على تَفضيلِ القبرِ المُكرَّمِ على العرشِ والكرسيِّ- فقال: «والحقُّ أنَّه قولٌ مُولَّدٌ، فادِّعاءُ الإجماعِ في ذلك مِنْ أظهرِ الأغلاطِ..»[١]

ولمَّا ذَكَرَ عَنِ الحافظِ ابنِ حَجَرٍ العسقلانيِّ الشافعيِّ أنَّه أفتى بأنَّ العلَّامةَ العَيْنِيَّ الحنفيَّ أنكرَ ما أثبتَه رسولُ اللهِ ﷺ بقولِه «إنَّ العَيْنَ حَقٌّ»[٢]. قال: «والحالُ أنَّ العَيْنِيَّ لم يُرِدْ إنكارَ أحقيَّةِ العينِ، إنما أنكرَ خُصوصَ انهدامِ المنارةِ بها، ولا حَرَجَ في ذلك».

ثم قال السقافُ: «وأكبرُ من ذلك ما ادَّعاه أبو بكر بنُ العَرَبيِّ مِنْ إفتائِه بِقَتْلِ رجلٍ كَرِهَ الأحمرَ، وقال: لِأنه كَرِهَ لِبْسَةً لَبِسَها رسولُ اللهِ ﷺ وذُكِرَ أنَّه قُتِلَ بِفَتواه، مع أنَّ في المسألةِ تفصيلًا، ولا يُحصى كَثْرةً مَنْ قال: بكراهةِ الأحمرِ البَحْتِ، وحَمَلوا حُمْرةَ حُلَّتِه عَلَيْهِ السَّلَامُ على التخطيطِ.

نَعوذُ بالله من الإفراطِ والتفريطِ»[٣].

---

(١) «العود الهندي» (٥٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

(٣) «العود الهندي» (٣٤٣)، ويحسن بك الوقوف على السجال الشعري بين الشهاب ابن حجر والبدر العيني. ثم وقفت على كلام ابن العربي في «سراج المريدين» (١/ ١٠٠) ولفظه: «وقد كنت لبستُ بُرْنُسًا أحمر سنة خمسمئة، وحضرنا مجلسًا للأقضية، وفيها بعض المُفْتِين فقال -لما خرجنا منها-: من لبس برنسًا أحمر لم تَجُزْ شهادته. فنُمي ذلك إليَّ فقلت: «من قال هذا يستتاب، فإن تاب وإلا ضُرِبَتْ عنقه»، وجعلتُ أسرد الأحاديث في ذلك.

فإن قيل: هي من شِعَارِ الجُنْدِ؟ قلنا: إذا كان شيئًا جائزًا في الشريعة مفعولًا لمُبَلِّغِها لم يَعِبْه أن يكون عليه من لا تُرضى سيرته».

وانتصفَ لابنِ حجَرٍ مِنَ العَيْنيِّ فقال: «وقد أغارَ العَيْنيُّ على قِصَّةِ فُلَيْحٍ المنْصُوريِّ، الذي أخرَجَها الحافظُ بِسَندِه، ولم يَعْزُها للحافظِ، وهو غيرُ مناسبٍ لِأمانةِ العلمِ»[1].

وتعقَّبَ العلّامةَ الجُوَينيَّ فقال: «وقولُ إمامِ الحرمينِ: ما أصابتْ امرأةٌ إلا أُمَّ سَلَمةَ يومَ الحُدَيبيَةِ مردودٌ بالحِسِّ، وبما كان من ابنةِ شُعيبٍ إذْ قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقد أُثِرَ عن ابنِ الخطابِ: أنَّه كان يُشاوِرُ النساءَ»[2].

(١) «بلابل التغريد» (٣٥٣).

(٢) «المصدر السابق» (٩٦).

خُشوعُه وتَواضُعُه:

مع تَفَنُّنِ السقافِ، وسَعَةِ اطلاعِه، وجَزَالةِ كلامِه، وقُوَّةِ شَكيمتِه، وشجاعتِه في مُقارعةِ المخالفينَ لِمَا يَعتقدُه ويَدينُ اللهَ به، فقد كانَ على جانبٍ عظيمٍ مِنْ سَمْتِ التَّأَلُّهِ، ورُسومِ التعبدِ، وسِيْما التواضعِ.

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأَذْكُر أنَّ أوَّلَ صلاةٍ كانت لي بالمسجدِ الحرامِ لمَّا حَجَجْنا في سنةِ (١٣٢٢) هي الصُّبحُ خَلْفَ واحدٍ مِنَ العلماءِ ـ يُدعى فيما أَتوهَّمُ خوقير[1] ـ قرأ في الأولى بالتِّينِ فكادَ القلبُ يَخرجُ عن شِغافِه عندَ إشارتِه إلى البلدِ بقولِه: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [البلد:٣]، ثمَّ ما كَفَاه حتَّى قرأ في الثَّانيةِ سورة (قريشٍ) فلا تَسَلْ عمَّا داخَلَنِي عندَ إشارتِه إلى البيتِ ـ وما بينَنا وبينه إلَّا ثَمانيةُ أذرعٍ أو أقلُّ ـ بقولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] فلولا الاعتصامُ بالأجلِ .. لَانْتَحَقَتِ الرُّوحُ بالباريْ عَزَّوَجَلَّ، ولكنِّي:

ضَـــمَمْتُ على قلـــبي يَـــديَّ مخافـــةً ... وقـــد قَرَعَتْـــهُ بالغِطـــاةِ القـــوارعُ

ومـــا يَنفـــعُ القلـــبَ الَّذي طـــاش لُبُّـــهُ ... لِتلـــكَ المعـــانيْ أنْ تُضـــمَّ الأصـــابعُ

وكثيرًا ما شنَّفَ سمعي، واستوكَفَ دَمعي، وامتلكَ لُبِّي، واستأسرَ قلبي ما سمعتُه من قراءةِ إمامِ الحرمِ بأوساطِ المُفصَّلِ في صلاةِ الصُّبحِ سنةَ (١٣٥٤)، وتذكَّرتُ صلاةَ والِدي، إلَّا أنَّ تلك أخشعُ وقراءةَ إمامِ الحرمِ أجودُ وأسمعُ، فهو

---

(١) لعله محمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن علي خوقير، (ت: ١٣٤٩)، انظر ترجمته في «بغية السلف» (١٥٤)، «تاريخ أمة في سير أئمة» (٣/ ١١٤٠-١١٤١).

مُقرىءٌ غيرُ مُدافَع، ولكنَّ خَطابتَه دونَ ما يَليقُ بالمسجدِ الحرامِ الَّذي يَطلبُ بلاغةً تَتفرَّى لها الأُهُبُ، وتكادُ لها النُّفوسُ تُنتَهَبُ»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... ولكنَّه يَكثُرُ خشوعي وتَنحدرُ دموعي، وينتدِي خَدِّي، ويَبتهجُ وَجْدِي، كلما قرأتُ آياتِ الوَصْفِ، وهي قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٣]»[٢].

ووصفَ تَهيُّبَه لِبعضِ إقدامِ أهلِ الكلامِ فقالَ: «وهو كلامٌ تَقشعرُّ له الجلودُ، ويَذوبُ منه الجُلمودُ، وتَنفسخُ له القوائمُ، وتَعجزُ عن حَمْلِه القُوى»[٣].

ويقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنِّي لأُحِسُّ بانكسارٍ عظيمٍ في نَفْسي كلما نظرتُ في كُتُبِ الجاحظِ، أو ابنِ المُقَفَّعِ، أو رَسائلِ القُدماءِ ومراجعاتِهم، أو تَرَسُّلِ لسانِ الدِّينِ ابنِ الخطيبِ، أو عباراتِ السَّعْدِ أو الغَزاليِّ»[٤].

ويَغوصُ في دقائقِ العلمِ ثم يَعتذرُ فيقولُ: «جَريتُ فيه معَ الخاطرِ، وأخذتُ ما سَمَحَ مِنْ لسانِ القَلَمِ، مع هيبةِ المَقامِ، وصُفورةِ اليدِ، ووُعورةِ الطريقِ..»[٥].

ويُطيلُ ويُطنِبُ ثم يُشيرُ إلى المطوَّلاتِ فيقولُ: «فإنْ قَنِعْتَ به وإلَّا فَوَلِّ وجَهَكَ شَطْرَ كتاب...»[٦].

---

(١) «إدام القوت» (٣٧٣-٣٧٤).

(٢) «بلابل التغريد» (١٣٧).

(٣) «بلابل التغريد» (٥٢).

(٤) «العود الهندي (٧٧٤).

(٥) «بلابل التغريد» (٣٥٧).

(٦) «المصدر السابق» (٦٢٨).

اهتمامُ السَّقَّافِ بشأنِ الأُمَّةِ

مَعَ إكبابِ السقَّافِ على العلمِ أخذًا ونشرًا بكلِّ السُّبلِ، إلَّا أنَّه لم يَكُنْ بِمَعزِلٍ عن شُؤونِ أُمَّةِ الإسلامِ عامةً، وبلدتِه (حضرموتَ) خاصَّةً، داعيًا إلى سُلوكِ سَبيلِ العِزِّ؛ لرَفْعِ الذُّلِّ، ومحاربةِ الوافدِ الدخيلِ مِن الأقوال الضالةِ، التي تَجْري في جَسدِ الأُمَّةِ المُنْهَكِ بعِلَلِه الداخليةِ قبلَ ذلك.

اسمعْ إليه وهو يخاطبُ سلاطينَ آلِ عثمانَ فيقولُ[1]:

كُلُّ البلادِ إلى شأوِ العُلى نهضتْ ... وقُطرُنا من رُقادِ الجهلِ لم يَفِقِ

يا آلَ عثمانَ هيَّا انقِذُوه وقدْ ... أضحى يناجِكُمُ بالمنطقِ الذَّلِقِ

وخَصَّ السلطانَ العثمانيَّ بنداءِ النَّجْدةِ لحضرموتَ فقالَ:

يا مَنبعَ الفضلِ يا مَن سَيْبُ هِمَّتِه ... يُحيي المكانَ الجَديبَ الغامرَ المودي

يا مُظهرَ العدلِ والإنصافِ مرحمةً ... للمسلمين ولِلصِّبيانِ والخُودِ

فالجَورُ في قُطْرِنا طالتْ إقامتُه ... والبغيُ نَعْمَهُ في أيامِه السُّودِ

يا لِلشريعةِ بالأغراضِ قد صُبِغَتْ ... والعدلُ أصبحَ فينا جَدُّ مَوءودِ

يا لِلعلومِ امَّحتْ فينا معالمُها ... يا لِلصواب كمِثْلِ الغُولِ مفقودِ

عارٌ عليكم وفيكم نَجْدةٌ ولنا ... بكم لعَمْري اتصالٌ غيرُ مجحودِ

نَبيتُ ندعو لكم مِنْ فَرْطِ رَغْبتِنا ... في كلِّ ليلٍ لدى السالينَ مرقودِ

ولِلخليفةِ أنَّ اللهَ يَنصرُه ... على أَعاديه مِنْ رُومٍ وموهودِ

---

(٦) «المصدر السابق» (٦٢٨).

(١) «الديوان» (٤١١).

لا زال للملَّـــةِ العَوجـــاءِ يَكلؤُهـــا بالخَيْـلِ والليـلِ والمُهْريَّـةِ القُـودِ[١]

وكان مِنَ المناصرِينَ للعثمانيِّينَ، داعيًا لهم بالنصرِ على الأعداءِ، وناقدًا للثائرينَ العربِ عليهم، يقولُ في شِعْرٍ له[٢]:

يـا ربِّ وانـصرْ جيـوشَ الـتُرك دولتَنـا واملأْ قلـوبَ العِـدا بـالخوفِ والوَجَـلِ

واحـمِ الشـريعةَ في شِبْه الجزيـرةِ بالـ ـمـولى الإمـامِ مـن الآفـاتِ والعِلَـلِ

واغتاظَ مِنْ فِعلِ الشريفِ حُسينٍ بنساءِ الأتراكِ فقال:

«جاء في الثَّورةِ العربيَّة: أنَّ الشَّريفَ فيصلَ بن الحسينِ تَسلَّمَ عشراتِ أُلوفِ الدَّنانيرِ مِنَ الأتراكِ في اللَّيلةِ الَّتي أعلنَ حربَه عليهم من صبيحتِها.

وإنِّي لأَعجبُ ممَّن يُسمَّى: الحسينَ المُنقِذَ .. بعدَ ما شاعَ أنَّه أَخذَ المسلماتِ مِنْ نساءِ الأتراكِ وهنَّ متعلِّقاتٌ بأستارِ الكعبةِ، وسلَّمهنَّ في جملةِ الأسرى لِلإنكليزِ مُجرَّداتٍ، مع أنَّ الدَّولةَ العثمانيَّةَ هي الَّتي ربَّتْ شَحْمَ كُلاه.

أقولُ هذا لا عَن تعصُّبٍ، بل لو كانت بي محاباةٌ .. لحابيتُه؛ إذْ لم يَكتبْ لِأحدٍ بحضرموتَ غيري بنبأِ تلك النَّهضةِ المشؤومةِ، ولكنَّ الدِّينَ فوقَ كلِّ عاطفةٍ، ولَئِنْ صحَّتِ الأخبارُ بأَخْذِه نساءَ الأتراكِ القانتاتِ المؤمناتِ على تلك الحالِ .. فما هو إلَّا أمرٌ عظيمٌ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»[٣].

---

(١) «الديوان» (٤١٧)، سيب همته: عطاؤه. الغامر: الخراب. المودي: المهلك. الخود: الشابة الحسنة. نَعْمَةُ: نضل ونتحير. السالين: الناسين. نقود: نيام. المهرية: الإبل المهرية نسبة إلى مهرة بن حيدان. القود: المنقادة. ولعل كلمة العوجاء تحريف: العصماء، والله أعلم.

(٢) «إدام القوت» (٣٩٧).

(٣) «إدام القوت» (٢٩٧). وقد كوفىء على فعله هذا بأن سجنته حكومة الإنكليز بجزيرة قبرص، ومات فقيرًا جائعا شريدًا طريدًا !! وعند الله تجتمع الخصوم.

ولمَّا وقَّعَتِ السَلطنة العثمانيةُ صُلحًا مع الإنكليزِ وسلَّمَتْهم طرابُلسَ أبان السقافُ عَنْ أَسَفِه لذلك في قصيدةٍ منها:

مُلِمَّـــةٌ جُـــلَّ القلـــوبِ أسىً ما بِتُّ وحدي بها في النـاس مُبتئسا
ضاقتْ بنا الأرضُ حتى ليس نَعرُفها والصبحُ من تلكمُ الأخبارِ عاد مسَا
يـا لِلوجيعـة قـالوا لي خليفتُنـا أهـدى لأَعدائِـه صُـلحًا طرابُلْسـا
كانـتْ لنـا فيـه آمـالٌ مُعلَّقـةٌ لكـنَّ أكبرَهـا مِـن هـذهِ انعكسـا
حـتى الجمـاداتُ لا تَـرضى بـذا أبـدًا لـو أَنَّ رَضـوى درى لارْفَـضَّ وانبَجَسـا
لَـئِنْ تـركتُم لـكا نِيفـا طرابُلسـا فسَـلِّمُوا لِفَرَنْسَـا بعـدَها القُدْسَـا[1]

ولما تَقاصرتْ بالعثمانيِّينَ الخُطا، ولَّى وجهَهَ شَطْرَ مدينةِ صنعاءَ؛ أَمَلًا أنْ يكونَ مَدَدُ العَونِ له في تحقيقِ أمانِيه الإصلاحيةِ لِبلادِه هاطلًا مِنْ حَضْرةِ الإمامِ يحيى حميدِ الدينِ، الذي مَدَحَه بغُرَرِ القصائدِ، ومَدَّ يدَ البيعةِ له.

يقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...ولولا أَنَّني شاورتُ مولانا الإمامَ يحيى في النُّهوضِ بِهم فَثَنَاني ـ أدامَ اللهُ مَجْدَه ـ عن الاعتمادِ عليهم...وما كنتُ لِأُقْدِمَ على أَمْرٍ وبَيعتُه في عُنُقي بِدونِ إشارتِه ؛ لأنَّ طاعتَه واجبةٌ، ورأيُه الأعلى والأصوبُ»[2].

ويقولُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...الإمامُ المتوكلُ على ربِّ العالمينَ يحيى بنُ محمدِ حميدِ الدينِ وَرَدْتُ عليه سنةَ (١٣٤٩) واستَنْجَدْتُ به من الظلمِ والجورِ،

(١) «الديوان» (٤١٥).
(٢) «إدام القوت» (٢٨).

واستَرْتُ حِفاظَهُ لِـمَـا بدا مِنْ طلائعِ الدسائسِ الأجنبيةِ، وكانَ ذلك على ضوءِ وعدٍ منه، وبعَقِبِ مكاتباتٍ دارتْ بينَنا، كان أولُها سنةَ (١٣٢٩)...»[١].

هكذا كانَ السقافُ يَسعى في تبديدِ سُحُب الظلمِ والجهالةِ عَنْ حضرموتَ، اسمَعْ إليه وهو يَتألَّمُ لِتأخُّرِ قومِه عَنِ التقدمِ المحمودِ[٢]:

تَقـــدمتِ البـــلادُ فَـــوَيْحَ قـــومي ... مـــتى يَتقـــدمُ البـــلدُ الأخـــيرُ
يَعِـــزُّ عـــليّ أنَّـــا في جُمـــودٍ ... يَمـــوتُ بِـــهِ التَّـــيقُّظُ والشُّـــعورُ
وأَنَّ العـــالَمين بكـــلِّ أرضٍ ... يَســـيرون الأَمـــامَ ولا نَســـيرُ
أَرى الـــوطنَ العزيـــزَ يَزِيـــدُ نَقْصًـــا ... وبـــاعي عَـــن تَداركِـــه قصـــيرُ
خَبَـــتْ نـــارُ العلـــومِ بـــه وكانـــتْ ... كمـــا عَلِـــمَ الأنـــامُ لهـــا الظهـــورُ
وصَـــوَّحَ فيـــه بســـتانُ المعـــالي ... وأَذوَى روضُـــها الـــزاهي النَّضـــيرُ
وكَـــدَّر جـــوَّه الصـــافي ظـــلامٌ ... مِـــنَ الأوهـــامِ يُزجِيـــهِ الغُـــرورُ
وأُشْربـــتِ القلـــوبُ بـــه دِهانًـــا ... فمـــا ثَـــمَّ انتقـــادٌ أو نكـــيرُ
تَعـــاظَمَنِي المُصـــابُ فَـــذَاد نَـــومي ... وأَرَّقَـــني وأعـــوَزَني السَّـــميرُ
ولي قلـــبٌ يَـــذوبُ أَسًى وفِكْـــرٌ ... إذا مـــا دارَ في هـــذا يُحَـــيرُ

هكذا جَهِدَ السقافُ في رَفْعِ العَناء عن حضرموتَ بكلِّ وسيلةٍ، قَوْليةٍ أو فِعْليةٍ، يُبيِّنُ سببَ هذا الجِدِّ والجَلَدِ فيقول: «بما رَكَّبَ اللهُ بينَ جَنْبي مِنَ القلبِ

---

(١) «بلابل التغريد» (٢٨).

(٢) «الديوان» (٢٢٢)، يزجيه: يسوقه ويدفعه، ذاد: منع ودفع. أعوزني السمير: جعلني الدهر في حاجة إليه.

الذي يَتأجَّجُ غَيْرةً لِـمَـا حَلَّ بوطَنِنا مِنَ التأخرِ، ويتدفقُ حَماسًا لِـمَـا مُنِينَا بهِ مِنَ الجُمودِ والتَّقهقُرِ لم أَزَلْ أَهْتِفُ وأَقولُ، وأُقْصِرُ وأطوِّلُ، وأَدعو إلى التقدمِ بِكلِّ لسانٍ، وأَحُثُّ عليهِ في كلِّ مكانٍ، وأُحاربُ أَعدائي بكلِّ سيفٍ وسِنانٍ، وقد لَقِيْتُ في عملي هذا ما يَلقاهُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، نُبِزْتُ بالعُيوبِ، واخْتُلِقَتْ لي الذنوبُ، وما عليَّ من ذلك ما دامتِ الصحيفةُ نَقِيَّةً، والساحةُ بَرِيَّةً، غيرَ أَنِّي ربَّما اخْتَنَقَ عزيمتي بعضَ الأحيانِ اليأسُ والمَلَلُ، وقَبَضَ بِقُوفِ رَقَبةِ هِمَّتي العجزُ والكَسلُ، لِأَنَّني أَنهَضُ ولا نَصيرُ، وأَهُمُّ بالطيرانِ والجناحُ كَسيرٌ، كلَّما بَنَيْتُ قَصْرًا قَوَّضَه الجاحدونَ، وكلما سَعيتُ في أمرٍ عَرقلَه المعاندون...»[1].

قال العَلَّامةُ حَمَدُ الجاسرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَلَغَ السقافُ مرتبةً مِنَ العلمِ أَهَّلَتْهُ لِأَنْ يَحِلَّ أرفعَ المقاماتَ، فعُرِفَ بعالِمِ حضرموتَ، ومُفتي الديارِ الحضرميةِ، وكان ذا نُفوذٍ قَويٍّ في الشُؤونِ العامَّةِ في تلك البلادِ، وصِلَةٍ قَويةٍ بِحكَّامِ أقاليمِها، وإسهامٍ بارزٍ في السعيِ لِتوحيدِ أجزائِها واستقلالِها، ورَفْعِ كابوسِ الاحتلالِ البريطانيِّ الذي كانَ جاثمًا عليها»[2].

وكان السقافُ على اهتمامٍ بالغٍ بِبَيانِ بَهْرَجِ الباطلِ الوافدِ، اسمعْ إليه وهُوَ يَئِنُّ من انتشار التشبُّهِ بالغَربِ الكافرِ، بينَ أهلِ الإسلامِ:

فلقـــدْ سَرى التَّفَـــرْنُجُ بيـــنَهم وبشُـــؤْمِه قَعـــدُوا لهـــا مِرصـــادَها

---

(١) «الديوان» (٢٩٠)، قُوفُ الرقبة: الشعر السائل في نُقرتِها.

(٢) «مجلة العرب» العددان (٥-٦) ذي القعدة سنة (١٤١١). عن «مقدمة العود الهندي» (٣٢).

ونَحَـوا منـاهجَ في الكتابـةِ جُلُّهـا ضَـلَّتْ على رَغْـمِ البَيـان رَشـادَها
أَفْنَـوا نَفـائِسَ وقْـتِهم عَبَثًـا وقـدْ ظَنُّـوا بـأنَّهمُ ارتقَـوا أطوادَهـا
ولَكَـمْ فـتىً مـنهم أَضـاعَ حياتَـه قـد كان نافـذَ فِكْـرةٍ وقَّادَهـا
مِثْـلَ الغُـرابِ وقـد تَشَـبَّه بالقَطَـا وأَتى مُذَبْـذِبُ سِـيرةٍ مَيَّادَهـا
لا مِشْـيةَ الغِربـانِ أتقـنَ حِفظَهـا كَلَّا ولا صِـفَةَ القَطَـاةِ أَجَادَهـا
يتـأثرون هـوى النُّفـوسِ ولا نَجـا إلَّا إذا عَصَـتِ النُّفـوسُ مُرادَهـا
وتَمَسَّـكتْ برُسـومِها وبِـدِينِها واسـتعذبتْ في حفظِـه أَنْكَادَهـا[1]

ومِنْ سعيِ السَّقَّافِ في إصلاحِ أحوالِ أُمَّةِ الإسلامِ، رِحَلاتِه التي كانتْ لِنَشرِ العلمِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ ابتداءً أو تأييدًا..

- رَحَلَ إلى بلادِ الحَرَمينِ أَكثَر مِنْ مرَّةٍ، ومنها في موسمِ حجِّ عامِ (١٣٥٤) واجتمعَ بالملكِ عبدِ العزيزِ آلِ سعودٍ، وقد وصفَ رِحلتَه فقال: «وسَيَّرْتُ القصيدةَ الآتيةَ في سنةِ (١٣٥٣) إلى حَضْرةِ العلَّامةِ ابنِ الوزيرِ[2] أَميرِ تِهامةَ، إِثْرَ انبرامِ الصُّلحِ بواسطتِه بينَ إمامِ اليمنِ وعاهلِ نجدٍ والحجازِ.
- وقال: «ولمَّا اجتمعْتُ بِابنِ الوزيرِ في سنةِ (١٣٥٤) بالحديدةِ أَفادني بأَنَّ ابنَ السُّعودِ التمسَ مِنَ الإمامِ أنْ يُوفِدَه إليه لِلمفاوضةِ في الصُّلحِ

(١) «الديوان» (٢١٨): ميادها: مضطربها أو مائلًا فيها.

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمد الوزير (ت: ١٣٦٧)، مترجم في «هجر العلم ومعاقله» (١/ ١٩٦-٢٠٧) هجرة (بيت السيد). وفيه تفاصيل سفارته بين الملِكين.

فأَرسلَه، وفي طريقِهِ إلى الطائفِ التَقى بِصاحبِ الفضيلةِ: أَمينِ الحُسينيِ، وشَكِيبِ أَرسْلان[١] ومَنْ معهم مُنصرفينَ مِنْ عندِ ابنِ السُّعودِ، قال: فملأُوا صدري يأسًا مِنَ الصُّلحِ غيرَ أني مضيتُ لِشأني وبِمُجرَّدِ ما قابلْتُ الملكَ امَّحى مِنْ قلبي ما ارتَسَمَ عليه بكلامِهم مِنْ عوارضِ القُنوطِ وما هي إلا مفاوضاتٌ يَسيرةٌ بيني وبينَه حتى قال لي: لقد فوَّضْتُ إليك أمرَ الصُّلحِ فاكتبْ ما شئتَ وأنا مُتعهدٌ بالإمضاءِ عليه بدونِ شرطٍ ولا قيدٍ، وإنْ شئتَ أمضيتُ على الوَرَقِ أولًا حتى لا تكتبَ إلَّا عَنْ قَطْعٍ بالموافقةِ. قال: فوثِقتُ بكلامِه؛ لاشتهارِه بالوفاءِ؛ ولأَنَّني عرفتُ أنَّ وجهَه ليس بوجهِ كذَّابٍ».

- وقال: «ولما اجتمعتُ أنا بابنِ السُّعودِ في ذلك العامِ، بَدَأَني بالحديثِ عن قضيةِ الصلحِ بينَه وبينَ إمامِ اليمنِ، فكان موافقًا لما تَحَدَّثَ بهِ إليَّ ابنُ الوزيرِ سواءً بسواءٍ، وقال لي الملكُ عبدُ العزيزِ: إنني لما أَبْرقْتُ إلى ولَدِي فيصلٍ بالجَلاءِ عَنِ (الحُديدةِ)[٢] أجابني بأنَّ الانتحارَ أهونُ عليه مِنْ ذلك، فأَجبتُه: بأنَّ انتحارَك لا يُقلِّلُ مِنْ عَدَدِ أَبنائي وقد نَيَّفُوا على

---

(١) الحسيني محمد أمين (أو الحاج أمين) بن محمد طاهر بن مصطفى الحسيني: زعيم فلسطيني. (ت: ١٣٩٣)، وشكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة: عالم بالأدب، والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب، يُنْعَت بأمير البيان. (ت: ١٣٦٦)، وكلاهما مترجم في «الأعلام» للمؤرخ الزركلي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

(٢) الاسم التاريخي لها هو: تهامة، والحديدة اسم طفر عليها بعد القرن الثامن ويقال: إن سبب التسمية هي امرأة اسمها (حديدة) سكنت في ذلك المكان، وكان لها حانوتٌ يستريح فيها المسافرون، فاشتهر المكان باسمها، وبدأ يُعرف في عهد الدولة الطاهرية، حين دخل الجراكسة اليمن من جزيرة كمران، ثم من قرية الحديدة، وتوسع الاسم حتى أصبح كما هو مشاهد اليوم، وفيه الميناء الغربي لليمن..

الأربعينَ، ثم هو هَيِّنٌ عليَّ في سبيلِ حَقْنِ دماءِ المسلمينَ.. هذا نَصُّ كلامِه لي، بمَرأى مِنْ وَلَدِهِ فيصلٍ ومَسْمَعٍ منه»[١].

- ورَحَلَ السقافُ إلى بلادِ (جاوا)، وبلادِ (سنغافورةَ)، وسَعى في الصلحِ بينَ جَمْعِيَّةِ الإرشادِ، ورابطةِ العَلَوِيِّينَ[٢]، وكتَبَ بينَهم وثيقةَ صُلحٍ، وممَّا جاءَ فيها:

«**الأُولى**: أَنْ يَعترفَ الطرفانِ بِتَوسُّطِ السيِّدِ عبدِ الرحمنِ بنِ عُبيدِ اللهِ السَّقافِ بالصلحِ بينَهما، ونَشْرُ ذلكَ على صَفَحاتِ الجرَائِدِ؛ لِيَعلمَ الخاصُّ والعامُّ بذلك.

---

(١) «الديوان» (٥١٦)، مقدمة «تحقيق الفرق» (٩٤-٩٥)، مقدمة «العود الهندي» (٣٢-٣٣).

(٢) مؤسسها هو الشيخ أحمد بن محمد السوركتي الأنصاري المولود في جزيرة (أَرْقُو) بالولاية الشمالية في السودان سنة (١٢٩٤)، والسوركتي لقب جده، ومعناه بلغتهم: كثير الكتب.
تعلم أحمد في بلده ثم رحل إلى الحجاز، وجاور بالمدينة، ثم بمكة، سنين عديدة، ثم طلبته جمعية (خير) في (جاكرتا)؛ لإدراة التعليم هناك، ولما وصلها سنة (١٣٢٩)، رحب به العرب هناك، من العلويين وغيرهم، وبقي حبل الود بينهم قائمًا، حتى دخل عليهم العام التالي، فنشب الخلاف بين السوركتي وبعض العلويين، وطال زمنه وطار شرره، فاستقال السوركتي وعزم على العود إلى مكة، إلا أن بعض وجهاء حضرموت في تلك الديار ثنوه عن هذا المسعى، ورغبوا إليه أن يواصل مشواره التعليمي، فاستجاب لهم، وأنشأ مدرسة (الإرشاد الإسلامية)، فكانت نواة: (جمعية الإصلاح والإرشاد)، التي كانت لها ريادة علمية في مختلف الأقطار الإندونيسية، وقد جمع السوركتي أهم مسائل الخلاف الناشب في كتابٍ سماه: «المسائل الثلاث»، الذي عرضه بعضهم على الإمام المحقق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ت: ١٣٨٦)، وطلب منه رأيه في الكتاب وفي مؤلفه، فأثنى على مؤلفه، وأيده بكتابٍ نفيس اسمه: «تحقيق الكلام في المسائل الثلاث». وقد طبع كتاب السوركتي سنة (١٤٤٠).
توفي السوركتي سنة (١٣٦٣) رحمه الله تعالى.
انظر: «تاريخ الإرشاد في أندونيسيا»، «تاريخ حركة الإصلاح والإرشاد وشيخ الإرشاديين أحمد السوركتي في إندونيسيا»، مقدمة «تحقيق الكلام في المسائل الثلاث».

الثانية: يُبنى الصلحُ بينَهم على هذهِ الأصولِ:

الأولِ: مذهبُ الكُلِّ مذهبُ الإمامِ الشافعيِّ، ومتى اختلفوا في شيءٍ فمَردُّهم إلى المعتمدِ منه.

الثاني: تَرْكُ السبِّ والشَّتمِ، ويَدخلُ في ذلك عُمومُ الطَّعنِ في أنسابِ العلويِّينَ، والإرشاديِّينَ، وعمومِ الحضارمِ، وجميعِ المسلمينَ، وعلى الطرفينِ مَنْعُ صِغارِهم وسُفهائِهم مِنْ ذلك[١].

الثالثِ: حقوقُ الإسلامِ مبذولةٌ بينَهم، وما مضى من الخَوضِ في الأنسابِ والطعنِ فيها وهَتْكِ الأعراضِ والمُجادلاتِ فموضوعٌ كُلُّه تَحتَ الأقدامِ.

الرابعِ: يُمنعُ الخوضُ فيما جَرى بين الصحابةِ الكِرامِ رضوانُ الله عليهم، وأَلا يُنْتقَصَ أو يُسبَّ أحدٌ منهم، وأَنْ لا يُنتقصَ مِن الفضْلِ والمنزلةِ على حَسَبِ اعتقادِ أهلِ السنةِ والجماعةِ والأئمةِ الأربعةِ.

الخامسِ: يَتعهَّدُ الطرفانِ لِبعضِهما بعضًا بأَنْ لا يكونَ في مدارسِهم شيءٌ مِن العقائدِ والتعاليمِ الضَّارَّةِ أو ما يُشمُّ منه النَّصْبُ أو التَّشيُّعُ لأحدٍ من الصحابةِ دونَ أحدٍ، وإذا وُجدَ شيءٌ مِنْ ذلك فَيَلزَمُ عليهم إزالتُه حالًا، ومَنْ يَمتنعْ عَنْ ذلك يُعدُّ هو المخطئُ والشاقُّ لِلعَصا»[٢].

رَحِمَ اللهُ السقافَ على نُصْحِه لِأُمَّتِه، وحِرصِه عليهم، وسَعْيِه الحَثيثِ لِبَسْطِ الخيرِ فيهم دِينًا ودُنيا!

---

(١) هكذا هم أنصاف العلوم وأرباع الفهوم هم زيت الفتن أينما وليت وجهك!!

(٢) «القلادة -مجموعة مقالات أدبية وبحوث تاريخية» لعمر باذيب (٢٣٢-٢٣٩).

جَرْيًا منه على سُننِ الأسلافِ، وسُنن الأسلافِ نَرويها، فلم يكونوا أوعيةَ علمٍ فقط، بلْ نجومَ هدايةٍ، ومصابيحَ إِنَارَةٍ، لِدُروبِ السَّالكينَ إلى ربِّ العالمينَ، عَليهمُ الرَّحماتُ المُتتابعةُ إلى يومِ الدِينِ.

إبطالُ تُهَمةٍ:

ذَكَرَ شَيخُنا المؤرخُ إسماعيلُ بن عليٍّ الأكوعُ (ت: ١٤٢٩) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمةِ الإمامِ يحيى حَميدِ الدِّينِ[1] أَنَّ السقافَ أَرسلَ إليه بقصيدةٍ تَعَرَّضَ فيها لِلصحابة باللعنِ.

هكذا ذَكَرَ شيخُنا-وتَبِعَه آخرون- وهو حبيبٌ إلينا، ولكنَّ الحقَ أَحبُّ، والعدلُ إلى التقوى أقربُ!

فأقولُ: ليسَ في قصيدةِ السقاف تَعَرُّضٌ لِلصحابةِ بل هي قصيدةٌ سِياسيةٌ شُفِعَتْ بالتَغنِّي بحُبِّ آلِ البيتِ؛ وذِكْرِ نَكَباتِهم التاريخيةِ مِنْ قِبلِ أعدائِهم، كإشارةٍ منه إلى مَقاتلِ الطالبيِّينَ، وأمثالِها، فهو القائلُ مِنْ قصيدةٍ له:

وذَكـــرتُ ســـيرَ الراشديـــ ـــنَ بهديِـــه في ذا المقـــامِ
وذكـــرتُ آلَ محمـــدٍ بجميـــلِ ذِكْـــرٍ واحـــترامِ
وبَكَيـــتُ مِمـــا نـــالهَم مِـــن ســـوءِ بَـــغْيٍ واهتضـــامِ

وتَضمَّنتِ استعطافًا لِلإمامِ يحيى حَمِيدِ الدِّينِ، لعلَّه يَمُدُّ يدَ العَونِ والمساعدةِ لأَحرارِ (حضرموتَ)؛ لِلتخلُّصِ من كابوسِ الاستدمارِ البريطانيِّ، وبَسْطِ ولايةِ دولةِ الإمامِ يحيى على (حضرموتَ)..فهو خيرٌ وأولى!

---

(١) في معلمته التاريخية: «هجر العلم ومعاقله في اليمن» (٣/ ١٦٩٨) (قَفْلةَ عِذَرْ).

وهذا مِنْ جَلَدِ السقافِ في إصلاحِ أحوالِ بلدةِ (حضرموتَ)، وإلا فَلَمْ يكنِ الإمامُ يحيى في مقامِ هذا الأملِ الخطيرِ؛ فقد عَجَزَ عَنْ حِمايةِ أطرافِ مملكتِه في (الضالعِ) وما يَتصلُ بها!!

وكرَّرَ السَّقافُ في قصيدتِه لفظَ (العِدا)؛ إظهارًا لِصدْقِ الوَلاءِ، وهو يَعني بهم أعداءَ الإمامِ يحيى.. من ساسةِ الدولِ الغربيةِ، ففي البيتِ التاسعِ مِن القصيدةِ يقولُ السَّقافُ:

أنـــتَ الذي يَجِـــدُ العِـــدَا تِمثـــالَه مِـــلءَ الصُـــدورِ مِـــنَ الجَـــلَالِ مُصـــوَّرا

ويمتنعُ أَنْ يكونَ المرادُ بأعداءِ الإمامِ صحابةَ رسولِ اللهِ ﷺ، الذين قد حَطُّوا رحالَهم في رضوانِ اللهِ قَبْلَ أنْ يُولدَ الإمامُ يحيى بأكثرَ مِنْ ألف سنةٍ!

وتاريخُ بَعْثِ الرسالةِ وما ضُمَّ بها من خِطَابٍ، يُبيِّنُ أَنَّ اللعنَ فيها مُتجِهٌ إلى أعداءِ الإمامِ يَحيى مِنَ الإيطاليِّينَ الذين حاصَرُوا شُطوطَ اليمنِ، وضربُوا قَلْعةَ بابِ المَنْدَبِ[1]، واشتدَّ الحِصارُ على بندرِ الحُديدةِ، وغيرِها مِنْ مُدُنِ الساحلِ، وذلك سنةَ (١٣٣٠)، وهي السنةُ التي أَرسلَ السَّقافُ قصيدتَه مِنْ (سنغافورة)، مع رسالةٍ مِنْ محمدِ بنِ عقيلٍ العَلَويِّ الحَضرميِّ الساكنِ بِبلادِ (سنغافورةَ)، ومُذيَّلةً باسمِ: محمدِ بنِ أحمدَ المحضارِ، ومحمدِ بنِ عليٍّ الجُنيدِ، وعبدِ الرحمنِ ابنِ عبيدِ الله السَّقافِ، ومما جاء فيها قولُهم يُخاطبونَ الإمامَ يحيى: «وقد علمتُم

---

(١) قال السقاف في «إدام القوت» (٣٨): وسمعت بعض أهل اليمن يقول : إنّما سمّي المندب لواقعة بتهامة كثرت القتلى فيها ، فانتشرت النّدبة فيه وفي كلّ ما وراءه من البلدان ، فلذلك قيل : باب المندب. والله أعلم.

ما مُنيتْ به شُطوطُ اليمنِ (جمع شاطئ) مِنْ إيطاليا خَذَلَها الله! وذلك لِخُلوِّها مِنَ السلاحِ والقِلاعِ ومُهِمَّاتِ الدِّفاع، وسَبَبُ هذا هو عدمُ تكاتُفِ العَربِ واختلافهم، واتِّكالهم على غيرِهم، وإهلاكُهم أنفسَهم بأيدِيهم، فعسى أنْ يكونَ فيما جَرى عِبْرةً، فيجمعَهم اللهُ على يَدِكم، وتُحفظُ البَقيَّةُ الباقيةُ بِكم، فتكونوا مَعقِلاً لِلإسلامِ وأهلِه، وشَجًى في حَلْقِ عَدوِّه، أمَّا أُمراءُ العشائرِ بحَضرموتَ، المُتغلِّبونَ على مَنْ بتلك الجهةِ، فَفِيهِمُ الآنَ قابليَّةٌ لِسَماعِ النُّصحِ، وكُلُّهم مِمَنْ لنا عليهم دَالَّة ونُفوذٌ، إلَّا أنَّه-نَظَرًا لتمكُّنِ الأَجانبِ، ورَبْطِهم بعضَ أولئكَ بمكْاتَباتٍ اضطُّروا إليها-يَحتاجُ الأمرُ إلى سِياسةٍ دقيقةٍ تُدارُ بحِذْقٍ».

ثم أُتبِعَتِ القصيدةُ..

فأَوعزَ الإمامُ يحيى حَميدُ الدِّينِ -على عادتِه في الاستعانةِ بفُحولِ الشعراءِ- إلى الشاعرِ الأديبِ عبدِ الله بنِ إبراهيمَ (ت: ١٣٤٧) أَنْ يُجيبَ السَّقافَ؛ لـمَكَنَتِهِ في الشِّعرِ والأَدَبِ!

فَنَظَمَ هذا الشاعرُ قصيدتَه التي كَالَ فيها المدحَ لِلإمامِ يحيى، وخَلَعَ عليه الأوصافَ العلميةَ، والأدبيةَ، والسياسيةَ!.

كما أَثنى على قصيدةِ السَّقافِ، ونعَتَهُ بأَفخمِ أوصافِ العلمِ والأدبِ، وأنَّ قصيدتَه شابَهتْ نَظْمَ فُحولِ الشُّعراءِ، بل وأزْرَتْ بِنَظْمِ آخَرينَ منهم!.

وليس فيها أيُّ عِتابٍ، أو توبيخٍ، أو رَدٍّ على السَّقافِ؛ لأنَّهما كانا على صَداقةٍ حَميمةٍ، وبينَهما زياراتٌ ومراسلاتٌ، وكان السَّقافُ من المُعجبينَ جِدًّا بالإمامِ يحيى، حتى إنَّه لما سَقَطَتِ السَّلطنةُ العثمانيةُ دُعِي إلى مُؤتَمرِ الخِلافةِ المنعقدِ

بالديارِ المِصريَّةِ سنة (١٣٤٤)، فَكَتَبَ إلى المؤتمرِينَ: أنه يختارُ الإمامَ يحيى لِمنصِبِ الخِلافةِ!!

كما كان السَّقافُ من أشدِّ المُشنِّعينَ على خصومِ الإمامِ يحيى مِنَ الساسةِ اليمانيينَ-الذين كانَ منهم ثُلَّةٌ في عَدَنٍ؛ مُرْتَكَزِ الاستدمارِ البريطاني- وأَضفى عليهم شديدَ الأحكامِ، وأَنَّهم سفهاءُ خارجونَ على وليِّ أمْرِهِمْ..وهذا غيرُ مُرَحَّبٍ به عند شيخِنا الأكوعِ الذي كان يَلْهَجُ بذكرِ مساوئِ دولةِ الإمامِ يحيى، في معاقدِ الجلوسِ، ومَطاوي الطُّروسِ، حتى لَحِقَ بربِّه، رحمهُ الله وغَفَرَ له.

والمقصودُ أنَّ اللعنَ الواردَ في القصيدةِ السَّقَّافيَّةِ لا صِلَةَ له بالصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والاحتجاجُ بأنَّ الإمامَ يحيى برَّأَ نَفْسَهُ مِنْ اعتقادِ سَبِّ الصحابةِ غيرُ ناهضٍ؛ لأنَّه برَّأ نفسَه أيضًا من اعتقادِ الجَهميَّةِ، ولم يكنِ السَّقافُ على اعتقادِهم بِلا خِلافٍ!

على أنَّ شيخَنا الأكوعَ رَحِمَهُ اللَّهُ قد تأَرْنَحَ في القَضيةِ، فحينَما شاركَ في اجتماعٍ أُقيمَ في جامعةِ ثَغْرِ اليمنِ الباسمِ (عَدَنٍ) حولَ ابنِ عبيدِ اللهِ سنةَ (١٤٢٧) الموافقُ (٢٠٠٦م) قال في آخِرِ أوراقِه التي تلاها في الاجتماعِ: «...ولكنَّه بعدَ اتفاقٍ بينَ معارفِه وتلامذتِه، وخِلَّانِه وأصفيائِه، يقولُ: إنَّه تَحوَّلَ إلى مُحِبٍّ لصَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ»[1].

---

(١) انظر: «أئمة اليمن في القرن الرابع عشر» (٢٤٨)، «إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت» (٩٠-١٠)، «القلادة-مجموعة مقالات أدبية وبحوث تاريخية» (٢١٨-٢٤٧)، «ضحايا المؤرخين-ابن خلدون وابن عبيد الله السقاف أنموذجًا»، «الانتصاف لابن عبيد الله السقاف» (١٠٩-١٢٥).

وأنا هنا أَشهدُ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]، أَنِّي رأيتُ حرُوفَ الترضِّي، وكَلِماتِ الثَّناءِ، -على عامة الصَّحابةِ، ولا سيَّما على الشيخينِ، والصِّدِّيقةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- طافحةً في صَفَحاتِ كتابِ: «العودِ الهنديِّ» و: «بَلابِلِ التَّغْريدِ»، ومِنْ ذلك:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الصَّدْرَ الأَوَّلَ مثالُ الفَضيلةِ، ومَغْرِسُ الكَرَمِ، رَعْدُ المروءةِ، وسِيَاجُ المحاسنِ، وإنَّهم لَكذلك، وأفضلُ منه...حاشا للهِ أَنْ نَرميَهم بغَميزةٍ، أو نَنبِزَهم بغَميصةٍ، أو نَتهمَهم بنَقيصةٍ!»[1].

وقالَ أيضًا: «إنَّ الصَّحابةَ -رضوانُ اللهِ عليهم- بَشرٌ مثلُ النَّاسِ، إلَّا أنَّهم فَضَلُوهم بإيمانٍ جرى في عُروقِهم مَجرى الدَّمِ، حتى باعوا للهِ أنفسَهم وأموالَهم، ولا يَضُرُّ ما شَجَرَ بينَهم من التخاصُمِ والتنازعِ؛ لأنَّهم لو لم يكونوا كذلك لصاروا ملائكةً»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَلْتَكُنْ على علمٍ بأنَّ الصَّحابةَ -رضوانُ اللهِ عليهم- كَسائرِ الناسِ في الطِّباع والرَّغائبِ والشَّهَواتِ، إلا أنَّهم فُضِّلوا بالإيمانِ الذي وَقَرَ في صُدورِهم، وخَالطَ لُحومَهم، وامْتَزَجَ بِدمائِهم، وتَغلَّبَ على عواطِفِهم، وحَجَزَها أَنْ تَنفُذَ إلَّا بسلطانٍ منه- في غالبِ أمورِها- ونَقَّى نفوسَهم من الرَّذائلِ، حتى اتفقتْ عليه سَرائرُهم وعلانِيَتُهم، وبَذَلُوا في مَرضاةِ اللهِ أرواحَهم وأموالَهم، مع

---

(١) «بلابل التغريد» (٢٠٩).

(٢) «المصدر السابق» (٢٤١).

التَّشَرُّفِ بالنَّظَرِ إلى وجهِ النبيِّ الكريمِ، والاستماعِ إلى كلامِه الأحلى مِنَ الدُّرِ النَّظيمِ!»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد وَقَاه ﷺ سَبعةٌ مِنَ الأنصارِ يومَ أُحدٍ، حتى رُزِقُوا الشهادةَ أجمعين.

وَوَقَاه أيضًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ يومئذٍ حتى شَلَّتْ يَدُه.

وما زالتِ الصحابةُ -رضوانُ اللهِ عليهم- تقولُ له عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «نُحُورُنَا دُونَ نَحْرِكَ، وَصُدُورُنَا دُونَ صَدْرِكَ».

وفَدَاه عليُّ بنُ أبي طالبٍ -كرَّم اللهُ وجهَه- بنفسِه ليلةَ الهِجْرةِ، وباتَ مع ذلك رَخِيَّ البالِ، مُتلفِّعًا بِبُرْدِهِ على فراشِه، حتى رُوِيَ أنَّ اللهَ جَلَّ شأنُه باهى به الملائكةَ.

وقد أَخَذَ مِنْ هذا الفضلِ بالنَّصيبِ الأوفى الصِّدِّيقُ، لَياليَ الهِجْرةِ والغارِ»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما بالُك بقومٍ عَلمتَ من أنفِهم وحَمِيَّتِهم وحِفاظِهم ما علمتَ، وأكرمَهم اللهُ بالإسلامِ، حتى خَالطَ قلوبَهم، وامتزجَ بلُحومِهم ودمائِهم...فإنَّهم بعدَ أنْ كانتْ حميَّتُهم جِبِلَّةً صارت دِينًا ومِلَّةً، فلا جَرَمَ على قِلَّةِ

---

(١) «المصدر نفسه» (٥٢٢).

(٢) «العود الهندي» (٦١-٦٢)، وفداء السبعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صحيح مسلم» (١٧٨٩)، وفداء أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «صحيح البخاري» (٤٠٦٤)، وفداء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه ابن عباس فيما أخرجه ابن إسحاق كما في «تهذيب السيرة» (3/ 8)، وعنه ابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٣٧٢)، وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ٣٣١)، وابن سعد (١/ ٢٢٨)، والحاكم (٣/ ٤)، وأما صحبة الصديق فهي نص القرآن، ومتواتر نقل أهل العرفان.

العَدَدِ، وضَعْفِ العُدَدِ انكفؤُوا على عُروشِ الملوكِ، وأبْلَوا ما يَشهدُ به التَّاريخُ في القادسيةِ واليَرمُوكِ.. فَحدِّثْ ولا حَرَجَ عنهم، فإنَّ لهم في إرخاصِ النفوسِ، واسْتِعْذَابِ البُوسِ، وإغاثةِ الصَّريخِ، ونَصْرِ المظلومِ، وكَسْبِ المعدومِ، ما صَغَّرَ كلَّ عظيمٍ، وحثا في وجهِ كل مُقْرِمٍ، وغبَّرَ في قِبلةِ كلِّ شجاعٍ... مما يَهزُّ الرؤوسَ، ويَحمي الأنوفَ، مع اعترافِنا بالعجزِ عما للصَّحابةِ -رضوانُ اللهِ عليهم- فيه؛ لأنَّهُ الفَضاءُ الواسعُ، الذي لا تَأتي على أطرافِه النُّسورُ!»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...ومن ثَمَّ ضَعُفَ شِعرُ بعضِ الصحابةِ، بما عقدَ مِنْ أَلسنتِهم الحقُّ، بقدرِ ما أطلقَ مِنْ أَلسنةِ مَنْ سواهُمُ الباطِلُ»[2].

ولما ذكرَ أبياتَ سَلمٍ الخاسرِ[3] التي قُرئتْ بينَ يدي الخليفةِ العباسيِّ المَهديِّ:

إنَّ الخلافةَ لم تكنْ بخلافةٍ ... حتى استقرَّتْ في بني العبَّاسِ

شُدَّت مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ ... كَالدَّهرِ يُخْلَطُ لِينُهُ بِشِمَاسَ

---

(١) «العود الهندي» (٢٧٧-٢٧٩)، والمُقْرِم: المقدم في المعرفة وتجارب الأمور.

(٢) «العود الهندي» (٦٧٤). قلت: قال العلامة القرطبي في «المفهم» (٦/ ٤١٧): «قيل لحسان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لان شِعْرك، أو: هَدِمَ شِعْرك في الإسلام! فقال: «الإسلام يحجز عن الكذب». يعني أن الشعر لا يُجوِّده إلا الإفراط والتزيين في الكذب، والإسلام قد منع من ذلك، فقلَّ ما يجود شِعر من يتقي الكذب».

(٣) من فحول الشعراء، اسمه: سلم بن عمرو بن حماد، (ت: ١٨٦)، وفي سبب تسميته بالخاسر أقوال: أشهرها أنه باع مصحفًا واشترى بثمنه دفتر شعر، وقيل: طنبورًا، والعلم لله. انظر «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٩٨)، «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٩٣-١٩٤)، «الأعلام» (٣/ ١١٠).

تَعقَّبَ السَّقافُ فقال: «وكان الأولى بالمهديِّ.. أن يُؤدِّبَ سَلْمًا على ما تَهَضَّمَ من محاسنِ الخلفاءِ الراشدينَ، أو يُنبِّهَه، أو يَستفصلَه على الأقلِّ»(١).

وكم يَحتجُّ بأقوالِ الفاروقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الإعجابِ ومُتْبِعًا بالتَّرضِّي، وإليك هذا اللفظ المُطرِبَ:

«ومعاذَ اللهِ أن أغُضَّ من قَدْرِ ابنِ خَطَّابٍ، أو أَحُطَّ مِنْ كرامتِه، وأنا الذي لا أَذْكرُ فضائلَه السامِيَةَ، ومَرتبتَه العاليَة، إلَّا اهتزَّ بَشَرِي، وقَفَّ شَعَرِي، وانتفَشَ دِماغي، وهو الذي فَتَحَ الفُتُوحَ، ومَصَّر الأمصارَ، وأقام الحدودَ، حتى على وَلَدِه»(٢).

قال هذا عَقِبَ توسُّعِه في صفةِ الكتابِ الذي عَزَمَ النبيُّ ﷺ على كتابتِه قبلَ وفاتِه.. وأسباب تَرْكِه ﷺ لذلكَ.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ورَأى ابنُ الخَطَّابِ رضوانُ اللهِ عليه...»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

واشمَلْ ضَجِيعَيهِ بالرُّحمى فقد بَلَغَا ... مِنَ المعالي مَقامًا بُدَّ لم يُرَمِ

في صُحبة الضِّيقِ للصِّدِّيقِ مَنقبةٌ ... والدينُ بابنِ عَدِيٍّ خافقُ العَلَمِ

وثالثَ القَومِ ذي النُّورينِ إنَّ لهُ ... قدرًا بإنفاقِه في الصالحاتِ سَمِي(١)

---

(١) «العود الهندي» (٦٦٩).

(٢) «بلابل التغريد» (٣٣٨-٣٣٩)، وانظر: «تحقيق الفرق بين العامل بعلمه» (٢٦، ١٣٤)، وإقامة الحد على ولده- واسمه: عبد الرحمن- أخرجها عبد الرزاق (٩/ ٢٣٢-٢٣٣)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بإسناد صححه ابن حجر في «الفتح» (١٢/ ٦٥).

(٣) «تحقيق الفرق» (١٦٣).

وأما ثناؤُه على عائشةَ فكثيرٌ ومنه قولُه: «...حتَّى لقد أَرادتْ عائِشةُ حَبيبةُ رسولِ اللهِ ﷺ ورَضِي اللهُ عنها...»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانت عائشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تكتُبُ في إمضائِها[٣]:

«مِنْ حَبيبَةِ رسولِ اللهِ، المُبرَّأَةِ في كتابِ اللهِ، عائِشَةَ بنتِ أَبي بكرٍ».

فيا لَه مِن إمضاءٍ تَهتزُّ لَهُ النفوسُ، وتقِفُّ الشُّعورُ، وتَتندَّى الخدودُ، ويكادُ يذوبُ منهُ الجُلمودُ!»[٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... وحُلولُ الصِّدِّيقةِ -رضوانُ اللهِ عليها- بالمَحَلِّ الأقصى من مَحبتِهِ ﷺ»[٥].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ملاحظتُنا على الإمامِ العَينِيِّ قولُه: في حديثِ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»[٦] ما معناهُ: إنَّ هذا بالنِّسبةِ لذلِكَ العهدِ، أَمَّا الآنَ.. فقد أحدثُوا من الأَخبِصَةِ، والحَلويَّاتِ، والمطاعِمِ، ما قد يُستَقَلُّ معَها الثَريدُ.

---

(١) من أبيات قالها في «معارضة البردة» (١٢).

(٢) «العود الهندي» (٣٤١).

(٣) الإمضاء في اصطلاح الكُتَّاب والتُّجار اسم الرجل وعلامته يكتبه بيده في صك أو كتاب تثبيتًا له، وهي عدة خطوط توضع بعد الإمضاء منعًا للتزوير، وهو بمنزلة التوقيع في زماننا، ولم أقف على مصدر لإمضاء عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فالله أعلم.

(٤) «العود الهندي» (٦٠٣).

(٥) «العود الهندي» (٤٣٢)

(٦) أخرجه البخاري (٣٧٦٩، ٣٧٧٠)، ومسلم (٢٤٣١، ٢٤٤٦)، عن أنس، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقُلنا: داخَلَتْهُ عُجمَةٌ -رحمةُ اللهِ عليهِ- وإلا فالبُرُّ أفضلُ الطعامِ، واللَّحمُ أفضلُ الإدامِ، لا يزالانِ كَذلك إلى يومِ القيامِ، وَما الثَّريدُ غيرُ البُرِّ مأدومًا باللحْمِ؟! قال الشاعر[١]:

إذَا مَـــا الـــبُرُّ تَأْدُمـــهُ بِلَحْـــمٍ فَـــذَاكَ أَمَانَـــةُ اللهِ الثَّرِيـــدُ

وكان البُرُّ يُلْبَكُ لُبابُه بالشِّهادِ في عَهْدِه ﷺ.. فلم يُفضِّلْه على الثَّريدِ، فلا فَضْلَ في الـمَوَاتِرِ على عَنَاجِيجِ الخَيلِ.. إلاَّ عندَ منَ أَعشى التَمدُّنُ الممقوتُ بصرَهُ، وغطَّى على بصيرتِهِ، ولا حَول ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد بَلَغَتْ عائشةُ مِنَ المنزلةِ والحَظوةِ لديه ﷺ ما انقطعتْ دونَه أطماعَ ضرائِرِها، حتى إنَّها لَتكتبُ في إمضائِها: مِنْ حَبيبةِ رسول الله؛ المُبرَّأةِ في كتابِ اللهِ؛ عائشةَ بنتِ أبي بكرٍ.

وهي في ذلك صادقةٌ غيرُ كاذبةٍ، وصائبةٌ غيرُ خاطئةٍ»[٣].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثُمَّ لا نقولُ في الصِّدِّيقةِ عائشةَ إلا ما قال عَمَّارُ ...: إنَّها زوجتُه في الآخِرةِ كما هي زوجتُه في الدنيا»[٤].

---

(١) أنشده سيبويه في «الكتاب» (٣/ ٦١)، بقوله: وقال الآخر، ويقال وضعه النحويون. وذكره غيره بدون ذكر قائله.

(٢) «العود الهندي» (٤٧٥-٤٧٦): الشهاد: العسل لم يعصر من شمعه، المواتر: السيارات تسير بالوقود، عناجيج الخيل: جيادها.

(٣) «بلابل التغريد» (٢٤٦).

(٤) «بلابل التغريد» (٢٤٨).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...فعائشةُ أحمى أَنْفًا، وأَغْيَرُ نَفْسًا، وأرجحُ عقْلًا، وأكثرُ مُروءةً، وأشدُّ صونًا...مع حِشمتِها وفِقْهِها، وقُوَّةِ نفْسِها»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهل مِن بَغضاءَ أكبرُ مِن قَذْفِهم [اليهودِ] للصِّدِّيقةِ مَريمَ العَذراءِ، المبرأةِ في كتابِ اللهِ العزيزِ، الذي لم يأت ببراءةِ أحدٍ مِن النساء سُواها، وسُوى عائشةَ الصِّديقةِ؟»[٢].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أما مَنْ نُكفِّرُه ببدعتِه كقاذفِ عائشةَ..فلا تُقبلُ شهادتُه لكُفرِه»[٣].

فهذا الكلام ناطقٌ بالإجلالِ والإكبار عندَ السقافِ لِصَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فَفيها الغُنْيَةُ، وبها البُلغةُ إلى الإنصافِ، واللهُ المُوفِّقُ والمُستعانُ.

---

(١) «بلابل التغريد» (٢٦٥)

(٢) «السيف الحاد لقطع الإلحاد» المطبوع مع «بلابل التغريد» (٨٥٧):

(٣) «صوب الركام في شؤون القضاء والحكام» (٨).

لفظ القصيدتين:

سَبَقَ بيانُ وجوهِ إبطال التُهَمةِ، وهنا أذكرُ قصيدةَ السَّقافِ ثم جوابَ قصيدتِه فعليهما بُنِيَ وَهَمُ التُّهَمَةِ.

قال السقافُ[١] ولمَّا كَثُرَتْ إثْرَ ذلك الإشادةُ بذِكْرِ مولانا الإمامِ أيَّدَه اللهُ وأنا بسنغافورةَ سنةَ (١٣٣٠)، ارتأى الفاضلُ الجليلُ السيدُ محمدُ بنُ عَقيلٍ أنْ يَبعثَ له رسالةً بإمضائِه وإمضاءِ العارفِ باللهِ الوالدِ محمدِ بنِ أحمدَ المحضارِ، وإمضاءِ الأديبِ السيدِ محمدٍ الحُبَيْدِ، والتمسَ مني فَشَفَعْتُها بهذه القصيدةِ:

شَرَفًا سَمَوْتَ على الملوكِ ومَفْخَرًا ... وعَلوتَ يا «يحيى» على هامِ الورى

وبلغتَ مِنْ رُتَبِ المعالي رُتْبةً ... تَرَكَتْ جميعَ مَراتِبِ العَليا وَرَا

لو طاوَلتْكَ أولو المناصِبِ للعُلَى ... لم يَبلغُوا مِنْ أخْمَصَيْكَ الخِنْصَرا[٢]

مَلأَتْ مفاخِرُك الزمانَ ولم تَدَعْ ... في سِفْرِهِ لِسُواكَ إلّا أَسْطُرَا

أمُجَندِلَ البطلِ الشجاعِ وتاركَ الـ ... ـمَلِكِ المطاعِ على الترابِ مُعَفَّرَا

وَمُرَوِّيَ البِيْضِ الرِّقاقِ وقائدَ الـ ... ـخيلِ العِتاقِ إلى الوَغى مُتَبخْتِرَا

مِنْ كلِّ سابحةٍ تَمُتُّ بنِسبةٍ ... لِلوُرْدِ غُنْجُوجٍ تُقِلُّ غَضَنْفَرا[٣]

في السِّلْمِ تُنْعِلُها اللُّجَيْنَ وإنَّما ... في الحربِ تَحذِيها العقيقَ الأحْمَرا[٤]

---

(١) «الديوان» (٤٤٤-٤٥١)، مع شرح بعض ألفاظها في الهامش، ونقلها المؤرخ عمر باذيب في «القلادة» (٢٤٠-٢٤٧).

(٢) أخمصيك: الأخمص من باطن القدم ما لم يصب الأرض.

(٣) سابحات: خيل سريعة الجري. الورد من الخيل ما بين الكميت والأشقر وجمعه وُرْد. غنجوج واحد الغناجيج وهي جياد الخيل.

أنـــتَ الذي يجِـــدُ العِـــدَا تِمثـــالَه ... مِـــلءَ الصُّـــدورِ مـــنَ الجـــلالِ مصـــوَّرَا

كم وَقْفةٍ لك تَنطفي شـمسُ الضُـحى ... منهـــا إذا ثـــارَتْ عَجاجًـــا أكـــدرَا[٢]

فيهـا تطـايَرتِ الـرؤوسُ وشـبَّتِ الـــ ... حَربُ الضَّـــروسُ وأمطـرَ العلَـقُ الـثَّرى[٣]

وأحـاطَ بالأعـدا الهـلاكُ وأعـوَزُوا ... عـــنْ مـــوردِ المـــوتِ الـــزُؤامِ المَصـــدَرَا

أذْكَرْتَنَا يا ابـنَ النـبيِّ بفعلِـكَ السـ ... ـــامي حُنينًـــا والنَّضِـــيرَ وخَيْـــبَرَا(III)

وَوَرِثتَ في النصـرِ المبـينِ المصـطفَى ... خـــيرَ الأنـــامِ وفي البســـالةِ حَيْـــدَرا[٤]

وأَريتَنـــا مـــا غابَ مِـــن أخلاقِهـــمْ ... وردَدْت فينـــا اليـــومَ تلـــكَ الأَعصُـــرا

وبَقِيتَ تَمـشي للأمـامِ ونُصـرةِ الـــ ... إســـلام إذْ رَجَـــعَ الكَثـــيرُ القَهْقَـــرى

وتَصـــونُ حَوزتَـــهُ وتَنشُـــرُ ظِلَّـــهُ ... بمُثقَّـــفٍ لَدْنٍ وأبـــيضَ أبـــتَرَا[٥]

وجحافـــلٍ عَـــدَدَ النجـــومِ رجالُهـــا ... تَجِـــدُ المرائـــرَ في المعـــامعِ سُـــكَّرا[٦]

نَغَمـــاتُ زمجَـــرةِ المـــدامعِ في الـــوَغَى ... خـــيرٌ لهـــمْ مِـــنْ أن نُحـــرِّك مِزْهـــرَا[٧]

أنـتَ الملاذُ مـن الـرَّدى وأذى العِـدا ... لـــولاكَ أضـــحى الدِّيـــن يُنبَـــذُ بـــالعَرَا

لـــولاك للدِّيـــنِ الحنـــيفِي نـــاصِرًا ... لتقوَّضَـــــتْ أركانُـــــهُ وتَـــــدَهْوَرَا

يـا أَيهـا الوَهـابُ في يـومِ النَّـدى الـــ ... جُـــرْدَ المَـــذاكي واللُّـــهَى والجـــوهَرا[١]

---

(١) تنعلها اللجين: تجعل نعالها الفضة. تحذيها العقيق : تجعل حذائها الدم.

(٢) عجاجًا: غباراً . أكدر: غير صافٍ.

(٣) حرب ضروس: ألوك عضوض. العلق : الدم . الثرى: التراب الندي.

(٤) حيدر: هو الإمام علي كرم الله وجهه.

(٥) بمثقف لدن: برمح لين. أبيض أبتر: سيف قاطع.

(٦) جحافل: جيوش كثيرة.

(٧) المزهر: العود.

ربُّ العلـــومِ مُشَـــنِّفُ الآذانِ بـــالو ... عـــظِ البليـــغِ إذا تعـــالى المِنـــبرَا
يـا صـاحِبَ العزَمـاتِ والهِمَـمِ الـتي ... تَـــذَرُ المناصِـــلَ والوشـــيجَ مكسَّـــرَا[٢]
قسَـــمًا تـــأَلَّى زائـــروك لقـــد رَأَوْا ... في بُـــردِكَ الطـــائِيَّ والإســـكندرا[٣]
يـا ابـنَ الأئمـةِ مـنْ بَـني الزُّهْـرِ الأُلى ... بمَـــديحِهِمْ نـــزَلَ الكتـــابُ مُقـــرِّرا
لهـــمُ السِّـــيادةُ في الحيـــاةِ وعنـــدَما ... يُسْـــقَونَ في يـــومِ النُّشـــورِ الكَـــوْثَرا
بِـــوَلائِهِمْ كُلُّ امـــرِئٍ في قلبِـــهِ ... دِيـــنٌ يَـــدينُ مُصـــرِّحًا بـــينَ الـــوَرَى
جَمَعـــوا الفضـــائلَ كلَّهـــا وورِثْـــتَهُمْ ... (فالصَّـــيدُ كُلُّ الصَّـــيْدِ في جَـــوفِ الفَـــرَا[٤])
إنَّـــا نَـــدينُ بحـــبِّكم ونَـــذوبُ مِـــنْ ... طَـــرَبٍ إذا عَرَضًـــا حـــديثُكمُ جَـــرى
وإذا ذكَرْنـــا مـــا مَضَـــى في حقِّكُـــمْ ... كِـــدْنا مـــنَ الحـــسَرَاتِ أنْ نتسَـــعَّرا
عَلَنًـــا نَسُـــبُّ عِـــداكُمُ فعلـــيهُمُ ... لَعْـــنُ الإلهِ على الدوامِ مكـــرَّرَا
لا يَنطـــوي قلـــبٌ على بَغضـــائِكمْ ... إلّا وقـــد شَـــنِئَ النـــبيَّ الأَطهـــرا[٥]
كيـفَ النجـاةُ لخصـمِكم إنْ جِيـتُمُ ... يـومَ الحسـابِ مـع البَتـولِ المحشـرَا ؟
إنْ جـادلَ السـفهاءُ عـنهمْ هـا هنـا ... فَمَـنِ المجـادلُ يـومَ تنفَصِـمُ العُـرَى ؟
فَـــلِيَ الهنـــاءُ بنِســـبَتي لِنِجَـــارِكم ... نَسَـــبًا يَبُـــذُّ ظهـــورُه نـــارَ القِـــرَى[٦]

---

(١) الجرد المذاكي : الخيل الجرداء وهي حسان الخيل. اللُّهى: العطايا الكثيرة.
(٢) المناصل: السيوف . الوشيج من الرماح: أصلبها.
(٣) تألى: حلف. طائي: حاتم الطائي أكرم العرب. الإسكندر: البطل المقدوني المعروف.
(٤) الفرا: حمار الوحش. وهو مثل مشهور أي: أن كل الصيد دونه.
(٥) شنىء: أبغض.
(٦) نجاركم: أصلكم. القرى: الضيافة.

جوابُ الإمامِ يحيى على قصيدةِ السَّقافِ:

أَلِفَ السُّهادَ وحَاد عن طِيْبِ الكَرَى ... مَن لم يَزَلْ في الحادثاتِ مفكِّرَا

وتوَسَّدَ الأحجارَ وادَّرع الأَسى ... وتَفرَّشَ الطِّينَ الرَّغامَ وعَفَّرَا

وعَلَا على الأقتابِ مفتخِرًا بها ... وسَرَى إلى أعدائِه نِعمَ السُّرَى

رَجُلٌ له في نَصْرِ شِرعةِ أحمدٍ ... هِممٌ تَطيرُ بها إلى أعلى الذُّرَى

يدعُو إلى نَهْجِ الصوابِ ونصِّ آ ... ياتِ الكتابِ بِلا جدالٍ أو مِرَا

والسُّنَّةُ الغراءُ يقفُو أَثْرَها ... أكرِمْ بِسُنَّةِ خَيرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرى

لا يَرتضِي نِحَلَ الروافضِ مَذهبًا ... وكذاك لم يَكُ مِثلَ جَهْمٍ مُجْبِرَا

قادَ الجحافلَ وامتطَى مِنْ عَزْمِه ... متْنَ القساطلِ ليس يَدري ما الوَرَى

حَبَّ اللِّقا لعَدُوِّهِ مُتشَهِّرا ... مُتحسِّرًا ما قَطُّ أوصَدَ مِغْفَرَا[1]

قد ضرَّسَتْه الحَربُ فهو إلى الوَغَى ... يَعدو على شَوْهاء كبَرْقٍ قد سَرَى[2]

والطَّيرُ تَعدو بعدَه والوَحشُ تَقْـ ... ـفُو إِثرَه ثِقَةً بمَضمونِ القِرَى[3]

للهِ خاضَ مِنَ المكارِمِ بَحْرَها الْـ ... ـلُّجِّيْ وراضَ مِنَ الصِّعاب الأَشْقَرا[1]

---

(١) حب اللقا: لغة في أحب، قال سيبويه: هما بمعنى واحد. أوصد: أطبق. المغفر: ما يلبسه الدارع على رأسه من الزرد ونحوه في الحرب.

(٢) ضرسته الحرب: جربته وأحكمته . شوها: يقال فرس شوهاء إذا كانت حديدة الفؤاد.

(٣) القرى: الضيافة.

لا طالباً مالاً ولا مُلْكاً يُخلِّفُه ولا يَبغي بذلك مَفْخرا

لكنْ حَدَاه إلى القيامِ قواطعُ الْـ ـآيِ الكِرام ونَصُّ مَنْ سادَ الوَرَى
يدعو إلى سَنَنِ الشريعةِ كُلَّ ذي عَقْلٍ يُحَجُّ به على وَجْه الثَّرَى
يدعوهمُ باللِّين دعوةَ ناصحٍ ويُريهِمُ نَهْجَ الصوابِ مُبَصِّرَا
يُملي لهم آيَ الكتابِ وسَنَّةَ الـ ـمختارِ بالقولِ الفصيحِ مكرِّرَا
فيفوزُ مُنتصَحٌ ويَعصِمُ نفسَه معْ مالِه ولهُ الثوابُ موَفَّرا
ومَنِ استمرَّ مُعانِدًا منهم ولم تُجْدِ المَواعظُ عادَ فيهم مُنذِرا
يتلو لهم ما خَطَّه الخَطِّيْ وما رقَمتْه هاتيكَ البواترُ أَسْطُرا[٢]
وبذاك أَسمعَ كُلَّ أخرسَ واغتدى الْ أعمى لِما يلقاه منه مُبْصِرَا[٣]
هذي مواعظُنا التي أَوصى بها أسلافُنا الأخلافَ ما بَرْقٌ سَرى
ونجًا له لو شايعَتْه كتائبٌ شُوسٌ إذا زحَفتْ فعِثْيَرُها يُرى[٤]
في جَبْهةٍ مِن آلِ لاحقِ ضُمَّرٍ شُعْثِ النَّواصي تَترُكُ البازِي وَرَا[٥]
فُرْسانُها الأبطالُ كَمْ خاضوا بحُو رَ الموتِ من نَجْليْ شَبِيرَ وشَبَّرَا[١]

---

(١) اللجي: الواسع. الأشقر: الفرس الأشقر، يضرب به المثل في سرعة العدو.

(٢) الخطي: الرمح، نسبة إلى خط عمان. البواتر: السيوف القواطع.

(٣) اغتدى: غدا.

(٤) نجًا له: نجاءً له أي: خلاصًا له، وهو دعاء له. ولعل الأصل: «ونَجِ له» وهي كلمة تقال عند الرضا بالشيء أو المدح. شوس: خيل تنظر بحقد وتغيظ. العِثْيَر: التراب والعجاج.

(٥) لاحق: فرس معروف من خيل العرب . يقال: فرس من بنات لاحق. ضمر: مضمرة . شعث النواصي: لم ينفض عنها التراب.

لَغَدَا بهم رَتَقَ الضَّلالَ وحَلَّ معْـ ... ـقُودَ الفسادِ وهَدَّ رُكنَ الإفترَا[٢]

وأَشادَ رُكنَ الحقِّ بعدَ دُرُوسِه ... وأَيأَسَ أَهلَ الزَّيغِ مِن أَنْ يُغْمَرَا

وبَنَى مَناراتِ الفَلاحِ وشَبَّ في ... عليائِها نارَ الرَّشادِ وسَعَّرَا

حتى يُرى دِيْنُ الإلهِ مُعظَّمًا ... حقًّا ودِيْنُ الكافرينَ مُحقَّرَا

فُلَّتْ سيوفي عند حَومَات الوَغى ... وكبَتْ جِيَادِي عندَ أن جَدَّ السُّرَى[٣]

وعَدِمْتُ أَرماحي بمُشْتَجِرِ القَنَا ... وَجبُنْتُ عن غَزْوي عَدوِّي مُبكِرَا

وخَلَعْتُ ثَوبَ العَزمِ خَلْعَةَ عاجزٍ ... ولَبِستُ لِلتسويفِ ثوبًا مُنكَرا

إن لم أَكُنْ لِلظالمينَ مُقارِعًا ... أو لم أَكُن للكافرين مُصَغِّرَا

وعَليَّ فِعلُ المُستطاعِ مُناديًا ... لِلناس ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ يا قومُ

قوموا لِخوفِ عواقبِ الأمرِ ... في ﴿وَلْتَكُنْ﴾ ولَتَنْهوُنَّ المُنكَرَا

قُوموا مُعِي ننفي الضَّلالَ ونُثْبِتُ الـ ... إيمانَ والشَّرْعَ الشَّريفَ الأَنورَا

قوموا معي نَبني حصونًا للهُدَى ... والعدلِ والإحسانِ شَامخةَ الذُّرى

إِلَّا تَقوموا بالنُّفوسِ أَخذْتُمُ ... مِن واجبِ الإنفاقِ شَيئًا أَيسرَا

ولقد سُرِرْتُ كَمَنْ أضلَّ بعيرَه ... في سَبْسَبٍ قَفْرٍ فليس له قِرَى[١]

---

(١) شبير وشبَّرا: الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا . وأصلهما اسمان لولدي هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فسماهما علي باسمهما.

(٢) الرتق: ضد الفتق.

(٣) فلت سيوفي: ثلمت. السرى: السير للحرب ليلاً.

(٤) يشير إلى آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى ﴾ [التوبة: ١١١]، وفي البيت التالي إشارة إلى آية: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعليـــه حاجتُـــه فلمـــا كادَ أَنْ ... يَفْـــنَى لغَيبتِهـــا رآه فكـــبَّرا
لـمَّا عرفـتُ بـأنَّ لي في الهِنْـدِ إِخْـ ... ـــوَانًا يَـــرون مِـــن الدِّيانـــةِ مـــا أَرى
وبـأنَّ هاتيـك الزوايـا كـمْ لنـا ... فيهـا خَبايـا مِـن بَـني خـيرِ الـورى
كم هزَّ مِن عِطْفي وحَرَّك مِـن نشَـا ... طي وانطـفَى شَـجْويْ وشَـجويْ قـد بَـرى[٢]
نَظْـمٌ أَتى مِـن مَصْـدرِ الآدابِ مَـنْ ... أَضـحتْ قَريحتُـه تصُـوغُ الجـوْهَرَا
السَّيِّدِ المفضالِ والجـالي صَـدى الْـ ... أَهـوالِ والبَـاني العُـلى والمَفخَـرا
مِـنْ نظمِـه سَـحبانُ أضـحى بـاقِلاً ... وبهـا زُهَـيرُ لـيس معْـه مِزْهـرا[٣]
أَزرى بنظمِ ابنِ الحُسين وفـاقَ معـ ... ـــنىً وانـتهى سَـبْكًا وأبـدعَ مَنظَـرا
وأبَـانَ عـن وُدٍّ صـحيحٍ ثابـتٍ ... في اللهِ وهـو الـوُدُّ لـنْ يَتغـيَّرا
للهِ ذاكَ النظـمُ مـا أَحـوَى الذي ... أَنشـاه بالمَـدْحِ الفَخـيمِ وأجـدرا[٤]
فعليه تسـليمُ السـلامِ ورحمـةُ الـرْ ... رَحمـنِ مـا نجـمٌ أضـاء وأزهـرا
يـا واحـدَ الأيـامِ يَـا مَـن طأطـأتْ ... لَرفيـعِ رُتْبـةِ شَـأوِهِ شُـمُّ الذُّرَى
بل دونَ رتبتِك السِّماكُ وأيـن مِـن ... تلـكَ النجـومِ مقـامُ مجـدِك في الـوَرى
إنـا لِخشـيةِ مـا أتَى في الذِّكْـرِ مِـن ... آيِ الجهـاد ومـا أبـان وأَنـذرا
ولِمَـا نَـراه يَـدِبُّ في جسـمِ الدِّيـا ... نـةِ مِـن سُـمومِ بالرَّفاهـةِ تُشـتَرى

---

(١) سبسب: الأَرْضُ القَفْر البَعِيدَةُ لَا مَاءَ بهَا وَلَا أَنِيسَ. قرى: طعام.

(٢) برى: براني وأضناني. وفاعل «هَزَّ» قوله: «نَظْمٌ».

(٣) مزهرًا: عودًا من آلات الطرب.

(٤) ما أحوى: ما أحق، من (الحو) بمعنى الحق. ولعل الأصل: (ما أحرى).

لـم نَسـتطعْ صَـبرًا وكيـفَ لعاقـلٍ ... يَجِـــدُ الحيَـــاةَ بِذِلَّـــةٍ أن يَصْـــبِرَا

وأحـقُّ مـن أَدعـوهُ إخـواني بـني الـ ... ـحـــسنَينِ إبْـــنَيْ مَـــن تَحَنَّـــثَ في حِـــرَا[1]

أَبَـــنِي أَبي ألمـــرءُ يَطلـــبُ قومَـــه ... للانتصـــارِ بهـــم إذا أَمْـــرٌ عَـــرَا[2]

أَبَـنِي أبي هَـلْ مُنْجِـدٌ؟ هَـلْ ثَـائِرٌ؟ ... تـــاهَ الكَفُـــورُ فَـــدِيْنُ أحمـــدَ يُـــزدَرى[3]

والقومُ قـد حَفَـرُوا حفـائرَ مكـرِهم ... للمســـلمينَ وفـــيكُمُ أُسْـــدُ الشَّـــرَى[4]

فيكم جَحاجِحـةٌ لُيـوثٌ فانصُـرُوا ... دِيْـــنَ النَّـــبِيِّ مُحَمَّـــدٍ خَـــيْرِ الـــوَرى[5]

واستعصِـــمُوا بـــالله فهْـــوَ وليُّنـــا ... نِعـــمَ الوكيـــلُ ووعْـــدُهُ أَنْ يَنْصُـــرَا

---

(١) تحَّنث: تعبَّد. يريد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنيه الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. حرا: غار حراء.

(٢) أبني أبي: نداء. عرا: نزل.

(٣) تاه الكفور: تكبَّر وتعاظم. جملة مستأنفة.

(٤) أُسد الشرى: أصله جبيل بتهامة كثير السباع.

(٥) حجاجحة: سادة.

السقاف يرحل إلى ربه:

بعدَ حياةِ العلمِ والتعليمِ، والفُتيا، والتأليفِ للكتبِ، والتأليفِ بينَ القلوبِ، والسَّعي الحثيثِ في إصلاحِ العبادِ والبلادِ..

مَرِضَ السَّقافُ بالحُمى، وبينَما هو جالسٌ بين عُوَّادِه أراد قراءةَ قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فَخَنَقَتْهُ العَبَرَاتُ، حتى أُشفِقَ عليه، ثم أَتـمَّها بصوتٍ مُتهدِّجٍ، وباتَ يُصابرُ الداءَ حتى أَسلمَ رُوحَه في فَجرِ الخامسِ والعشرينَ من ربيعٍ الآخِرِ سنةَ خمسٍ وسبعين وثلاثِمئةٍ وألفٍ، بمَسقَطِ رأسِه بمدينةِ سَيئونَ، وشُيِّعَتْ جِنازتُه في مَشهدٍ عظيمٍ[1].

وبذلك وَدَّعَتْ وهِادُ حضرموتَ ومِن ورائِها الدنيا عَلَمًا من أعلامِ العِلْمِ والأدبِ، ونجمًا من نجومِ العربيةِ، وبَدْرًا من شماريخِ التاريخِ، وغُرَّةً شادخةً في جَبينِ الزمنِ..

فعـــلى الخَطابـــةِ والبلاغـــةِ بعـــدَه ... وعلى النُّبـــوغِ تَحيَّـــةٌ وسَـــلامُ

فاذهـــبْ فإنَّـــك خـــالدٌ في الذِكْـــرِ مـــا ... مَضَـــتِ القُـــرونُ وكَـــرَّتِ الأعـــوامُ

رَحِمَ اللهُ السَّقَّافَ وغَفَرَ له وَرَفَعَ درجتَه في عليِّينَ.

---

(١) «الديوان» (٥٤٨)، «بلابل التغريد» (٢٣).

العُود الهِنديُّ عن أمالي في ديوانِ الكِنْدي.. التسميةُ والسببُ:

«اختار السَّقافُ تسميتَه بذلك المَنْدَلِ الزَكيِّ الرائحةِ؛ لِيَتناسبَ معَ كَلِمةِ (الطيِّبِ) في كنيةِ المُتنبِّي، وكأنَّه يَستنشِقُ أريجَ أَشعارِه.

كما جَعَلَ له كَلِمةَ (مجالسَ) بَدَلَ «أبوابٍ» أو «فصولٍ»؛ لأَنَّ الأشعارَ تَتناسَبُ معَها مجالسُ الأدبِ والشِّعْرِ، وكأنَّه تَخيلَ نَفْسَه في مجالسَ معَ المُتنبِّي يَستوحِي ويَستلهِمُ مِنْ أَشعارِه الخالدةِ، التي لا زالتِ الأقلامُ تأتي بالجديدِ والمُفيدِ في فَهْمِها وتحليلِها؛ لأَنَّها أشعارٌ في غايةِ البلاغة والجَزالةِ وقوةِ السَبْكِ في صِياغةٍ شِعْريَّةٍ لم يأتِ أَحَدٌ بِمثْلِها إلى المَعاني التي تَفَرَّدَ بالكثيرِ منها.

فتَناولَ في مجالسِه هذه جُلَّ مواضعِ شِعْرِ المُتنبِّي من: غَزَلٍ، ومَديحٍ، وفَخْرٍ، ورِثاءٍ، وفِراقٍ، ووِفاقٍ، وغيرِها.

وأَطلقَ السَّقافُ على كتابِه الذي تَذُوْقُ فيه نقدَ بعضِ أبياتِ شيخِ الشُعراءِ المُتنبي اسمَ: «العُودِ الهِنديِّ»؛ لِيُوافقَ سَجْعةَ اللَّقَبِ الذي أَطلقَه على المتنبي وهو «الكِنْدِيَّ».

وقد أَجمعَ المؤرخونَ لِلمتنبي أَنَّه وُلِدَ بمَحِلَّةٍ بالكُوفة تُسمَّى: «مَحِلَّةِ كِنْدَةَ»، وهذه المَحلَّةُ كانتْ خِطَّةً مِن خِطَطِ الكُوفةِ، نَزَلَها في الصَدْرِ الأولِ جماعةٌ من بُطونِ كِنْدَةَ، فسُمِّيتْ بهم.

وقد ذكر شيخُ العربيةِ أبو فهرٍ محمودُ شاكرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المَحَلَّةِ، ونِسْبةُ أبي الطَّيِّبِ في كتابِه: «المتنبي..» فارجِعْ إليه إنْ رُمْتَ التوسعَ[١].

أمَّا سَبَبُ تبييضه

فَيقولُ السَّقافُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد بَيَّضْتُها لِوَلَدِي حَسَنٍ -بارَكَ اللهُ فيه، وفي إخوانِه، وأبيه- رجاءَ أن تكونَ له فاتحةَ تهذيبٍ، ولائحةَ تأْدِيبٍ، وسميرًا وجَليسًا، وخَليطًا وأَنيسًا، ولئنِ اتَّخذَها نجِيًّا.. فلن يكونَ بها شَقيًّا؛ إذْ هي أَيسرُ مَؤُونةً، وأكثرَ مَعونةً، وأخفُّ رُوحًا، وأكثرُ فُتوحًا، وأجملُ قِشْرةً، وأحسنُ عِشْرةً، مِنْ أولئك الخُلطاءِ، الذين ما منهم إلاَّ مَنْ غُذِيَ مِنَ اللُّؤْمِ بِلَبَانٍ، وحَضَرَ شرُّهُ في كلِّ إبَّانٍ، واللهُ الموفِّقُ والمُستعانُ»[٢].

ومعَ رحابةِ نظرِ السَّقافِ في أَبياتِ الشاعرِ المتنبي وإعجابِه بهِ حتى سَأَلَ اللهَ أنْ يَتجاوزَ عنه؛ لِبَلاغتِه وحِكْمَتِه في شِعْرِه.. إلَّا أنَّ قَلَمَ النقدِ له -فيما تَجاوزَ فيه- حَاضرٌ بقُوةٍ، بل بِسِياطٍ لاذعةٍ:

ففِي موضعٍ قال السَّقافُ[٣]:

وما رأيتُ الناظمَ أقلَّ حياءً، ولا أَصفقَ وجهًا، ولا أصغَرَ نَفْسًا، في قولِه:

إنْ كانَ مِثْلُكَ كَانَ أو هُوَ كَائِنٌ ... فبَرِئْتُ حِينئذٍ مِن الإسلامِ

---

(١) «المتنبي» للشيخ محمود شاكر (١٤١، ١٤٢، ١٤٣).

(٢) مقدمة «العود الهندي» (٥٦).

(٣) «العود الهندي» (١٨٤).

العُود الهِنديُّ عن أمالي في ديوانِ الكِنْدي .. التسميةُ والسببُ:

«اختار السَّقافُ تسميتَه بذلك المَنْدَلِ الزَكيِّ الرائحةِ؛ لِيتَناسبَ معَ كَلِمةِ (الطيِّبِ) في كنيةِ المُتنبِّي، وكأنَّه يَستنشِقُ أريجَ أَشعارِه.

كما جَعَلَ له كَلِمةَ (مجالسَ) بَدَلَ «أبوابٍ» أو «فصولٍ»؛ لأَنَّ الأشعارَ تَتناسَبُ معَها مجالسُ الأدبِ والشِّعْرِ، وكأنَّه تَخيلَ نَفْسَه في مجالسَ معَ المُتنبِّي يَستوحِي ويَستلهِمُ مِنْ أَشعارِه الخالدةِ، التي لا زالتِ الأقلامُ تأتي بالجديدِ والمُفيدِ في فَهْمِها وتحليلِها؛ لأَنَّها أشعارٌ في غايةِ البلاغة والجَزالةِ وقوةِ السَبْكِ في صِياغةٍ شِعْريَّةٍ لم يأتِ أَحَدٌ بِمثْلِها إلى المَعاني التي تَفَرَّدَ بالكثيرِ منها.

فتَناولَ في مجالسِه هذه جُلَّ مواضعِ شِعْرِ المُتنبِّي من: غَزَلٍ، ومَديحٍ، وفَخْرٍ، ورِثاءٍ، وفِراقٍ، ووِفاقٍ، وغيرِها.

وأَطلقَ السَّقافُ على كتابِه الذي تَذُوْقُ فيه نقدَ بعضِ أبياتِ شيخِ الشُعراءِ المُتنبي اسمَ: «العُودِ الهِنديِّ»؛ لِيُوافقَ سَجْعةَ اللَّقَبِ الذي أَطلقَه على المتنبي وهو «الكِنْدِيَّ».

وقد أَجمعَ المؤرخونَ لِلمتنبي أَنَّه وُلِدَ بمَحِلَّةٍ بالكُوفة تُسمَّى: «مَحِلَّةِ كِنْدَةَ»، وهذه المَحلَّةُ كانتْ خِطَّةً مِن خِطَطِ الكُوفةِ، نَزَلَها في الصَدْرِ الأولِ جماعةٌ من بُطونِ كِنْدَةَ، فسُمِّيتْ بهم.

وقد ذكر شيخُ العربيةِ أبو فهرٍ محمودُ شاكرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه المَحَلَّةِ، ونِسْبةُ أبي الطَّيِّبِ في كتابِه: «المتنبي..» فارجِعْ إليه إنْ رُمْتَ التوسعَ[١].

أمَّا سببُ تبييضه

فَيقولُ السَّقافُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد بَيَّضْتُها لِوَلَدِي حَسَنٍ -بارَكَ اللهُ فيه، وفي إخوانِه، وأبيه- رجاءَ أن تَكونَ له فاتحةَ تهذيبٍ، ولائحةَ تأْدِيبٍ، وسميرًا وجَليسًا، وخَليطًا وأَنيسًا، ولئنِ اتَّخذَها نجيًّا.. فلن يكونَ بها شَقيًّا؛ إذْ هي أَيسرُ مَؤُونةً، وأكثرَ مَعونةً، وأخفُّ رُوحًا، وأكثرُ فُتوحًا، وأجملُ قِشْرةً، وأحسنُ عِشْرةً، مِنْ أولئك الخُلطاءِ، الذين ما منهم إلاَّ مَنْ غُذِيَ مِنَ اللُّؤْمِ بِلَبَانٍ، وحَضَرَ شرُّهُ في كلِّ إبَّانٍ، واللهُ الموفِّقُ والمُستعانُ»[٢].

ومعَ رحابةِ نظرِ السَّقافِ في أَبياتِ الشاعرِ المتنبي وإعجابِه بِهِ حتى سَأَلَ اللهَ أنْ يَتجاوزَ عنه؛ لِبَلاغتِه وحِكْمَتِه في شِعْرِهِ.. إلَّا أنَّ قَلَمَ النقدِ له -فيما تَجاوزَ فيه- حَاضرٌ بقُوةٍ، بل بِسِياطٍ لاذعةٍ:

ففِي موضعٍ قال السَّقافُ[٣]:

وما رأيتُ الناظمَ أقلَّ حياءً، ولا أَصفقَ وجهًا، ولا أصغرَ نَفْسًا، في قولِه:

إنْ كانَ مِثْلُكَ كَانَ أو هُوَ كَائِنٌ ... فبَرِئْتُ حِينئذٍ مِن الإسلامِ

---

(١) «المتنبي» للشيخ محمود شاكر (١٤١، ١٤٢، ١٤٣).

(٢) مقدمة «العود الهندي» (٥٦).

(٣) «العود الهندي» (١٨٤).

ولـمَّا وَصَلَ إلى قولِ المتنبي:

فَاطْلُـــبِ العِـــزَّ في لَظَـــى وَدَعِ الذُّ ـلَّ ولَـــو كانَ في جِنَـــانِ الخُلُـــودِ

وقولِ عنترةَ:

مَـــاءُ الحيـــاةِ بذِلَّـــةٍ كَجَهَـــنَّمٍ وجَهَـــنَّمٌ بـــالعِزِّ أطيـــبُ مَـــنزِلِ

قال السَّقافُ: «[هذا] كلامُ من لا يَعرفُ مِن الإسلامِ سِرَّه، وإلَّا فإنَّه لا عِزَّ إلَّا فيه...ومنه تَعرفُ أنَّ الناظمَ لا يَعشَقُ إلَّا مَظاهرَ الزينةِ الكاذبةِ، ولا يَرغبُ إلَّا في عِزِّ الباطل المُموَّهِ»(١).

ولما ذكر قولَ المتنبي:

لَـمَّـا وَزَنْتُ بِكَ الدنيـا فَمِلْـتَ بهـا بهـا وبـالوَرى قَـلَّ عنـدي كـثرةُ العَـدَدِ

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أساءَ الأدبَ في هذا؛ لأنه انتزعَه مما جَرى له ﷺ ليلةَ الإسراءِ، مِن أنَّ الملائكةَ وَزَنَتْه فرَجَحَ بألفٍ مِنْ أُمَّتِهِ»(٢).

وفي موضعٍ قال في بيتِ ماجنٍ: «هذه الأبياتُ لا تَحصُلُ إلا بخِذْلانٍ مِنَ اللهِ».

وقال في موضعٍ آخر: «هذه الأبياتُ من رُقَى الشيطانِ وتَمائمِ إبليسَ».

ونَقلَ عن الواحديِّ قولَه بعدَ بيتِ المتنبي:

مـــا مُقـــامي بـــأرضِ نَخْلَـــةَ إلَّا كمُقـــامِ المَســـيحِ بـــينَ اليهـــودِ

---

(١) «العود الهندي» (٤٨٤-٤٨٥).

(٢) «المصدر نفسه» (٥٣٧)، والحديث المشار إليه أخرجه الدارمي (١٥)، والبزار (٩/ ٤٣٦)، وغيرهما بإسناد فيه انقطاع بين عروة بن الزبير وأبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما قاله البزار، وأما الشيخ الألباني فقد جوَّد إسناده في «الصحيحة» (٢٥٢٩)، وليس فيه ذكر الإسراء.

قالَ الواحديُّ: «وبهذا مع تَشبيهِ نفسِه بصَالحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لُقِّبَ: المتنبي».

فقال السَّقافُ: «وليسَ بصحيحٍ.. ولكنَّه تَنبَّأَ حقيقةً في بادَيةِ السَّماوةِ.. حتى حُبِس، ثُمَّ أُطلِقَ بعدَ الاستتابةِ»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد جاءَ [المتنبي] بأشياءَ ظاهرةِ النَّكارةِ والقُبْحِ.. -وسَرَدَ بعضَها ثُمَّ قال-: فهذا واللهِ القولُ الهُراءُ، والشِّعْرُ الذي لا يَتقدَّمُ إلا إلى الوَراءِ»[٢].

ولامَ المتنبي في إسرافِه في المدحِ فقالَ: «قلَّما تَجِدُ شاعرًا إلا يَدَّعِي لمَمدوحِه التَّفرُّدَ...-وسَرَدَ بعضَ أبياتِه في ذلك ثُمَّ عقَّبَ بقولِه-: في كثيرٍ مِن أمثالِهِ، فكأنَّما التَّفرُّدُ حِلْيةٌ بيَدِه، يُقلِّدُها حِيْدَ كُلِّ مَنْ يُنيطُ به أَمَلَهُ، ويُعلِّقُ فِيه رَجاءَهُ، وما ذاك إلاَّ لأنَّهُ يَكيلُ المدحَ جُزافًا، ويُسرِفُ فيه إسرافًا»[٣].

ولما وَصَلَ إلى قولِ المتنبي في ممدوحِه:

لَمْ يخلُقِ الرحمنُ مِثْلَ محمدٍ أَبدًا وظَنِّي أنَّه لا يَخلُقُ

قال السَّقافُ: وفيه من الغُلُوِّ والمُجازفةِ، ما لا غايةَ وراءَه، والأمرُ في مِثْلِه إلى النِّيَّةِ، فإنْ أراد حقيقةَ العمومِ، والترجيحِ على حَضَراتِ الأنبياءِ.. فقد وَقَعَ في صريحِ الكُفرِ، وإلَّا.. فلا، ألا تَرى لِقولِ بعضِهم في مدحِ خَالدِ بنِ عبدِ اللهِ القَسْريِّ:

---

(١) «العود الهندي» (٤٦٤).

(٢) «المصدر نفسه» (٨٠١).

(٣) «المصدر نفسه» (١٨١).

أَلَا إنَّ خـــيرَ النَّـــاسِ حَيًّـــا ومَيِّتًـــا أَســـيرُ ثَقيـــفٍ عنـــدَهم في السلاســـلِ

فإنَّه لا يَقِلُّ عن بيتِ الناظمِ في العمومِ، ولم يُكَفِّروه، ولم يَقولوا: إنَّه فَضَّلَ ممدوحَه على سَيِّدِ البَشَرِ ﷺ؛ لأنَّ كُلَّ مَن ذَكرَ الناسَ لا يُريدُهم بجُمْلَتِهم، وإنَّما يُريدُ قومًا مخصوصينَ بالعَهدِ، أو القرينةِ، ومعَ هذا.. فإنَّها إساءةُ أَدَبٍ، ومُجاوزةِ حَدٍّ، وقِلَّةِ مُبالاةٍ، وقِحَةِ وجهٍ»[١].

ولم يَقتصرِ السقافُ على نَقدِ المتنبي حينَما يُشِطُّ، بل رَشَقَ شِعْرَ المُجونِ بسِهامِ النقدِ، غيرَ مُكترِثٍ بقائلِها:

عَلَّقَ على أبياتِ أَحدِهم بقولِه: «وفي الأبياتِ مِنَ التديُّثِ والسَّخافةِ، وقِلَّةِ الغَيْرةِ، وهَتْكِ السِترِ، ما لا غايةَ بعدَه».

وذكر أبياتًا لأبي العلاءِ المَعَرِّي ثم قالَ: «...وهو غيرُ مستنكَرٍ مِنَ المَعرِّيِّ معَ تَهجُّمِهِ على الأنبياءِ، وقِلَّةِ احترامِه لهم»[٢].

وقالَ في شِعْرِ لِابنِ هَانئٍ الأندلُسي: «وقد أَساءَ الأدبَ على اللهِ»[٣].

وقال -بعد بيتٍ لأبي تَمَّامٍ-: «ولعَمْري إنَّه لبَيتٌ ساقطٌ، يُنادي على نفسِه بالخِذْلان، لو تَجسَّمَ.. لكان مِعْوَلًا لتكسيرِ الحِجارةِ، وهذا هو الشِّعْرُ المتكلَّفُ الباردُ»[٤].

---

(١) «المصدر نفسه» (٦٦٨).

(٢) «المصدر نفسه» (٦٧٣).

(٣) «المصدر نفسه» (٧٧٧).

(٤) «المصدر نفسه» (٢٤١).

وقالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. وما أقبحَ ما يُسيءُ الشعراءُ الأَدَبَ ويُقِلُّونَ الحَياءَ».

بل فَصَلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين البلاغةِ والدِّيْنِ، وأوضحَ أنَّ أكثرَ الشُّعراءِ البُلغاءِ عَن الدِّينِ بِمَعْزِلٍ![1].

كلُّ ذلكَ حِفْظٌ لجلالةِ الشريعةِ، وصيانةٌ لهَيبةِ المِلَّةِ، وحِمايةٌ لمَقامِ الدَّيانةِ، وهذا ما تَميَّزَ به السَّقَّافُ، في مجالسِه الأَدبيةِ، فهو يَسقي فِكْرَك بالأدبِ معَ اللهِ وشعائرِ دِينِه، قبلَ أنْ يَسقيَه بأدبِ البلاغةِ والفصاحةِ!

والآنَ إلى الـمُنتَخباتِ الأدبيةِ..



(١) «المصدر نفسه» (٦٧٤).

المُنتخبُ مِنْ كتابِ العُودِ الهنديِّ

قَصْرُ الخَطْوِ للرجالِ مذمومٌ

ص/ ٦٤: «وعلى استحسانِ قَصْرِ الخَطْوِ في النساءِ، فهوَ مذمومٌ في الرجالِ، إذا جاوزَ الحَدَّ الذي رَسَمَهُ لُقمانُ في قولِهِ لِولدِهِ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩]، ولا سيَّما إذا انتهى إلى التماوُتِ الممقوتِ فاعلُه».

ألَمُ الفراقِ

ص/ ٧٢-٧٣: «قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ البَيْنِ ومَرارتِهِ، ولم يَشْكُ مِنَ البُعدِ وحَرارتِهِ، وأَيُّ عَينٍ لم تذرِفْ؟! بل كلُّ نفسٍ مفارقةٌ، وإنْ لم تعرِفْ... فهوَ الذي يَنطوي بهِ مِنَ الأَفراحِ بِساطُها، ويتقطعُ مِنَ القلوبِ نِياطُها، ويكثُرُ مِنَ العقولِ اختلاطُها، فلا كَبِدَ إلاَّ تفتَّتَ على ذاهبٍ، غيرَ أنَّ للناسِ فيما يَعشقونَ مذاهبَ [كما قيل:]

وأَيُّ امْـرِئٍ يَخْلُـو مِـنَ الحُـبِّ قَلْبُـهُ ... أَلَـمْ تَـرَهُ حَـتَّى الجَمَـادُ بِـهِ اهْـتَزَّا
وَلَكِـنَّهُمْ شَـتَّى فَمِـنْ هَـابِطٍ بِـهِ ... إِلَى الدَّرَكِ الأَدْنَى وَمِـنْ صَـاعِدٍ عِـزَّا
وَلَا عِـزَّ إِلَّا فِي هَـوَى اللهِ وَحْـدَهُ ... وَحُبِّ الَّذِي هَانَتْ بِهِ اللَّاتُ والعُزَّى[1]

(١) ومن هان به صنما اللّات والعزى هو رسول الله ﷺ.

لا ثقة مطلقة بالنساء:

ص/ ٩٩: «وعلى ذِكْرِ عِفَّةِ النساءِ وبُعدِهِنَّ نقولُ: إنَّهُ لا يُمكنُ للإنسانِ أنْ يَكِلَهُنَّ إلى ما يثقُ بهِ فيهنَّ مِنْ ذلِكَ، فإنَّ البعيدَ يقرُبُ بالاحتيالِ، والعُصْمَ[1] تَسهُلُ بالاستنزالِ، وقد قالَ بعضُهُم:

عُسْرُ النِّسَاءِ إلى مُيَاسَرَةٍ ... وَالصَّعْبُ يَسْهُلُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

وقال أخو خَثعمٍ:

وَآلَتْ يَمِينًا كَالزُّجَاجِ رَقِيقَةً ... وَمَا حَلَفَتْ إلاَّ لِتَحْنَثَ مِنْ أَجْلِي

الفسادُ دَيْنٌ فالزم العفافَ:

ص/ ١٠٠: «وأَولى ما يَتوسَّلُ بهِ المرءُ لتحصينِ أَهلِهِ.. التَّلَزُّمُ بالعَفافِ في نفسِهِ..

وقال بعضُهم:

عِفُّوا تَعِفَّ نِسَاؤُكمْ فِي الْمَحْرَمِ ... وَتَجَنَّبُوا مَا لاَ يَلِيقُ بِمُسْلِمِ

إنَّ الزِّنَا دَيْنٌ إذا أَقْرَضْتَهُ ... كَانَ الوَفَاءُ مِنَ اهْلِ بَيْتِكَ فَاعْلَمِ

فالفسادُ دَينٌ يُؤخذُ بهِ مِنْ أَهلِ الزاني وذُرِّيَّتِهِ لا محالةَ، ولو كانوا أَحمى مِنْ جَبَهاتِ الأُسودِ، وأَمنعَ مِنْ عُقبانِ الجَوِّ، والأَخبارُ في ذلِكَ كثيرةٌ، والعِيانُ يُؤكِّدُها، واللهُ غيورٌ على عبادِهِ، وهوَ العدلُ في أحكامِهِ».

---

(١) العصم: الغزال، والمقصود أن المرأة ينبغي التحفظ عليها.

لماذا كانَ الليلُ مَجْمعَ الهمومِ ؟

ص/ ١٢٩: «الأصلُ اجتماعُ الهُمُومِ على المحبِّينَ بِاللَّيلِ، وقَدْ تَتفرَّقُ عنهم نهارًا، بِما يُمارسونَ مِنَ الخَلْقِ والأَشغالِ...

ويُروى عَنْ ثَعْلبٍ أنَّه كَانَ يقولُ: كُلُّ مَنْ تكَلَّمَ فِي طُولِ الليلِ لَمْ يَبْلُغِ الذُّرْوةَ مِنَ الإجادةِ سِوى خالدٍ الكاتبِ فَقَدْ جَاوزَ الغايةَ إذْ يقولُ[١]:

رَقَـــدْتِ وَلَـــمْ تَـــرْثِ لِلسَّـــاهِرِ وَلَيْـــلُ المُحِـــبِّ بِـــلاَ آخِـــرِ

وَلَـــمْ تَـــدْرِ بَعْـــدَ ذَهَـــابِ الرُّقَـــا دِ مَـــا صَـــنَعَ الدَّمْـــعُ بِالنَّـــاظِرِ

شجاعةُ رسولِ الله ﷺ وثباتُ قلبه عندَ الخطوبِ

ص/ ١٤٠: «وحالُه ﷺ أكملُ الأحوالِ، ولهذا اشتدَّ خوفُه، وكَثُرَ إلحاحُه على ربِّه يومَ العَرِيْش، والمهاجرونَ والأنصارُ بينَ يديه تَدورُ حماليقُهم أمثالَ الحَيَّاتِ، وثَبَتَ جَأْشُه، وذَهَبَ إيحاشُه يومَ الغَارِ، ويومَ حُنَيْنٍ، ويومَ أُحُدٍ، وقد اصفرَّتِ الجِبَاهُ، ويَبِسَتِ الشِفاهُ، وغارَتِ العُيونُ، وظُنَّتِ الظُّنونُ، وهلْ سَمِعتَ بِشدَّةٍ أعظمَ مِن شِدَّتِه، وقد ظَنَّ أنَّ عَمَّهُ سَيسُلِمُه إلى قُريشٍ؛ إنْ لم يُجِبْهُ إلى خَصْلةٍ مما عَرَضَ عليه، فقال: «**وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشمسَ فِي يَمِينِي، والقمرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظهِرَه اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ**»[٢]. وهل بَلَغَكَ رِقَّةٌ أعظمَ

---

(١) وأحسن منه قول الأديب مصطفى المنفلوطي (ت: ١٣٤٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يشعر المتعبد بنعيم الحياة إلا إذا جنّ الليل وأوى إلى معبده وخلا بنفسه». «النظرات» (٢/ ١٣٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: ابن إسحاق (٢/ ١٠١)، ومن طريقه ابن جرير في «التاريخ» (٢/ ٣٢٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٧)، بإسناد منقطع، لكن أخرج البخاري في «التاريخ» (٧/ ٥٠-٥١)، وأبو

مِنْ رِقَّتِهِ ﷺ يومَ فَتْحِ مَكَّةَ؛ إذْ دَخَلَها على رَحْلٍ مُطأطِئًا رأسَه، حتى لَيكادُ يَمَسُ مُقَدَّمَ رَحْلِه، مُردِفًا خَلْفَه عَبْدًا في سَوادِ الغُرابِ، وخَلْفَه ثمانيةُ آلافِ سيفٍ مُنتضاةٍ، ومَكَّنَه اللهُ مِنْ رِقابِ أعدائِه الذين فَعَلوا به الأَفاعيلَ، فما كانَ منه إلا أنْ جَمَعَهُم حولَ البيتِ، وقال: «ما تَروني فاعلًا بِكم؟»، فقالوا: إنْ تُعَذِّبْ فقدْ أَسأنا، وإنْ تَعْفُ فخيرُ ابنٍ وخيرُ أخٍ، فقال لهم: «لا أَقولُ لكم إلَّا كَما قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]»[1].

كيفَ عفا رسولُ اللهِ ﷺ عن قريش وقَتَلَ بني قُريظة؟

ص/ ١٤٠-١٤١: «وههُنا سُؤالٌ وهو: كيفَ عفا ﷺ عن قُريشٍ، وقَتَلَ ما بينَ الصَلاتينِ سبعَمئةٍ مِنَ اليَهودِ، لمْ تأخذْهُ بِهِمْ رأفةٌ، ولمْ تَعطِفْهُ عليهمْ رحمةٌ، مع أنَّه أشفقُ الناسِ بالناسِ، ومعَ أنَّ ذَنبَهُم لمْ يَكُنْ مِثلَ ذُنوبِ قُريشٍ؟

والجوابُ: أنْ لا هَوادةَ عِندهُ، وقد قَتَلَ الفريقينِ، إلاَّ أنَّ قُريشًا لـمَّـا كانوا أَهلَ كَرَمٍ، وبُعْدَ هِمَمٍ، وطَهارةَ شِيَمٍ، كانَ قَتْلُهم بالعَفوِ، وأمَّا اليَهودُ: فإنَّهم لـمَّـا

يعلى (١٢/ ١٧٦)، والطبراني (١٧/ ١٩١-١٩٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ١٨٦-١٨٧)، وابن عساكر (٤١/ ٥)، عن عقيل بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا؛ بلفظ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّمْسَ؟». قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: «مَا أَنَا بِأَقْدَرَ عَلَى أَنْ أَدَعَ لَكُمْ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَسْتَشْعِلُوا لِي مِنْهَا شُعْلَةً». قَالَ: فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: مَا كَذَبَنَا ابْنُ أَخِي، فَارْجِعُوا». وحسنه ابن حجر في «المطالب العالية» (١٧/ ٢٥١).

(١) قصة الفتح الأعظم معروفة في كتب السيرة فلا إطالة، وحديث عفوه ﷺ عن قريش أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٣٤)، والطحاوي في «معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٥٨)، بإسناد جيد.

اشْتَمَلُوا على اللُّؤْمِ، وانْدمجوا على الخِسَّةِ بآيةِ أنَّ ذَنبَهُم كانَ الغَدْرُ، لَمْ يَكُنْ لِيُصلِحَهُمُ الحِلْمُ، ولا لِيَتَداركَهُمُ العفوُ، لا جَرَمَ اضْطُرَّ إلى قَتْلِهم بالسَّيفِ»[1].

من صفاتِ الكريمِ

ص/ ١٤١: «إنَّ الإحسانَ ذِمَّةٌ، فلا يليقُ بالكريمِ أنْ يُؤذِيَ غَذِيَّ نِعمتِهِ».

سبحانَ مَنْ لا يَزولُ مُلْكُه

ص/ ١٤٤: «وقد رأيتُ زوجَةَ آخِرِ ملوكِ آلِ عثمانَ تطلبُ الصَدَقةَ في (سنكافورةَ)، فسبحانَ مَنْ لا يزُول ملكُهُ».

مِن محاسنِ الشريعةِ

ص/ ١٤٧: «ومِنْ محاسنِ الشريعةِ واعتنائِها بالعدلِ كراهةُ المَشْيِ في نعلٍ واحدةٍ».

قاعدةٌ في المَدَّاحِين والهجَّائين

ص/ ١٨٢: «ولهذا قالَ ابنُ عبدِ السَّلامِ في «قواعدِهِ»[2]: لا تكادُ تجدُ مَدَّاحًا إلاَّ رَذْلاً، ولا هجَّاءً إلاَّ نَذْلاً.

---

(١) ينظر «زاد المعاد» (٣/ ١٥٩).

(٢) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (٢/ ٣٤٦)، وبعده: «إذ الأغلب على المداحين الهجائين الكذب والتغرير».

وأكبرُ مِنْ ذلكَ ما ابتُلِيَ بهِ ذُنَابَى[1] البلادِ مِنْ إهانةِ الأدبِ وبَذلِ المديحِ لِمَن لا يستحقُّهُ، وكثيرًا ما يعتقدُ المادحُ عكسَ ما يقولُ، فتراهُ يمدحُ بلسانِهِ مَنْ يذمُّهُ بِقلبِهِ، ويَتلوَّنْ ألوانًا، ويتَّخِذُ لكلِّ حالةٍ وجهًا ولسانًا:

وَأَقْتَلُ شَيْءٍ رُؤْيَةُ الْعَيْنِ ظَالِمًا يُسِيءُ وَيُثْنَى فِي الْمَحَافِلِ حَمْدُهُ

أهلُ الكمالِ في جَهْد:

ص/ ١٨٧: «ومِنْ دَواعي تعبِ أهلِ الكمالِ أنهُ مَقرونٌ بعُلوِّ الهِمَّةِ وكِبَرِ النَّفْسِ والزمانُ معاندٌ، والأيَّامُ لا تساعدُ:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ[2]

لأنَّها لا تقِفُ عندَ غايةٍ، ولا تُفضي إلى نهايةٍ، وقد قالَ اللهُ جلَّ شأْنُهُ لأفضلِ الخلقِ عليهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]».

توجُّعٌ مِنْ حالِ العَلَويِّينَ

ص/ ١٩٤: «أَنْعِي على العَلَوِيِّينَ انقسامَهم وتخاذلَهم وانحطاهم... والعَجَبُ أَنَّكَ لا تَرى أَحدًا مِنَ النَّاسِ يَتكلمُ في الأخلاقِ ومَدْحِ الاجتماعِ مِثْلَهم، ومعَ ذلكَ-ولا أُحاشِي- تَجِدُهم مِن أكثرِ الخَلْقِ نِفاقًا، وأَفسدِهم

---

(١) الذُنابى: الأتباع.

(٢) من أبيات المتنبي السائرة انظر: «الأمثال السائرة من شعر المتنبي»، للصاحب ابن عباد (٣٧).

أَخلاقًا، فما أَقلَّ حياءَهم، وما أَصفقَ وجوهَهم؛ إذْ يَتبجحونَ بالانتسابِ إلى ساداتِ الكَونِ على بُعْدِ ما بينَهم مِنَ الفَرْقِ والبَوْنِ، ولله دَرُّ القائلِ:

لستُم بَنِيْهم ولستُم مِنْ سُلالتِهم إنْ لم يكنْ أمرُكم مِنْ أمرِهم أَمَمَا

وما أحسنَ ما قلتُ من قصيدٍ:

إذا لم يَسِرْ نَجْلُ النَّبِيِّ بِسَيرِهِ فلا بِدْعَ إنْ قال العِدا إنَّه دَعِي

سَعَةُ الفَمِ بينَ المدحِ والذمِّ

ص/ ٢٣٤: «سَعَةُ الفمِ في الرجالِ ممدوحةٌ؛ لِدلالتِها على اللَّسَنِ، وجَهارةِ الصوتِ، بخلافِها في النساءِ، فإنها مذمومةٌ؛ لأنها تَدلُّ على سَعَةٍ أخرى لا تُحمدُ».

الفرقُ بينَ الجميلِ والمليحِ

ص/ ٢٣٦: «قيل: إنَّ الجميلَ الذي يَأخذُ بِبَصَرِك على البُعْدِ، والمَليحُ: الذي يَأخذُ بقلبِك على القُرْبِ».

أهلُ المَلَقِ لا يَتورَّعونَ:

ص/ ٢٤٣: «ومِمَّا عَمَّ الابتلاءُ به أنَّ الجُهالَ وأهلَ المَلَقِ لا يَتورعون أنْ يُطلِقُوا الأوصافَ الإلهيةَ على مَنْ يَدَّعونَ له الوِلايةَ أو يُعظِّمون مِنْ أبناءِ الدنيا».

عِزَّةُ العلماءِ الراسخينَ:

ص/ ٢٥٣: مرَّ رجلٌ مِن الأغنياءِ برجلٍ مِن أهلِ العلمِ، فتَحرَّكَ له، وأكرمَه، فقيلَ له: هل كانتْ لكَ إليه حاجةٌ؟ قال: لا، ولكنَّ ذا المال مَهيبٌ...

وهذا العالِمُ لا شَكَّ أنَّه مِنْ صغارِ النُّفوسِ، وزُمَناءِ المرُوءةِ[1]، وضُعفاءِ الدِّينِ، وإلَّا فقد كانَ الأغنياءُ يتمنَّون أنْ لو كانوا فقراءَ في مجلسِ سُفيانَ الثَّوريِّ؛ لِـمَا يَرونَ مِن إيثارِه إياهم، وذلك هَدْيُ رسولِ اللهِ ﷺ، لا يُنْزِلُ النَّاسَ إلَّا عِندَ مواضعِهم في الفضلِ والدِّينِ، وحديثُ عُمرَ معَ صَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ وسُهيلِ بنِ عَمْرٍو، وتأخيرُه مجالسَهم لِرفعِ المهاجرينَ الأولينَ.. معروفٌ».

لا ذُلَّ في طريقِ الجَنَّةِ ولا عِزَّ في طريقِ النارِ

ص/ ٢٦٩-٢٧٠: «لا ذُلَّ في طريقِ الجَنَّةِ، ولا عِزَّ في طريقِ النارِ، فهو دِينُ العِزِّ والشَّرَفِ، ودينُ المجْدِ والأَنَفِ، لقد حُظِرَ على الإنسانِ أنْ يُذِلَّ نَفسَه، وجَعَلَه حُرًّا في سائرِ أطوارِه، مع الاعترافِ بالعُبوديَّةِ لخالقِه بأداءِ الفَرْضِ، ومع التَلزُّمِ بقَانونِه المُفضِي إلى سَعادةِ الدارينِ».

تَفضيلُ حِلْفِ الفُضولِ على ميثاقِ الأُممِ المُتحدةِ

ص/ ٢٧٥-٢٧٦: «ومِن مَفاخرِ العَرَبِ إجابةُ الصوتِ، وإغاثةُ الصَريخِ، والاستهانةُ بالموتِ في سبيلِ ذلك، حتى لقد قامَ أَحدُ عظماءِ الأدبِ المِصريِّينَ بِمِنَى عامَ حَجَجْنا، فقال: إني تَأمَّلتُ القرآنَ فَوجدتُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩] ما يُشبِهُ قانونَ جَمعيةِ الأُمَمِ، فلما

(١) أي: أصاب مروءتهم مرض مُزمِنٌ، لم يبرح.

انتهى إليَّ القولُ.. تَعرَّضتُ لمقالِه، مِن إعجابي بموضوعِه، وقلت: أمَّا نَجْدةُ القرآنِ وشهامتُه، وتمكينُهُ للسلامِ بالعدلِ والانتصافِ فمِن وراءِ كُلِّ قياسٍ، لا يُوزنُ به اليومَ شيءٌ مِن أحوالِ الناسِ، لكنْ بينَ أيدينا مِثالٌ مِن أعمالِ أهلِ الجاهليةِ الجَهلاءِ، يَزيدُ على ما في قانونِ تلكَ الجَمعيةِ من وجوهٍ، ذلك المثالُ هو (حِلْفُ الفُضولِ) الذي يَقولُ عنه ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ**»(١)، وأمَّا وجوهُ فضلِه:

فمنها: أنَّ قانونَ تلك الجَمعيةِ لا يَتعهَّدُ بِنَصْرِ مَنْ لم يَنضمَّ إليها، وإنَّما هو مقصورٌ على أهلِها فقطْ-فيما إخالُ- بخلافِ حِلْفِ الفُضولِ، فقد اقتطعَ على نفسِه نُصْرةَ المظلومِ، أيًّا كانَ، مِن غيرِ شَرْطٍ ولا قَيْدٍ.

ومِنها: أنَّ نَصْرَ جَمعيةِ الأُمَمِ ضِمَارٌ(٢) ووَعْدٌ، ونَصْرُ هذا خلاصٌ ونَقْدٌ، وما بينَ المظلومِ وبينَه إلا أنْ يُناديَ يا آل حِلْفِ الفُضول، فتُبادرُه السُيوفُ، ثُمَّ لا تَنحجِرُ حتى تَستخرِجَ له حَقَّه مِـمَّن كان».

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن إسحاق كما في «تهذيب السيرة» (١/ ٢٦٦)، بإسناد صحيح مرسل، وأخرجه أحمد (١/ ١٩٠، ١٩٣)، وغيره، عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ، وَأَنِّي أَنْكُثُهُ»، وصححه الشيخ أحمد شاكر.

والصواب: حلف الفضول؛ لأن حلف المطيبين كان قبل مولده ﷺ بزمان بعيد. انظر «المدخل إلى علم السيرة النبوية» لراقمه.

(٢) الضمار: ما لا يرجى من الدَّين والوعد، وكل ما لا تكون منه على ثقة.

كتابة الفوائد

ص/ ٢٧٩: «الفَائدةُ صيدٌ، والحزْمُ في استعجالِ القَيدِ».

غَيْرَةُ العربِ

ص/ ٢٨٨: «كان العربُ يأنفونَ مِن تَزويجِ مَنِ اشتهرَ الخاطبُ بهَواها؛ لِئلا يَصدُقَ الظنُّ، ويقولَ الناسُ: إنما أراد سَتْرَ ما أخَذَ مِن عُذْرَتِها».

لا يُألمُ بالفِراق إلّا أهلُ النفوس الكريمة

ص/ ٣٠٠-بتصرف-: «مِن المنكَرِ القبيحِ مَقُولةُ: موتُ الزوجةِ حُزْنُ ساعةٍ؛ لأنَّه مخالِفٌ لِفَحوى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١] إذْ كيفَ السُّلْوانُ يكونُ لِـمَن ذَهبَ مع إلْفِهِ السُكونُ؟ ولا يَتأثرُ بالفِراقِ إلَّا أهلُ النفوسِ الكريمةِ، ألا تَرى أنكَ لو رَبَطْتَ حِمارًا بجانبِ فَرَسٍ، ثم فرَّقتَ بينَهما فإنَّ الحِمارَ لا يَتأثَّرُ، ولكنِ الفَرَسَ تُكثِرُ الحَنينَ!».

لا لَومَ في بكاءِ حُزْنِ الفِراقِ

ص/ ٣٠٣-٣٠٤: «ما زالتِ الأشرافُ تَنفُثُ بما لابأسَ فيه مِنِ الدمعِ على الفِراقِ؛ خشيةَ أنْ تَتفطرَ القلوبُ، وتَتقطعَ الأكبادُ، ولكنَّها تَحرِصُ على أنْ لا يَشعرَ الناسُ بذلكَ ...دليلُ ذلكَ ما اقتصَّه اللهُ جَلَّ ذِكْرُه علينا مِن حالِ سيدِّ المفجوعينَ في قوله: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ

﴿ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] فقد أَبَتْ له الشَهامةُ أنْ يَظهَرَ أمامَ وَلدِه بمَظْهَرِ الحُزنِ حتى فارقَهم وتولى عنهم».

قاعدةٌ في الشِعْرِ

ص/ ٣٠٤: «الشِعرُ نظيرُ الخَلوة، يُباحُ فيه ما يُباحُ فيها، كما قلتُ:

وما في اقتصاصي واقعُ الحالِ وَصْمةٌ لدَى عارفي سرَّ الإحالةِ في الشِعْرِ

الفِراقُ بَريدُ الموتِ

ص/ ٣١٠: «الفراقُ بريدُ الحِمامِ، وفاتحةُ الأسقامِ، وحَسْبُكَ ما اتفق ليعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

كيف يُتسلَّى من ألمِ الفِراقِ

ص/ ٣١٧، ٣٢٣: «أنفعُ ما يَبُلُّ به المرءُ غليلَ الجَوى، ويَتعللُ به المنكوبُ إذا أَضرَّ به النَوى.. تَحقُّقُ أنَّ الحياةَ ليسَ لها بقاءٌ، وأنْ الافتراقَ ليس إلا إلى المُلتقى، وقد قالَ الأولُ:

وهَوَّنَ بعضُ الوَجْدِ عنِّي أنَّني أُجاوِرُه في دارِه اليومَ أو غدا

فلا قيمةَ للحياةِ إلَّا باجتماعِ شَمْلِ الأحبابِ، وأنَّى يكونُ الأُنسُ باجتماعِ الشَمْلِ المُهدَّدِ في كلِّ طَرْفةِ عَينٍ بالافتراقِ؟!

إذنْ: فلا أُنسَ إلَّا فيما أَشرْنا إليه مما يُشْبِهُ علاجَ ثَوبانَ مما خالطَه مِنْ فراقِه ﷺ ألا وهوَ قولُه تَقدستْ أسماؤُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]»[1].

---

(١) قال الثعلبي في «تفسيره» [النساء:٦٩]: نزلت هذه الآية في ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، ونَحَلَ جسمه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله : «يا ثوبان، ما غير لونك؟» فقال: يا رسول الله ما بي من ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرَكَ اشتقت إليك، واستوحشت وَحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأخاف أن لا أراك هناك، لأني أعرف أنك ترفع مع النبيين، وأني إن أُدخلت الجنة كنتُ في منزلة أدنى من منزلتكَ، وإن لم أُدخل الجنة فذاك أحرى أن لا أراك أبدًا. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

هكذا أورده الثعلبي بغير إسناد، وذكره الواحدي في «أسباب النزول»، فقال: «قال الكلبي:...» فذكره.

وهو كما ترى معضل، فبين الكلبي وعهد النبوة مفاوز.

لكن قد جاء الخبر عن جماعة، بغير تسمية الحزين لفراقه ﷺ:

فقد جاء عن عائشة عند الطبراني في «الأوسط» رقم (٤٧٧)، وفي «الصغير» رقم (٥٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٠)، وعنه الواحدي في «أسباب النزول» [النساء:٦٩]، والمقدسي في «صفة الجنة» رقم (٢٠)، وقال: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأسًا والله أعلم. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧): رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة.. وذكره ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٩١٤)، وقال: رجاله موثقون. وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٩٣٣).

وجاء عن ابن عباس عند ابن مردويه في «تفسيره»، والواحدي في «المصدر نفسه»، والطبراني (١٢/ ٨٦-٨٧).

وعن الشعبي مرسلًا عند سعيد بن منصور (٤/ ١٣٠٧رقم/ ٦٦١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥٠٤-٥٠٥ رقم ١٣١٧)، بإسناد حسن مرسل.

وعن مسروق عند ابن أبي حاتم في «تفسيره» [النساء: ٦٩]، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٠١)، والواحدي في «المصدر نفسه» بإسناد حسن مرسل.

وعن قتادة عند الواحدي أيضًا في «المصدر نفسه» وعن سعيد بن جبير عند ابن جرير الطبري في «تفسيره».

متى يكونُ نَشْرُ العيونِ مفيدًا؟

ص/ ٣٥٦: «إنما يكونُ بَثُّ العيونِ وسيلةً للنجاحِ عندَ كَرَمِ الطِّبَاعِ، وغَلَبَةِ الصِدْقِ، وإلَّا فقد تَدسّسَ منها في الأخطاءِ الفاحشةِ جملةٌ مِن الملوكَ، منهم: السلطانُ عبدُ الحميدِ؛ إذ سَلَكَها مع انتشارِ اللُؤمِ، وغَلَبَةِ الكذِبِ، وفُيوضِ الغِشِّ، فكانتْ الجواسيسُ تَبيعُ الضمائرَ، وتُفسِدُ ما بينَه وبينَ رجالاتِ الأعمالِ، حتى آلَ الأمرُ إلى ما لم تُحمدْ عُقْباه، ولا حَولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ».

لماذا يَذكرُ العربُ عَناءَ السفرِ في أشعارِهم

ص/ ٣٨١: «مِن عادةِ العربِ أنْ يذكروا في أشعارِهم ما يَلقَونَ مِن وَعْثاء السفرِ؛ لِيَجِبَ حَقُّهم على الممدوحينَ وتَعظُمَ مِنَّتُهم عليهم... ولا يُحصى كَثْرةً ما في كلامِهم من مِثْلِه، فهو أظهرُ مِن أنْ يُستظْهَرَ عليه بالشواهدِ والأمثالِ؛ لأنَّه كُلُّه مِن هذا القَبيلِ».

قَبولُ الشِّعرِ وإجزالُ الثوابِ عليه

ص/ ٣٨٤: «مَنْ علَّقَ رجاءَه بإنسانٍ وقَطَعَ إليه السُّهوبَ، واجتاز المهالكَ يَختبِطُ الدُّجى، ويَعتلِجُ صدرَه اليأسُ والرجاءُ ..لجديرٌ أنْ تُعجَّل أَوْبَتُه، وتُجزَلَ

وعن الربيع بن أنس عند ابن جرير أيضًا.

قال ابن كثير في «تفسيره»: قد روي هذا الأثر مرسلًا عن مسروق، وعن عكرمة، وعامر الشعبي، وقتادة، وعن الربيع بن أنس، وهو من أحسنها سندًا.

وموجز القول: الخبر ثابتٌ، والتعيين مظنون، والعلم لله.

مَثْوبتُه، ومِن هديِه ﷺ قبَولُ الشِّعْرِ وإجزالُ الثوابِ عليه، وحديثُه مع كعبٍ مشهورٌ، فلقد حَقَنَ دمَه، وكساه بُرْدتَه، وأكرمَه بمِئةٍ مِنَ الإبِلِ، واقتفاهُ الخلفاءُ، والأمراءُ، وآلُ البيت، وغيرُهم مِن الناسِ»[1].

المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ

ص/ ٣٩٢: «العربُ تَصِفُ شُؤونَها، وتَشرَحُ خَبرَها، وتَقتصُّ وقائعَ أحوالِها، غيرَ أنَّها قد تميلُ إلى المبالغةِ أحيانًا بما اقتضتْه ضمائِرُها من البلاغةِ، وساقتْها غرائزُها مِنَ البيانِ... إنَّما العَجَبُ مِمَّن يَذْكرُ في شِعْرِه العِيْسَ والمَهارِي، والبِيْدَ والصَّحاري، ولعلَّهُ لم يَركبِ الجَمَلَ، ولم يَعرفِ الفَلاةَ، فذلك عُنوانُ العَجْزِ، وبُرهانُ الضَعْفِ، ودليلُ التبلُّدِ، وشَهيدُ التكلُّفِ»[2].

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرَّب: شاعر مخضرم، ذكر خبره ابن هشام في «تهذيب السيرة» (٢/ ٥٠١-٥٠٢)، وغيره بما حاصله: أهدر النبي ﷺ دمه لهجائه، فضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، ثم أنشد قصيدته في مدح رسول الله ﷺ، ثم خرج حتى قدم المدينة بعد عودة رسول الله ﷺ من فتح مكة وما تبعها من أحداث، سنة ثمان، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به على رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فلما صلى مع الناس أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله ﷺ فقم إليه، فذكر لنا أنه قام إلى رسول الله ﷺ، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله ﷺ: إن كعب بن زهير استأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: أنا -يا رسول الله- كعب بن زهير، ثم أنشد قصيدته المشهورة «بانت سعاد»، التي كثر مخمّسوها ومشطِّروها ومعارضوها وشرَّاحها، وفيها مصنفات منفردة، ومنها: «القول المستجاد في بيان صحة بانت سعاد»، للشيخ إسماعيل الأنصاري، و«توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد»، للشيخ سعود الفنيسان، و«شرح قصيدة بانت سعاد» لابن هشام النحوي المشهور، قال في أوله: «دعاني إلى هذ التأليف: التعرض لبركات من قيلت فيه ﷺ».

(٢) العيس: بكسر العين؛ الإبل البيض يخالط بياضها شيء من شقرة. والمهاري: إبل منسوبة إلى بلاد

حُسْنُ الظنِّ بالبخيلِ مِن خِذْلانِ اللهِ!

ص/ ٣٩٣: «حُسنُ الظنِّ بالبخيلِ لا يَقعُ إلَّا بخِذلانِ اللهِ، والطَّمَعُ فيه لا يَخطُرُ إلا بسوءِ التوكلِ على اللهِ، والرجاءُ لِـمَا في يده لا يَنبغي إلا بَعْدَ اليأسِ مِنْ رحمةِ اللهِ، فإنه يرى أن التقتيرَ هو التبذيرُ، وأن الاقتصادَ هو السرفُ، وأن بني إسرائيل لم يستبدلوا البصلَ بالسلوى إلا لفضل أحلامهم، ويرى أن الصنيعة مرفوعةٌ، والصلة موضوعة، والسخاء من همزاتِ الشياطينِ».

الطبع غلاّب:

ص/ ٣٩٦: «وإني لأتعجبُ كثيرًا مما يَصفون به أبا الأسودِ مِنَ البُخْلِ، معَ طُولِ صُحْبَتِه لأميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والمرءُ مِنْ جليسِه، غيرَ أنَّ الطبيعةَ أغلبُ، والأحوالَ تَختَلِفُ، والعادةَ تَنخرِقُ، والمُسبِّباتِ كثيرًا ما تَتخلَّفُ فَضْلًا عن هذا».

مَحبةُ اللهِ هي الغايةُ

ص/ ٤٠٧: «أدنى ما يكونُ مِنْ فوائدِ الحُبِّ أنَّه يُلطِّفُ ويُنظِّفُ ويُظرِّفُ، ومتى رَقَّتْ طبيعةُ الإنسانِ استعدَّ لقَبولِ المواعظِ الحَسَنَةِ، ومتى قَبِلَها.. تَدرَّجَ في مَعارجِ السَّعادةِ إلى أنْ يَنتهي إلى الغايةِ التي لا أَمَدَ وراءَها، وهي: مَحبَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

المهرة باليمن؛ وهي نجائب تسبق الخيل، ولا يعدل بها شيءٌ في سرعة جريانها. والبيداء: الفلاة والمفازة المستوية تجرى فيها الخيل.

داءٌ عُضالٌ

ص/ ٤٣٧: «حُبُّ الزُّلفى لدى الكُبَراءِ داءٌ عُضالٌ».

بين الراضي والمتسخط

ص/ ٤٥٦: «المتسخطُ ضَيِّقُ العَطَنِ، جَوِيُّ الوَطَنِ، كثيرُ الهمومِ، مَنزورُ السُّرورِ، لا يَلَذُّ له النومُ، ولا يَصفو له اليومُ. بخلافِ الراضي فإنه رابطُ الجَأْشِ، ذاهبُ الإيحاش، رَخِيُّ البال، سعيدُ الحالِ، جَمُّ الانشراحِ، كثيرُ الارتياحِ»[1].

لا يخلو عظيمٌ من الحَسَد

ص/ ٤٦٤: «لا يَخلو عظيمٌ عَنِ الحَسَدِ والامتحانِ، فإن خَلا عَن ذلكَ، فليسَ بعظيمٍ إلَّا على سبيلِ الفَلَتاتِ والشُّذوذِ، وأصْلُه قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: ١١٢]. وأنشدَ مَعْنُ بنُ زائدةَ:

إنَّ العَرانينَ[2] تَلْقَاها مُحَسَّدةً ولَنْ تَرى لِلئامِ الناسِ حُسَّادا

لا كَرامةَ لأحدٍ عندَ مُستَبِدٍّ

ص/ ٤٦٧: «تَأبى نفوسُ المستبدِّينَ أن تَرى لأحدٍ فَضْلًا، وإنما تَميلُ بطبيعتِها للمُتصاغِرين المطبوعينَ على الخِيانةِ، الذين لا يَنفعونَ عندَ ارتباكِ الأحوالِ، واضطرابِ الأهوالِ، ولهذا يُسرِعُ تَقَوُّضُ ممالكِهم في الأوساطِ

---

(١) منزور: أي: قليل.

(٢) العرانين: سادة الناس وأشرافهم.

الحُرَّةِ، وإنَّما تَطولُ في الأُمَمِ المَيِّتَةِ التي أَلِفَتِ الذُّلَّ وأَخَذَتْ عليه، ورَئِمَتِ الهوانَ[1]، واستنامتْ إليه، فَهؤلاءِ الساقطونَ نِعْمةٌ على المستبدِّينَ، من ملوكِ الجَورِ، ولُقْمَةٌ سَائغةٌ لكُلِّ آكِلٍ».

ضَياعُ الفاضلِ بينَ الحُسَّاد

ص/ ٤٦٩: «ما أشدَّ ضَياعَ العالِمِ بينَ الجُّهال، حتى لقدْ قال بعضُهم في قولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١]: لَأَحْبِسَنَّه معَ غيرِ جِنْسِه، والفاضلُ بينَ الحُسَّادِ والمستبدِّينَ أضيعُ من العالِمِ بينَ الجُهالِ بكثيرٍ.. ثُمَّ إنَّكَ لا تَجِدُ أَذِيَّةَ الأحرارِ في الأكثرِ الأغلبِ إلا مِنْ أُولي قرابتِهم، وعَبيدِ نِعْمتِهم، ولله درُّ المتنبي في قولِه:

وأظلمُ أَهلِ الظُّلْمِ مَنْ باتَ حاسدًا ... لِمَنْ باتَ في نَعمائِه يَتقلبُ

الكِتابُ النَّفيسُ خيرُ جليسٍ

ص/ ٤٧٦: «فلقدْ جَرَّبْتُه في نفسي [الكتاب] وَوَجَدْتُ مِنَ الأُنسِ به تَعِلَّةً عَنِ الذاهبِ، وسَلْوةً مِنَ الغائبِ، وزُهْدًا في الخائنِ، وعزاءً عن الحائنِ[2]، وقلتُ مِن قصيدةٍ:

لي غُنْيةٌ بمُناجاةِ الدَّفاترِ عَنْ ... مَن لا يُناسبُني مِن جُمْلةِ الناسِ

قد قلتُ ناسًا ولكنْ ربَّما مُسِخُوا ... في عَينِ كُلِّ بصيرٍ جِيْلَ نَسْناسِ[1]

---

(١) رئمت: أحَبَّتْ.

(٢) الحائن: الهالك.

لا عزَّ إلا في الإسلام

ص/ ٤٨٥-٤٨٦: «العِزُّ كلُّه ليسَ إلَّا في الإسلامِ، الذي رَفَعَ السُّوْقَةَ إلى الـمُلوكِ، وقَايَسَ الغنيَّ بالصعْلوكِ، وأجرى كلَّ إنسانٍ في حُرِّيَّته مِلْءَ رَسنِه، لا يُشترَطُ عليه إلا تَسمُّتُ الأَنظمةِ العادلَةِ، ومراعاةُ القوانينِ الصالحَةِ، التي تَسوغُ لِأدنى الناسِ مَنزلةً أنْ يَطلبَ حَقَّه مِن أعظمِهم قَدْرًا، وإنَّ في خَبَرِهِ ﷺ مع سَوادِ بنِ غَزِيَّةَ يومَ بَدْرٍ، ومعَ عُكَّاشَةَ قُبيلَ موتِه[٢].. لَـمـا يَمْلأُ الأُنوفَ شَمَمًا، ويَأخذُ

---

(١) النَّسْنَاسُ: قِيلَ: هُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَقِيلَ: خَلْقٌ عَلَى صُورَةِ النَّاسِ، أَشْبَهُوهم فِي شَيْءٍ، وخالَفُوهم فِي شَيْءٍ، وَلَيْسُوا مِنْ بَنِي آدَمَ وَقِيلَ: هُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَقِيلَ: دَابَّةٌ فِي عِدادِ الْوَحْشِ. انظر «النهاية في الغريب» وغيره جذر (ن س ن س).

(٢) خبر سواد أخرجه الواقدي في «المغازي» (١/ ٥٦)، وابن إسحاق كما في «تهذيب السيرة» (٣/ ١٧٣-١٧٤)، ولفظه: عدَّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يُعَدِّل به القوم، فمر بسواد بن غزية، حليف بني عدي بن النجار وهو مُسْتَنْتِلٌ [أي: متقدم]، وفي لفظ: مُسْتَنْصِلٌ [أي: خارج من الصف]، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «اسْتَوِ يَا سَوَّادُ» فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقدني. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «اسْتَقِد»، قال: فاعتنقه فقبل بطنه: فقال: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَّادُ؟» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير». وانظر «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» للزركشي (١٦٨).

وأما خبر عكاشة- بضم العين والكاف مشددة ومخففة- فأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ٢٩-٣٦)، في حديث طويل عن جابر وابن عباس.. ثم قال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع مُحَال، كافأ الله من وَضَعَهُ وفتح شَيْن الشريعة بمثل هذا التخليط البارد والكلام الذي لا يليق بالرسول ولا بالصحابة، والمتهم به عبد المنعم بن إدريس.

وأشار إليه الذهبي في «ميزان الاعتدال» فقال: عبد المنعم بن إدريس اليماني. مشهور قصاص، ليس يُعتمد عليه... له عن أبيه، عن وهب، عن جابر وابن عباس خبر في وفاة النبي ﷺ طويل. وأنه دفع القضيب إلى عكاشة ليقتص منه. قال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

بأَعِنَّتِها إلى عَنَانِ السَّماءِ؛ إذْ يَجعلُ كلَّ إنسانٍ لا سُلطانَ فوقَهُ إلَّا للعدْلِ، وإلَّا للهِ الذي لا عِزَّ إلَّا في الذُّلِ له، ولا غِنى إلا في الفقرِ إليه»[1].

مِنْ أحسنِ الدعاءِ!

ص/ ٤٨٦: «وما أحسنَ ما كانَ يدعو بهِ أبو المظفرِ السَّمعانيُّ مِنْ قولِه: اللهمَّ اجعلْ قلوبَنا خزائنَ توحيدِك، وألسنَتَنا مفاتيحَ تمجيدِك، وجَوارحَنا خَدَمَ طاعتِك، فإنَّه لا عِزَّ إلا في الذُّلِ لكَ، ولا غِنى إلا في الفقرِ إليك، ولا أَمْنَ إلا في الخوفِ منكَ، ولا قَرارَ إلا في القَلَقِ نحوَك، ولا رَوحَ إلَّا في النَظَرِ إلى وجهِك، ولا راحةَ إلَّا في الرِّضا بقَسْمِكَ، ولا عيشَ إلَّا في جِوارِ المقرَّبينَ عِندَكَ».

لا تَتَكبرْ ومَنْ فوقَكَ أكبرُ

ص/ ٤٩٠: «أَخبرني السيدُ الثقةُ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ طاهرٍ، عَنِ السُّلطانِ عبدِ الحَميدِ[2]، أنَّه قَلَّما خَرجَ في مَواكِبِه الرَّسْميَّةِ الضَّخمَةِ، التي يَتنافسُ الناسُ فيها على استطلاعِ غِرَّتِه، ويُسافرونَ لِذلكَ مِنَ الجِهاتِ البعيدةِ... إلَّا وقامَ في صَدْرِ عَرَبتِه أحدُ العُلماءِ، يُنادي بأعلى صوتِه، مِنْ حِينِ يَركبُ إلى

ويغني عنه حديث أسيد بن حضير عند أبي داود (٥٢٢٤)، والحاكم (٣/ ٢٨٨)، والبيهقي (٨/ ٤٩)، بإسناد حسن.

وعن أبي سعيد عند أبي داود (٤٥٣٦)، وأحمد (٣/ ٢٨)، والنسائي (٤٧٧٤)، بإسناد حسن.

وعن عمر عند أبي داود (٤٥٣٧)، وأحمد (١/ ٤١)، والنسائي (٤٧٧٧)، بإسناد حسن.

(١) الصعلوك: الفقير. الرسن: الحبل. تسمت: أي: سلوك النهج الرشيد.

(٢) لم أجد ترجمة لابن طاهر. والسلطان عبد الحميد، هو: السلطان الرابع والثلاثون من آل عثمان، عُزل سنة (١٣٢٦)، وتوفي سنة (١٣٣٦) رحمه الله.

حِينِ يَنْزِلُ: المُلْكُ للهِ الواحدِ القهارِ، لا تَتكبرْ، ومَنْ فوقَك أكبرُ. وهذا واللهِ-في ذلكَ الموقفِ الذي يَملأُ العيونَ بجمالِه، ويَمْلِكُ الأفئدةَ بجَلالِه-لـمِمَّـا تَتندَّى له الخدودُ، وتتفطرُ منه القلوبُ».

حَدُّ علاقة الأبناء بالآباء

ص/ ٤٩٩: «ولا شكَّ أنْ لِأَحوالِ الآباءِ علاقةً قويةً بأحوالِ الأبناءِ-صَلاحًا وفسادًا- مِنَ الأَبِ السابعِ فمَنْ دونَه، كما فَصَّلْتُ ذلكَ ودلَّلتُ عليه بالشَّرْعِ وأقوالِ أهلِ الأَدبِ في رسالةٍ لي في علمِ الأخلاقِ»[1].

عدوى خِسَّةِ الأُمِّ على الولد

ص/ ٥٠١ و٥٠٣: «أمَّا خِسَّةُ الأُمِّ فكثيرًا ما تَأخذُ بأبنائِها إلى الحَضيضِ، وإنْ كَرُمَتِ الآبَاءُ.. وأمَّا شَرَفُها فَقَلَّما يُفيدُ إلا بمُساعدةٍ مِن جِهةِ الأَبِ».

استنفادُ الآباءِ مجد الآباء!

ص/ ٥٠٤: «كثيرًا ما يَستفرغُ الآباءُ فروعَ المجدِ والشَّرَفِ، ولا يُبْقُونَ لِأعقابِهم منه إلَّا النَّزْرَ الحَقيرَ، وإنَّ شَرَفَ الآباءِ لا يَنتفعُ به الأبناءُ إلا إذا كانوا منه على طَرَفٍ صالحٍ».

---

(١) لم أقف على هذه الرسالة، والله الموفق والمستعان.

وَصْفُ طِباعِ الملوكِ

ص/ ٥٢١: «طِباعُ الملوكِ أشبهُ بطباعِ الصِّبيانِ، وكثيرًا ما تَرْكبُ الصَّعبَ والذَّلولَ في سبيلِ شَهَواتِ الانتقامِ».

هَيبةُ رسولِ اللهِ ﷺ وتواضعُه

ص/ ٥٣٩: «عن قَيلةَ بنتِ مَخْرمةَ: أنّها جاءتْ تَطلبُ رسولَ اللهِ ﷺ، فَأَلْفَتْه في مسجدِه قد تَوسّدَ ذِراعَه، وعليه الجلالُ الإلهيُّ، والوَقارُ السماويُّ، والعظمةُ الربانيةُ، فأَكْبَرَتْه، وأَخذَتْها رِعْدةٌ منّ الفَرَقِ[1] فقالَ لها ﷺ: «**هَوِّنْي عَلَيْكِ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**»[2] فما أشرفَ هذا التواضعَ الكريمَ، على ذلكَ المقدارِ العظيمِ».

العَلاقةُ بينَ الجَمالَين

ص/ ٥٦١: «جَمالُ الظاهرِ عُنوانُ جمالِ الباطنِ».

---

(١) الفرق بالتحريك: الخوف والفزع.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٣/ ٤٧-٤٨)، وصححه الحاكم، والبوصيري، والألباني، ورجح البيهقي، وابن تيمية والوادعي أنه مرسل، انظر: «دلائل النبوة» (٥/ ٦٩)، «الجواب الصحيح» (٥/ ٤٦٨)، «أحاديث معلة ظاهرها الصحة» (٣٣٠).
القديد: اللحم المملوح المجفف في الشمس، (فعيل) بمعنى مفعول.

عيشُ العُظماء وعيشُ السَّفلة

ص/ ٥٧٣: «نَشْأةُ الهمومِ وتَرادُفُ الغمومِ يُشيرُ إلى كِبَرِ الهِّمةِ وطُموحِ النفْسِ في طَلَبِ العُلا».

ص/ ٥٧٩ «وما زالتْ رِجَالاتُ العِزِّ مُقسَّمةَ الأفكارِ، مُبَلْبلة الخواطرِ، مُنغَّصةَ العيشِ، مِن حيثُ استراحَ صِغارُ النفوسِ، وتَنسَّمَ العيشَ سَفِلَةُ الخَلْقِ ...

ص/ ٥٨١: «إنّما يَبتسمُ الزمانُ لِصِغارِ الهِمَمِ، وباعةِ الذِّمِمِ، وزُمَناءِ المُروءةِ، وخُبَثاءِ النفوسِ».

ص/ ٧٠٤: «الزمانُ لا يَصفو إلا لِسَفِلَةِ الناسِ، ولِئامِ الخَلْقِ، فَهُمُ الذينَ يَستريحونَ مِن حيثُ يَتعبُ الكِرامُ».

الغيث يذكّر بالأحباب!

ص/ ٥٨٢: «وأحبُّ ما يَكونُ إلى العربِ الغَيثُ، فلِهذا يَتذكّرونَ به الأحبابَ، ويحنُّونَ عندَه إلى الأوطانِ، ويَتمنّونه حتى لِرِمَمِهم وأمواتِهم، وإنْ كانَ لا يُسْمِنُهم ولا يُغنِيهم مِن جوعٍ، غيرَ أنّهم يُحبونَ لهم ما يُحبون لِأنفسِهم».

رَدْعُ الشَّيبِ

ص/ ٦٥٣، ٧٤٨: «وكانَ الواحدُ مِن السَّلَفِ إذا بَلَغَ الأربعينَ.. حَمَلَ عَصَا السفرِ، وطَوَى فراشَ النومِ، وأقبلَ على عملِ الآخِرةِ، ومَن لم يَرْدعْه الشَّيبُ عن الغَوايةِ، ولم يَأخذْ بعِنانِه إلى طُرُقِ الهِدايةِ فقد تُوُدِّعَ منه...

ولله دَرُّ لِسانِ الدِّينِ ابنِ الخَطيبِ في قولِه-الذي قلّما أَذْكرُه إلا وخَنَقَني النَّشيجُ، وتَبادرتْ مِن مَحْجِرَيِ القَطَرَاتُ[١]-وهو:

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحًا فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الحُبِّ حَتَّى إذا انْتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

الشَّيبُ مصيبةٌ وعِلّةٌ:

ص/ ٦٥٤: «إنّ مِن لُطفِ اللهِ بعبادِه أنّهم لا يُحِسُّون لِلشَيبِ أَلَمًا؛ لِأنّه لا يَجيءُ إلا تدريجًا، ولِهذا قالوا-ومنهم الشَّعبيُّ-: إنّ الشَّيبَ عِلّةٌ لا يُعادُ منها، ومُصيبةٌ لا يُعزَّى عليها».

الرَّاحةُ في الدنيا مُحالةٌ

ص/ ٦٥٦: «الشَّوطُ بَطينٌ، والدنيا تَعَبٌ، والافتراقُ نَكَدٌ، والعيشُ ضَيِّقٌ، والراحةُ مُحالٌ، ولكنْ ما أحسنَ قولَ الطغرائي[٢]:

أُعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أَرْقُبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحةُ الأَمَلِ

---

(١) تودع منه: أي اسْتُرِيحَ منه وخُذِل، وخُلِّيَ بينَه وبين المَعاصِي، وأصله من التوديع، وهو الترك.
النشيج: أن يغص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب، وقال أبو عبيد: النشيج: مثل بكاء الصبي إذا ضرب فلم يخرج بكاؤه ورده في صدره.
محجري: -بكسر الميم وفتحها وكسر الجيم وفتحها- غار العين المستدير حولها يقال له: المَحْجَر، ويقال في جمعه: محاجر.

(٢) الطغرائي: أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الأصبهاني، المنشئ، الشاعر، ذو باع مديد في الصناعتين، وله «لامية العجم» بديعة.. (ت: ٥١٦)، انظر «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٥٤-٤٥٥)، والبيت في «ديوانه» (٣٠٦).

وكانَ ابنُ الخَطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَستحسنُ قولَ عَبْدةَ بنِ الطَّيِّبِ[1]:

والمَـرءُ سـاعٍ لِأمـرٍ لـيسَ يُدرِكُـه ... والعـيشُ شُـحٌّ وإشـفاقٌ وتأميـلُ

وَمنِ اعتقدَ حالَ الدنيا، وأنّها تَغُرُّ ثُم تَمُرُّ.. يَفرحُ بحُلْوِها، ولا يَجزعُ لِمُرِّها».

حُبُّ الثَّناءِ

ص/ ٦٦٦: «ولا شكَّ أنّ الذِّكْرَ الجميلَ يَهُزُّ الرؤوسَ ويَخلُبُ النفوسَ، ولِهذا سألَه الخليلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قلتُ: يُشيرُ إلى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عن خليلِه إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقد رُوي عن مجاهد بن جبر، وقتادة بن دعامة، وابن أبي نجيح، تَفسيرَ لِسانَ الصِّدقِ بالثَّناءِ الحَسَنِ[2].

عَلامةُ المُستبِدِّ

ص/ ٦٧٠-٦٧١: «المُستبِدُّونَ لا يَميلونَ إلا إلى المَتصاغِرينَ المُتملِّقينَ الأَخِسَّاءِ.. وليسَ هذا بِبِدْعٍ؛ إذ كلُّ مَن كانَ كبيرَ القَدْرِ، جليلَ الخَطَرِ.. تَحومُ عليه غِربانُ الأَحسادِ، وتُفوَّقُ إليه نُبْلانُ الأحقادِ».

---

(١) عبده بن يزيد (الطيب) بن عمرو بن علي، من تميم: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. (ت: ٢٥) تقريبًا. انظر «أنساب الأشراف» (١٢/ ٣٩٢)، «الإصابة» (٥/ ٨٧)، «الأعلام» (٤/ ١٧٢)، «الحيوان» (٣/ ٢٠).

(٢) انظر «تفسير ابن أبي حاتم»، «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، «موسوعة التفسير بالمأثور» [الشعراء: ٨٤]، «الزهد الكبير» للبيهقي رقم (٨٠٩).

صِحَّةُ الوصفِ بقاضي القُضاةِ

ص/ ٦٧٣: «ودُونَ التَّسمِّي بمَلِكِ الأملاكِ التَّسمِّي: بحاكمِ الحُكَّامِ، فإنّه فَضيعٌ، ولكنَّه ليسَ بحرامٍ؛ لِأنّه ليسَ بصريحٍ بل مُحتملٌ، أمّا قاضي القُضاةِ فقد أَطبقَ العُلَماء على استعمالِه».

البَلاغةُ شيءٌ والدِّينُ شيءٌ آخَرُ

ص/ ٦٧٤: «غيرَ أنَ البلاغةَ شيءٌ والدِّينُ شيءٌ آخَرُ.

أغلبُ الشُّعَراءِ لا وَازعَ لهم مِن الدِّينِ، بل يَمُرُّون معَ خَواطرِهم ويَنفُثُونَ بكلِّ ما تُوحِي لهم ضَمائرُهم.

ضَعُفَ شِعرُ بعضِ الصَّحابةِ، بما عَقَدَ مِن ألسنتِهم الحقُّ، بقَدْرِ ما أَطلقَ مِن ألسِنةِ مَن سُواهم الباطلُ.

ولِهذا قِيلَ: أظرفُ الناسِ الزَّنادقةُ؛ إذْ لا يَتقيّدون بشيءٍ مِن حُرمةِ الدِّينِ، بل يَضحكُون بما يَحِلُّ وما لا يَحِلُّ»[1].

---

(١) قال الإمام المعلمي: «الفرقُ بين العشق، والرِّقَّة، والفسق: أن الأول: التعلّق بشخصٍ معيَّن.
والثاني: الميلُ إلى الجمال أينما كان، مع غلبة العِفَّة.
والثالث: الميلُ إلى الجمال حيث كان، بلا عفَّة.
فالمجنون وجميل: عاشقان.
وابن أبي ربيعة والحارث بن خالد: رقيقان.
ولا أحبُّ أن أسمّي أحدًا فاسقًا.
والغالب على الأدباء مدحُ العشق وتفضيلُه، وعندي أن الرِّقَّة أدلُّ على سلاسة الطبع ولطف الحِسّ وصفاء النفس.

لا نفاق في قُريش

ص/ ٦٨١-٦٨٢: «وقد صَانَ اللهُ قُريشًا فِيما سَلَفَ عنِ النفاقِ، فلا تَجِدُ عندَهم إلا كُفرًا صَريحًا أو إيمانًا صَريحًا، أمّا اليومَ فلا تَجِدُ الكذِبَ والغَدْرَ وسُوءَ المعاملةِ وإظهارَ الصَّداقةِ وإضمارَ العَدَاوةِ أكثرَ ما يَكونُ إلا عندَهم، ولا أَعُمُّ سائرَهم في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، وإنّما أَخُصُّ بحُكمِي مَن جرّبتُه مِن أهلِ بلادِنا»[١].

تَجنِّي الملوكِ على عُظماءِ الرجالِ

ص/ ٦٨٣: «عادةُ المُلوك التَجنِّي على عُظماءِ الرجالِ، وافتجارُ العُيوبِ لهم؛ لِتَشفِيَ ضَبابَ حِقْدِها عليهم، بما يقولونَ مِن الحقِّ، مِن حيثُ تَظُنُّ أنّ الناسَ لا يَطَّلِعونَ على سُوءِ نَواياهم، وخُبْثِ غَوَائلِهم، ولا يَعدَمُون مِن عُلماءِ السُّوءِ مَن يُزَيِّنُ لهم ذلكَ، ويُساعدُهم عليه»[٢].

إلا أن العشق يمتاز بالثباتِ وإمكان المحافظة معه على الدين والشرف. والله أعلم». «آثار المعلمي» (٢٤/ ٣٨٧)، وأفاد المصحح أن المعلمي كان قد كتب: «وأبو نواس». ثم ضرب عليه وكتب: « ولا أحبُّ أن أسمّي أحدًا فاسقًا». وهذا من ورعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) قال الإمام أبو العباس ابن تيمية: «إنما ذكر النفاق في السور المدنية، وأما السور المكية فلا ذكر فيها للمنافقين». «منهاج السنة النبوية» (٧/ ٤٧٦).

(٢) افتجر: اختلقَ.

التحري في كلام المؤرخين

ص/ ٦٨٣: «يَجِبُ أنْ نَتحرّى في كلامِ المُؤرِّخين؛ لِأنّهم لا يَكتبُون إلا تحتَ الرَّغْبةِ والرّهْبةِ، أو مُقلِّدونَ لِـمَن يَكتبُ تحتَ ذلكَ التأثيرِ، وهو ما تُعلَّلُ به رِواياتُ الثِّقاتِ، فَضْلًا عَمَّنْ لم يَرِحْ رائحةَ العَدالةِ».

أشرفُ حَنين

ص/ ٦٨٧: «الجِذْعُ الذي تَمكّنَ مِن عِناقِ المَكرُماتِ غيرَ مُدافَعٍ هو الجِذْعُ الذي ضَمَّه ﷺ حِينَ حَنَّ لِفِراقِه، وليسَ جِذْعَ ابنِ بَقِيَّةَ، المسبوقَ بجِذعِ زيدٍ بنَفْسِ الحالةِ!»[1].

حالُ الأغنياءِ مُحيِّرٌ

ص/ ٦٨٩: «وما زِلتُ في إشكالٍ مِن حالِ أغنيائِنا؛ إذ تَفيضُ أكُفُّهُم فِيما لا يَنفعُ، ويَضِنُّون بالتافِهِ اليَسيرِ لَدَى حُسنِ المَوقِعِ... وجُلُّهم لا يَبذِلُ إلا رغبةً أو رهبةً أو استصلاحًا أو إرضاءَ شَهوةٍ، وذلكَ غيرُ مُجزِئٍ حتى في فَريضةِ الزَّكاةِ- على رأيِ بعضِهم- وإنْ رَجَّحَ ابنُ حَجَرٍ الجَوازَ متى كان المدفوعُ إليه بصَفْةِ الاستحقاقِ، وما أحسنَ قولَ الناظمِ [المتنبِّي]:

ولِلـنفسِ أخـلاقٌ تَـدُلُّ على الفَـتى أكـانَ سَـخَاءً مـا أتَى أمْ تَسَـاخِيا

---

(١) يشير إلى صَلْبِ الوزيرِ الجواد ابن بقية على جذع ببغداد، وإلى صلب الإمام الشهيد زيد بن علي على جذع بالكوفة، ينظر للخبرين: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٨٩)، «الوافي بالوفيات» (١/ ١٠٠-١٠٢).

لا يخلو منهما الزّمانُ

ص/ ٦٩٦و٧٠٤: «أمَا اليومَ فقدْ ماتَ الجُودُ وشَمَلَ الجُمودُ، وإنكَ لَترى المُتّسِمَ بسِمَتِه، والمُدَّعِيَ أنّه مِن أُمّتِه.. لَجَديرٌ بقَولِ جَرير:

والتَّغلِبيُّ إذا تَنحنحَ لِلقِرى حَكَّ اسْتَه وتَمثَّلَ الأَمثالا

ولا اعتراضَ على مَن يَقولُ: ماتَ الكِرامُ معَ وُجودِ الأفرادِ مِنهم؛ لِأنّ الحُكمَ لِلأغلبِ، وإلّا فالزَّمانُ لا يَخلو -وإنْ فَسَدَ- عنِ الخَيرِ، كما لا يَسْلمُ -وإنْ صَلَحَ- عنِ الشَّرِ، ولوِ اختَلَّ ذلكَ لفَسَدَ النِّظامُ وسَقَطَ الامتحانُ، وخَرَجَتِ الدنيا عن طبيعتِها، وصارتْ إمّا خَيرًا مَحْضًا كالجَنّةِ، أو شَرًّا مَحْضًا كالنارِ، والناسُ تَشكو قِلّةَ الكِرامِ مِن لَدُنْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلٌّ يَذمُّ زمانَه؛ لِأنّه لا يَصفو إلا لِسَفِلَةِ الناسِ، ولِئامِ الخَلْقِ، فَهُم الذينَ يَستريحونَ مِن حيثُ يَتعبُ الكِرامُ».

التّجلُّدُ لِشامتِينَ

ص/ ٧٠٧: «فتَراه معَ شِدّةِ الضِّيقِ وقِلّةِ الرِّيقِ، يَتظاهرُ بثَباتِ الجَأشِ وذَهابِ الإيحاشِ لم يَثْنِ السِّجنُ مِن شَأْوِه، ولم يَغِضِ الامتحانُ مِن بَأْوِه»[1].

---

(١) بأوه: عظمته ورفعته.

تَرْكُ المِزاحِ تَنكُّبٌ لِطريقِ السَلَفِ

ص/ ٧٣٥: «وترى المُترسِّمِينَ مِن أبناءِ زمانِنا يَتوقَّرون في مَجالسِهم، ويَتنزَّهُون عنْ كثيرٍ مِمَّا يَفعلُه السَّلَفُ الطَّيِّبُ -مِنَ المِزاحِ- وقلوبُهم أفاحيصُ الأحقادِ، وأوكانُ الأحسادِ..»[١].

وقال بعضُهم: لنا في الدُّعابةِ مذهبٌ جميلٌ، يَخرجُ بنا مِن العُبوس، ويُلحِقُنا بأحرارِ الناس، الذين ارتفَقُوا عنِ لِبْسةِ الرِّياءِ، وأَنِفَوا مِن التَّشوُّفِ بالتَّصنُّعِ.

وقال محمدُ بنُ كُناسَةَ:

فيَّ انقباضٌ وحِشمةٌ فَإذا لَقِيتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسي على سَجِيَّتِها وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحتشِمِ

سِرُّ شِدَّةِ مَيلِ الرجلِ إلى المرأةِ

ص/ ٧٤٧-٧٤٨: «معاذَ اللهِ أنْ يكونَ مَيلُ الرجلِ إلى المرأةِ إلا لحكمةٍ عاليةٍ، لم أَرَ مَن نبَّه عليها، وكأنَّها-والعلمُ للهِ جلَّ شأنُه- راجعةٌ إلى صفةِ العدلِ.

وتوضيحُها أنَّ الكونَ -كما قُلْنا غيرَ مرةٍ- لم يتَّسِقْ نظامُه إلَّا بناموسِ[٢] الجاذبيةِ، وهو المحبةُ الصادقةُ ليسَ غيرُ، والإنسانُ سِرُّ هذا الكونِ، فبالحَريِّ أنْ لا يَستقيمَ شأنُه إلَّا بِها، فَهيَ المَقْصودُ الأكبرُ مِن الحياةِ الزَّوجيةِ، بشهادةِ قولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

---

(١) المفحص: مجثم القطاةِ؛ لأنها تفحصه، والوكن: عش الطائر.

(٢) الناموس: القانون الكلي.

بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]، فذلك السكونُ والرحمةُ والمودةُ هيَ التي بها تُتطعَّمُ الحياةُ، ويُستعجلُ النَّعيمُ، وتُتناسى الآلامُ؛ إذ كلُّ لذةٍ في الدنيا دفعُ ألمٍ، سوى ما كانَ مِن أمثالِها، فهي التي بِها يَسهُلُ احتمالُ مَشاقِّ الكونِ المُظلمةِ، وقَطْعُ عَقَباتِه الكأداءِ، والصبرُ على مُوجِعاتِه الكُبرى، ويَتبعُ ذلك استبقاءُ النَسْلِ، ضرورةَ بقاءِ العالمِ إلى أَمَدِه المحدودِ له.

فمِنْ ألطافِه -جَلَّ شأنُه- تركيبُ الشَّهْوةِ التي تَسْتبي الغَيورَ، وتَسْتنزِلُ الوَقورَ، ولا يَخفى ما في طريقِ إرضائِها الذي لا بدَّ منه من الذُّلِ الفاحشِ، الواقعِ على المرأةِ، فعُوِّضَتْ عنه برُجْحانِ الكِفَّةِ لدى ميزانِ الهَوى، وإعلاءِ الدرجَةِ عندَ سلطانِ الحُبِّ ورفعِ المنزلةِ في دولةِ الجمالِ، فهو إذن سرٌّ لطيفٌ محسوسٌ من أسرارِ العدل الإلهيِّ، الذي قامتِ الأرضُ والسماءُ عليه.

ولَئِنْ قيلَ: إنَّه لا يَظهرُ أَثَرُهُ إلا عندَ أهلِ الكرمِ، وقليلٌ ما هُمْ.. قلنا: هُمُ المقصودونَ وإنْ قلُّوا، ولا عِبرةَ بِمَن سُواهم، وإن جَلُّوا؛ إذْ هُمْ بالعَجْماواتِ أشبهُ، لا يَعرفون العِزَّ ولا الهُون، ولا العاليَ ولا الدُونَ...

فيَتلخَّصُ منه: أنَّ المَحبةَ سرُّ الأسرارِ، وأنَّ أفضلَ مظاهِرِها الحياةُ الزوجيةُ، وأنَّ ما يَلحقُ المرأةَ مِنَ المهَانةِ بالصورةِ فيما يَتولدُ مِنْ بعضِ دواعي الحُبِّ لِبقاءِ النَّسْلِ.. تُعوَّضُ عنه في شَرْعِ الهَوى، بأنْ تكونَ مَالكةً لا مملوكةً، وحاكمةً لا محكومةً، وغالبةً لا مغلوبةً، والكرَامُ في ذلك مُساقون بسَوقِ الطبيعةِ،

ومَوكولون فيه إلى الداعيةِ، ومَنْ سِواهمْ وإنْ كانوا دَهْماءَ الناسِ[١]، والسَّوادَ الأعظمَ.. فإنَّهم لا عِبرةَ بهم، وفي الأحكامِ الشرعيةِ ما يكفي للتناصُفِ بينَهم، وتوفيةِ المرأةِ ما امتازتْ به من حقوقِ الخِدْمةِ، والمُؤْنة، والنفقةِ، والكفالةِ، وغيرِ ذلكَ».

تفسيرٌ بَديعٌ لِخِطابِ سليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للهدهدِ

ص/ ٧٤٨-: «ومِن شريفِ تواضعِ نبيِّ اللهِ سُليمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما قَصَّ اللهُ علينا خَبرَه مع الهُدهُدِ؛ إذ قال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، فإنه كان يَفتحُ القلوبَ الغُلْفَ، والآذانَ الصُّمَّ؛ إذ لا تَجِدُ أرقَّ ولا أبدعَ مِن الإفصاحِ بنِسبةِ الصدقِ إليه، حتى كأنَّه الصادقُ وَحدَه في عسكرِهِ، ولمَّا كانَ الكَذِبُ.. لم يَجْرِ فيه على مُقتضَى السِّياقِ مِن الخِطابِ، بلِ التفتْ وقال: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ولم يقلْ: أم كَذَبْتَ؛ رِفقًا به، وحَنْوًا عليه، كي لا يَتفطرَ قلبُه، وتَنشقَ مَرارتُه، مِنْ هَولِ نِسبةِ الكَذِبِ إليه، ولكنَّه قالَ له ما معناه: إنْ صدقْتَ.. فهيَ فضيلةٌ، كأنكَ المنفردُ بها، وإن كذبتْ فكثيرٌ مثلُك، وهذا واللهِ ما يَهُزُّ النفوسَ، ويُقيمُ الشُّعورُ، ويَنفُذُ في القلبِ، ويَستهوِي الخواطرَ، ويُذيبُ الحجارةَ، وإنه لَمِنَ المُعجِزِ الذي تَزِلُّ الفُصَحاءُ عن مَرقاتِهِ، ولا بِدْعَ؛ فالالتفاتُ هو المقامُ الذي تَتفاوتُ به الطَّبَقاتُ».

---

(١) الدهماء: عامة الناس وجهلتهم.

الفرق بين العز والكبر، والتواضع والملق

ص/ ٧٤٩: «ومِن الجُهَلاءِ مَنْ يَلتبسُ عليه العِزُّ بالكِبْرِ، والتواضعِ بالمَلَقِ، فَتجِدُ صاحبَ العزةِ يُكلِّمُ الفقيرَ، ويُلاطفُ الصغيرَ، ويجالسُ المساكينَ، ويَخضعُ للحقِّ، ويَستكينُ إذا جالسَ الأمراءَ.. فهو أميرٌ، وإذا حَضَرَ الكُبَراءُ فهو كبيرٌ...لا يترددُ على الأبوابِ، ولا يُدهِنُ، ولا يَهابُ، ولا يَجري خَلفَ الآمالِ، ولا يَتبعُ مراضيَ أهلِ المالِ، وآيتُه أنْ تجِدَه مبغوضًا لدى أهلِ النَخوةِ والشَرفِ، محبوبًا عندَ أهلِ الضَعفِ والعقلِ[١].

وأما صاحبُ الكِبْرِ: فتجِدُه غامطًا للحقوقِ، غارقًا في العُقوقِ، لا يَقابلُ الناسَ إلَّا بالأَنفَةِ، ولا يُكلِّمُهم إلَّا مِن أطرافِ الشَّفَةِ، لا يَعرفُ لأحَدٍ قَدْرَه، ولا يَقبلُ مِن مُسيئٍ عُذْرَه، لكنَّه يَتواضعُ لَمِنْ فوقَه بمقدارِ ذلك ووَزْنِه، فإذا مَثُلَ أمامَ الكُبَراءِ، أو حضرَ عندَ الأمراءِ.. نَزَلَ عَن سماءِ تلك الرِّفعةِ، وانحدرَ عن قُلَّةِ تلك العَظَمةِ[٢]، وذلك دليلٌ على أنَّه من ألأمِ الناسِ نفْسًا، وأسقطِهم هِمَّةً، وأزمَنِهم ذِمَّةً...

ومتى رَسَخَ الكِبْرُ في الإنسانِ استخدمَ مَنْ قَدَرَ عليهِ مِنَ الخَلْقِ في قضاءِ شَهْوتِه، وتنفيذِ إرادتِه، ورَأى أنَّ الصوابَ ما تُمثِّلُ له نفسُه، وأنَّ العقولَ لم ترجَّحْ إلَّا لِموافقةِ مَشْربِه، وهذا حالُ سائرِ المستبدِّينَ ومِن علاماتِهم أنْ تجِدَ أهلَ العلمِ أبغضَ ما يكونُ إليهم».

---

(١) كذا في الكتاب: (العقل)، ولعله (والجهل)؛ ليستقيم المعنى ولا يتناقض.

(٢) قلة العظمة: أي: أعلاها.

أسبابُ بُغْضِ المستبدِّينَ لأهلِ العلم

ص/ ٧٥٠: «**أما أولًا**: فلِأَنَّ العلمَ يَهُدُّ مِن بِنائِهم، ويَحُطُّ مِن كِبْريائِهم، ويَغُضُّ مِن عِنانِهم، ويُعرِّفُ بطغيانِهم.

وأما ثانيًا: فإنهَّم يُبغضونَهم بالطَبعِ[1] لذاتِه، حيثُ إنَّ له سلطانًا أقوى مِن كلِّ سلطانٍ، ولا بدَّ للمستبدِّ أنْ يَستحقرَ نفسَه، ولو في سِرِّه، كُلَّما وَقَعَتْ عَينُه على مَن هو أرفعُ سلطانًا منه، فتراه لا يُحبُّ أنْ يَرى وجهَ عالمٍ شريفٍ حرٍّ قَطُّ، بل يَسعى جَهدَه في إسقاطِ قَدْرِه، والتَقوُّلِ عليه، وإلصاقِ المعايبِ به، وابتغاءِ العَثَراتِ في طريقِه، فإنِ اضْطُرَّ إلى العلمِ أحيانًا.. اختار المُتصاغرَ المتحذلِقَ الدنيءَ:

لأنَّه أولًا: يُعرفُ نَقْصَه وانحطاطَه، فلا يجدُ فيه مِن طلائعِ المجدِ ما يُنغِّصُ عليه، ولا ما يُثيرُ حَسَدَه.

ولأنَّه ثانيًا: يَملأُ رِضاه، ويسارعُ في هواه، بخلافِ الأولِ.

ولأنَّه ثالثًا: يَتخذُ منه مثالًا لِتَحْقِيرِ العلماءِ إذا تظاهرَ بعدمِ المبالاةِ به، وأَلحقَه بحاشِيتِه، وأَدخلَه في غَمرَةِ أتباعِه، وأمثالُ هؤلاءِ المستبدِّينَ والمتكبرِينَ واجبٌ على أهلِ الإيمانِ احتقارُهم وهَجْرُهم، والتَكَبُّر عليهم».

---

(١) أي: فإنهم يبغضونهم -طبعًا- لذات العلم.

أحقُّ الناس بالسلامة من العيوب

ص/ ٧٥٩: «أما دَعواه [المتنبي] لممدوحِه بَراءةَ الجَيبِ مِن العَيبِ.. فأولى الناسِ بذلكِ سيدُ الوجودِ وأفضلُ مولودٍ، فقد أخذَ [أحدُهم] في خَلْوتِه يُردِّدُ قولَ الحَريريِّ:

مَـــن ذا الذي مـــا ســـاءَ قَـــطْ ومَـــن له الحُســـنى فَقَـــطْ

حتى سَمِعَ هاتفًا يقولُ:

محمـــــدُ الهـــــادي الذِي عليـــــه جِبريـــــلُ هَـــــبَطْ

العبرة بالأغلب

ص/ ٧٥٩: «العِبرةُ بالأكثرِ الغالبِ مِن أحوالِ الإنسانِ، فمَن غَلَبَ عليه الخيرُ والفضلُ.. عُدَّ مِن الأخيارِ الفُضلاءِ، وتُنُوسِيتْ مَساوِيه في جَنْبِ محاسنِه ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾».

المفاضلةُ بينَ القلمِ والسيفِ

ص/ ٧٦٧-٧٧١: «حَسْبُ القلمِ شَرفًا أنَّ اللهَ نَوَّهَ بذِكْرِه، وامتنَّ بتعليمِه في قولِه: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق: ٣ - ٤]، وأَقسمَ به فقالَ: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١] وهذا رسولُ الله ﷺ ما رأيناه يفتخرُ بعلمٍ قَطُّ سُوى حُسْنِ البَيانِ، فقال: «**أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**»[1]، وقال: «**أَنَا أَفْصَحُ مَنْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٧٣)، ومسلم (٥٢٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نَطَقَ بِالضَّادِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ» [(١)] وبَيْدَ هنا بمعنى مِن أَجْلِ..

والمفاخرةُ بينَ السيفِ والقلمِ تَطولُ، وقد أُلِّفتْ لها الرسائلُ الضافيةُ الذيولِ.

والصوابُ التفصيلُ فعندَ القُوةِ والنُفوذِ فالسُيوفُ هي الخَدَمُ، وأما عندَ الضَّعفِ والعجْزِ.. فلا خُفَّ للأقلامِ ولا قَدَمَ... وهذا بالنِّسبةِ لمُجردِ النُّفوذِ والتَّشرُّفِ، فأمَّا إذا نَظَرْنا إلى ما يَتبعُ القلمَ مِن موادِّ العلمِ.. انقطعتِ النِّسبةُ واتضحَ الفَرْقُ».

انكسارٌ أمامَ البلغاءِ:

ص/ ٧٧٤: «وإني لأُحِسُّ بانكسارٍ عظيمٍ في نفسي كُلَّما نَظرْتُ في كُتُبِ الجاحظِ، أو ابنِ المُقَفَّعِ، أو رسائلِ القُدَماءِ ومراجعاتِهم، أو تَرسُّلِ لسانِ الدِّين ابنِ الخَطيبِ، أو عباراتِ السَّعْدِ أو الغَزالي».

سَعَةُ الصدرِ آيةُ السعادةِ

ص/ ٧٨٠: «ولا يَخفى أنَّ سَعَةَ الصدرِ آيةُ السُؤْدَدِ، وسُلَّمُ الشرفِ ... وانتهتْ بموسى الأمانيُّ عندَ قوله: ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: ٢٥] وما طَلَبَه

---

(١) لا أصل له. قاله ابن الجوزي، وابن كثير، والزركشي، وابن حجر، وابن الشحنة، والعراقي، وابن الجزري، والسخاوي، وبكر أبو زيد. وقال ابن كثير: معناه صحيح. «المدخل إلى علم السيرة النبوية» لراقمه.

موسى أُعْطِيَه نبيًّا صلواتُ اللهِ عليهم مِن غيرِ سؤالٍ، فقال له ربُّه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] وجَعلَه مع ذلك أفصحَ الناسِ».

وضْعُ المعروفِ في محلِّه

ص/ ٧٨١: «لا يُفيدُ الكرمُ والعفوُ إلا معَ أهلِه، مِمَّنْ يقودُهم الإحسانُ بخِزامِه، ويَقتلُهم العفوُ بحُسامِه، قالَ الناظمُ [المتنبي]:

وما قتَلَ الأحرارَ كالعفوِ عنهمُ ... ومَنْ لكَ بالحرِّ الذي يَحفظُ اليَدا

وقال:

وأحلُمُ عن خِلِّي وأعلَمُ أنَّهُ ... متى أَجْزِهِ حِلْمًا على الجهلِ يَنْدمِ

أصلُ نَكَباتِ التاريخِ

ص/ ٧٨١: «لم أَرَ نَكْبةً لها في التاريخِ ذكرٌ إلا كانَ أصلُها مِن اصطناعِ المعروفِ إلى اللئامِ، حتى لقد ذكرتُ في مقالٍ نافعٍ[1] أكثرَ مِن أربعينَ واقعةً، كُلُّها يَصلحُ شاهدًا لِمَا أقولُ، منها قولُه جَلَّ شأنُه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]. إذ لم يَغِشَّ[2] على

---

(١) وا لهفي على هذا المقال، أين ذهب؟! فقراءة أخبار اللئام مع الكرام تخفف الآلام من كنود الطغام، حينما يُعرف أن الشنشنة قديمة! وينظر في هذا الباب: «تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب»، لابن المرزبان (ت: ٣٠٩)، وله كتاب آخر اسمه: «من أقام على المودة والوفا ولم تدعه نفسه إلى الغدر والجفا»، ذكره ابن ناصر الدين الدمشقي في «توضيح المشتبه» (٨/ ٧٨).

(٢) هكذا في الكتاب: (يَغِشَّ)، ولعل الصواب (لم يفش) من الإفشاء.

موسى إلا الإسرائيليُّ الذي نَصَرَه بالأمسِ! وقد جَرَّبتُ ذلكَ في نفسي، وقانا الله شرَّ مَن أحْسَنَّا إليه. وصَدَقَ سفيانُ الثَّوريُّ في قولِه: «ما وجَدْنا أصلَ كلِّ عَداوةٍ .. سُوى اصطناعِ المعروفِ إلى غيرِ أهلِهِ»(١).

وقد قال زهيرٌ:

ومَنْ يَفعلِ المعروفَ في غيرِ أهلِه ... يَعُدْ حَمْدُه ذماً عليه ويَنْدمِ

وقال بعضُ الأعرابِ:

وَمَنْ يَفْعَلِ المَعْرُوفَ في غَيرِ أَهْلِهِ ... يُجازَى كَما جُوزِي مُجِيرُ امِّ عَامِرِ

بَرَاهَا وَرَبَّاهَا فَلَمَّا تَمَكَّنَتْ ... فَرَتْهُ بأَنْيَابٍ لَهَا وأَظَافِرِ(٢)

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٩٠).

(٢) أُمّ عَامِرٍ كنية الضبع، وكان من حديث مجيرها أن قومًا خَرَجُوا إلى الصيد في يوم حارٍّ، فإنهم لكَذَلك إذ عَرَضَتْ لهم أُمُّ عامرٍ، وهي الضبع، فطَرَدُوها وأتبعتهم حتى ألجؤها إلى خِباء أعرابي، فاقتحمته، فخرج إليهم الأعرابي، وقَال: ما شأنكم؟ قَالوا: صَيْدُنا وطَريدتنا، فَقَال: كلا، والذي نفسي بيده لا تصلون إليها ما ثَبَتَ قائمُ سيفي بيدي، قَال: فرجَعُوا وتركوه، وقام إلى لِقْحَةٍ فحلَبَهَا وماءٍ فقرب منها، فأقبلت تَلِغُ مرةً في هذا ومرة في هذا حتى عاشت واستراحت، فبينا الأعرابي نائم في جَوْف بيته إذ وثَبَتْ عليه فبَقَرَتْ بطنه، وشربت دَمَه وتركته، فجاء ابن عم له يطلبه فإذا هو بَقِيرٌ في بيته، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها، فَقَال: صاحبتي والله، فأخذ قوسه وكِنانته وأتبعها، فلم يزل حتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول..

وَمَنْ يَصْنَعِ المَعْرُوفَ مَعْ غَيرِ أَهْلِهِ ... يُلَاقِ الَّذي لاَقَى مُجِيرُ امِّ عَامِرِ

أدامَ لها حِينَ استَجَارَتْ بقُرْبِهِ ... لها مَحْضَ أَلبَانِ اللقَاحِ الدَّرَائِرِ

وَأَسْمَنَهَا حَتَّى إِذَا مَا تَكَامَلَتْ ... فَرَتْهُ بأَنْيَابٍ لَهَا وَأَظَافِرِ

فَقُلْ لِذَوِي المَعْرُوفِ هَذَا جَزَاءُ مَنْ ... بَدَا يَصْنَعُ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ شَاكِرِ

«مجمع الأمثال» (٢/ ١٥٢).

أثر الكلام على الكرام

ص/ ٧٨٦: «الكريمُ هو الذي يَتأثَّرُ بالكلامِ، ويَهرُبُ مِن المَلَامِ، وقدْ قالَ جَلَّ شأنُه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] وذلكَ أنَّ المؤمنَ لا يكونُ إلَّا كريمًا، والكريمُ يَنفعلُ بالكلامِ، ولا سِيَّما إذا كانَ بليغًا، ولهذا استحبُّوا البلاغةَ في الخَطَابةِ، وحَسْبُكَ أنَّ كثيرًا مِنْ ظَلَمَتِهم وجَبَّاريهم يَحقِنُ الدِّماءَ الغَزِيرَةَ لكَلِمَةٍ تَملأُ سَمْعَه مِن الشاعرِ، فأمَّا الآنَ فقدْ ذهبتِ العُروبيةُ، بلْ انمسخَتِ الإنسانيةُ، قال ابن الرومي:

أَرَى النَّـاسَ مَخْسُـوفًا بِهِـمْ غَـيْرَ أَنَّهُـمْ عَلَى الأَرْضِ لَمْ يُقْلَـبْ عَلَـيْهِمْ صَعِيدُهَا

وَضْعُ المدحِ في غيرِ مَحلّه مِن الكبائر!

ص/ ٧٨٩-٧٩١: «إنَّ وَضْعَ المدحِ في غيرِ مَحلِّه مِن كبائرِ الذنوبِ، وقبائحِ العُيوبِ، جِنايةٌ على العلمِ، وإهانةٌ للأدبِ، وانغماسٌ في المَهَانةِ، وتَدَسُّسٌ في النَّذالةِ، وتعلقٌ بالكَذِبِ، وأَخْذٌ بمجامعِ النفاقِ.

وقد قال زهيرٌ:

وإنَّ أصـــدقَ بيـــتٍ أنـــتَ قائلُـــه بيـــتٌ يقـــالُ إذا أنشـــدته: صَـــدَقا

ولقدْ كانَ الشِّعرُ غاليَ القِيمةِ عندَ العربِ، لا تَضَعُه إلَّا عندَ مَن يَستحِقُّه، ولا تَجودُ بالمدحِ منه إلَّا عَن دافعٍ قَويٍّ، كأنْ لا تَجِدَ ما يَقومُ بالمُكافأةِ سُواه على جَلائلِ الصنائعِ..

وكثيرًا ما نَجِدُ الشاعرَ يَشتكي تقصيرَ ممدوحِه بِه، وفي طَيِّ ذلكَ الاعترافُ بدَناءةِ الهِمَّةِ، وزَمانةِ المُروءةِ، وإلَّا.. فلو كانَ حُرًّا.. لأَكرمَ نفسَه وأَدَّبَها عنِ امتداحِ مَن لا يَعرفُ مقاديرَ الكلامِ، إذنْ فلم يَفعلْ به الممدوحُ إلَّا ما هو أهلٌ له مِنَ الاحتقارِ، والاطِّراحِ.

وفي خَبَرِ الحُطيئةِ المشهورِ أنَّه قالَ وهو يَجودُ بنفْسِه: لا أَجزَعُ على شيءٍ، جَزَعي على جَيِّدِ المديحِ يُوضعُ فيمَنْ ليس له بأهلٍ».

المعاني الظاهرةُ مُشتركةٌ

ص/ ٧٩٩: «لا يُمكِنُ إطلاقُ السَّرِقةِ على المعاني الظاهرةِ؛ لأنَّ الأفهامَ تَعْتَوِرُها، وتَتواردُ عليها الخواطرُ، فهي مُشاعةٌ بينَ الناسِ، كالتشبيهِ بالبحرِ، والأَسدِ، وما في حُكمِها مِنَ المُخترعةِ في البَدْءِ، المُنتشرةِ فِيما بَعدُ.. مما تَجاذَبَتْه الأيدي، وتَعاوَرَتْه الأفكارُ».

خاتمةُ العُودِ الهنديِّ

ص/ ٧٩٢: «ولما انتهى قارئ الدِّيوانِ علينا إلى هُنا.. أَخَذَه الحِرَانُ، واشتغلَ بالقِرَانِ، وعسى أنْ يَعودَ عسى، وقديمًا قِيلَ: ذُبِحَ العلمِ على أفخاذِ النساءِ. فَساقَ الله الخيرَ إليه، وبارَكَ له، وبارَكَ عليه، وجَمَعَ له التَّهاني، وبَلَّغَه غاياتِ الأماني، وإيانا وأولادَنا، آمين. وصلَّى اللهُ على سيدِنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِه وسَلَّم»[1].

---

(١) الحران: يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها، والمراد هنا: التقصير عن مسابقة غيره.

وفي ص/٨٠٨: «لمَّا ألقيتُ القلمَ عِشاءَ مساءِ الليلةِ (١٧/من جُمادَى الأُولى سَنَةَ (١٣٥٢)، كما هِيَ العادةُ، تكونُ القراءةُ والكلامُ عليها بما يَحضُرَ عَشيَّةً، ثمَّ أخْلُو بنفْسي ساعةً مِنَ المساءِ، أُقَيِّدُ فيها ما يكونُ، وحِينئذٍ وقد قَرَأتُ وِرْدِي، وأَخَذْتُ مَضْجعِي، وَقَعَ نَظَرِي على السماءِ، وزينتِها بالنجومِ الزاهرةِ، وما فيها مِنَ الآياتِ الباهرةِ.. اسْتَغرقَ فِكْرِي، واستَجمَعَ ذِكْرِي، وانطلقتِ لساني بِبَيتٍ مرَّ ذِكْرُه في المجلسِ العاشرِ، لتَقيِّ الدِّينِ ابنِ تيميَّةَ، وهُوَ قولُه:

والفَقْـــرُ لي وَصْـــفُ ذاتٍ لازمٌ أبـــدًا كَمَـــا الغِـــنَى لـــكَ وَصْـــفٌ لازمٌ ذاتي

القران: لعله أراد الزواج؛ لما بعده، وربما أراد بالقِرانُ: الحَبْلُ الَّذي يُقْرَن فيه البعيران، وفيه كناية عن الارتباط بأمور عديدة.

وذبح العلم .. ليس بحديث، وفي معناه: ضاع العلم، وهو من نحو كلام بشر الحافي. قاله العجلوني في «كشف الخفا» (١٦٣٦).

المُنتَخَبُ مِن كتاب: بَلابِلِ التَّغريدِ فيما استفَدناهُ أيامَ التجريدِ

المرادُ بالتجريدِ: «التجريدُ الصريحُ لِأحاديثِ الجامعِ الصحيحِ» ألَّفَه العلَّامةُ أحمدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ اللطيفِ الشَّرْجِي الزَّبيدي (ت: ٨٩٣)، ويُسمَّى: «مُختصَرُ صحيحِ البُخاريِّ»، حيثُ جَرَّدَ «أحاديثَه مِن غيرِ تكْرارٍ، وجَعلها محذوفةَ الأسانيدِ؛ ليَقرُب انتوالُ الحديثِ مِن غيرِ تَعَبٍ».

فَعَقَدَ السَّقافُ مجالسَ شَرحٍ لهذا الكتابِ بمسجدِ طه، ومجالسَ أخرى بِمَنزِلِه، كلاهما في بَلْدتِه: مدينةِ سَيئُونَ، بديارِ حَضرموتَ!

فَجَاءَ هذا السِّفْرُ النَّفيسُ، باسمِه المُطْرِبِ: «بَلابلُ التَّغريدِ فيما اسْتَفَدْنَاهُ أيَّامَ التَّجْريدِ»:

بَلابِل: جمع بُلْبُل: طائرٌ صغيرٌ حَسَنُ الصَّوتِ مِن فصيلةِ الجَواثِمِ، يُضربُ به المَثَلُ في حُسْنِ الصَّوتِ ويُشَبَّهُ به الشّعراءُ..

قال أبو نُوَاسٍ في الأَصْمَعيِّ: بُلْبُلٌ في قَفَصٍ يُطْرِبُهم بِنَغَمَاتِه.

التَّغريدُ: قال الأَصْمَعيُّ: يقال للرجلِ إذا رَفَعَ صوتَه وطَرَّبَ غرّد يغرِّد تغريدًا. وقد غَرَّدَ الحادي إذا طَرَّبَ في حُدائِه يُغرِّد تغريدًا. قال امرؤ القَيْسِ:

يُغَـــرِّدُ بالأســـحارِ في كلِّ مَرْتَـــعٍ تَغَـــرُّدَ مِـــرِّيحِ النَّـــدامى المُطَـــرِّبِ[1]

---

(١) «البارع في اللغة»، «شمس العلوم»، «لسان العرب»، «تاج العروس»، «معجم اللغة العربية المعاصرة»، مادة: (ب ل ب ل)، ومادة: (غ ر د).

هكذا سَمَّى السَّقافُ كتابَه، الذي يَشهدُ بقَوةِ استنباطاتِه، وعُمْقِ نَظَرِه، وغَوْرِه في دقائقِ العلمِ، مع سَعَةِ اطِّلاعٍ، وذِهْنٍ وَقَّادٍ، ولسانٍ بليغٍ، وتَجديدٍ في الشَّرْحِ، وإرفادٍ في الطَّرْحِ، فلم يكنْ كتابُه هذا مادةً مكررةً، ومِنْ شُروحِ البُخَارِيِّ منقولةً، بل جاءَ بالعَجَبِ، فأفادَ وأطربَ..

فهو يَحشُرُ في شرْحِ الحديثِ الواحدِ: الآياتِ والأحاديثَ، ولطائفَ الأخبارِ، ورقائِقَ الأشعارِ، وطرائفَ الفوائدِ، وتليدَ الفرائدِ..

كل ذلك بلغة عذبة ممتعة؛ لأنَّه ضَليعٌ في اللغةِ الشَّريفةِ؛ مَلَكَ ناصِيتَها، واستوعبَ مَعَاجِمَها، معَ أنَّه عاشَ في وِهادِ حضرموتَ النائيةِ القاحلةِ، بينَ عَامَّةٍ لا تكاد تَرفعُ للفُصحى رأسًا، ولا تَسمعُ لها فيها رِكْزًا..

وهو أيضًا شاعرٌ فَحْلٌ، يَنظِمُ غُرَرَ الشِّعرِ في جَزالةِ لَفْظٍ، وعُمْقِ مَعنى!

وقبلَ ذلكَ فهو فقيهٌ شافعيٌّ محققٌ، يَصولُ ويجولُ فيُضَعِّفُ ويُرجِّحُ، ويَردُّ ويَصحِّحُ، قَلَمُه حُرٌّ، وفِكْرُه طليقٌ، لا يَخبو نَجْمُه، ولا يَكبو قَلَمُه، في إحقاقِ ما يَراه حَقًّا، وإبطالِ ما يراه باطلًا، غيرَ آبِهٍ بأَحدٍ في المُخالَفةِ، مع إجلالٍ وإنصافٍ!

وإنَّ الأَسَفَ لَيَتعاظمُ حِينمَا تَعلمُ أنَّ «بَلابلَ التَّغريدِ» مِن ثلاثةِ أجزاءٍ، ولكنْ لم يُطْبعْ منه إلَّا الجُزْءُ الأَوَّلُ فَقطْ، ولعلَّ جُزْئَيهِ الآخَرَينِ لَقِيا مصيرَ بعضِ كُتُبِهِ التي أَرسَلَها لبعضِ مُحبِّيه لِيَطْبَعَها، فَطَواها.. وفي رُفُوفِ مكتبتِه وَضَعَها!!

ولَرُبَّما هما يَقْبعانِ الآنَ في مكتبةٍ انْتَقَلَ صاحِبُها إلى بارِئِه، وخَلَّفَ مَن لا يُنَقِّبُ عَن كُنوزِ أسلافِه، فيَنشُرَها، والأملُ باقٍ بأنْ يَنهضَ أهلُ الهِمَمِ إلى البحثِ عنها، وإخراجِها للناسِ..

وأولُ مَن يُعَلَّقُ بِهم حَبْلُ الأَمَلِ -بعد الله عزوجل- هم أحفادُه -وفقهم الله[١]؛ ففي ذلكَ مِنَ البِرِّ بِجَدِّهم ما تَضيقُ به هذه العُجالةُ، والله المُوفِّقُ والمُستعانُ.

والآنَ أَنقُلُ لكَ خُطْبَةَ السَّقافِ يُبيِّنُ فيها سَبَبَ تأليفِه لكتابِه هذا، ومَنْهجَه في شرحِه، وعَزْمَه على طَبْعِه لولا ضَعْفُ الساعدِ وقِلَّةُ المُساعدِ:

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحمَدُكَ اللَّهُمّ فاتحَ رِتَاجِ المعارفِ، ومَانحَ نِتاجِ العَوارفِ، عائذينَ بك مِنَ الصَّوارفِ، مُتعرِّضينَ لنَفَحَاتِكَ الذَّوارفِ، ونُصلي ونُسلِّمُ على نبيِّك خيرِ مَنْ رَكِبَ الشَّوارفَ، وأفضلَ مَنْ انكشفتْ بهديِه الفِتَنُ الجَوارفُ، وعلى آلِه وصحبِه الذينَ تَفيَّأوا بِظلِّهِ الوارفِ، ما لَحَظَتِ الطَّوارفُ، وَوَخَدَتِ الغَوارفُ[٢].

أمَّا بعدُ: فهذا ما فَتَحَ اللهُ به عندَ إقراءِ التَّجريدِ سنةَ (١٣٥٢) وذلكَ أنَّني أَختصُّ بالكلامِ في آخِرِ كلِّ مجلسٍ لِـمَا يَعِنُّ لنا فيه مِنَ الإشكالاتِ مِنَ الأحاديثِ بِهَيئةِ الإملاءِ، مِنْ غير تَحفُّظٍ ولا احتياطٍ، ولا هِيَاطٍ ولا مِيَاطٍ، لهذا اجتمعَ به الغَثُّ والسمينُ، والرَّثُّ والثَّمينُ، والجِدُّ والهَزْلُ، والوَقْشُ والجَذْلُ، وتلاقتِ الفُنونُ، وانتشبتِ الغُصونُ، ولم يحضُرْنا إذ ذاك شيءٌ مِنَ المَظَانِّ، سُوى شَرْحِه بِهَامِشِ «نَيْلِ الأوطارِ» وهما لا يتسايرانِ، فأرسلْتُ الفِكْرَ جرى الفرسُ

---

(١) والثناء مبذول لحفيده الفاضل وسبطه الموقر: علي بن محسن بن علوي السقاف، على جهوده في إخراج بعض كتب جده، رحمه الله تعالى.

(٢) رتاج: أبواب. مانح: معطي. نتاج: ثمار. العوارف: جمع عارفة، وهي الجود والإحسان والعطايا. الذوارف: السائلة السريعة. الشوارف: الإبل المُسِنَّة. الوارف: الممدود. لحظت: أبصرت. الطوارف: العيون. وخدت: أسرعت في السير. الغوارف: جمع غارفة. الإبل؛ كأنها تغرف الجري غرفًا.

مِلءَ فروجِه، وألقيتُ له العِنانَ في هُبوطِه وعُروجِه، ولم أشعُرْ وقد افتكَّ عني القَيْدُ، إلَّا وقد استضرى عليَّ الصَّيدُ، وكان قد لُخِّصَ في أوراقٍ متكاثرةٍ، ومُسَوَّدَاتٍ متناثرةٍ، وكنتُ أَشرْتُ بتبييضِها على حالِها، ثم أَرْحَبْتُ النَّظَرَ في بعضِها، فإذا الوَهَنُ دخونٌ، وبالحفظِ يخونُ، فلو بَقِيَتْ على ما هِيَ عليه مِنَ العِثارِ لكانتْ من أسوءِ الآثارِ، وليس الخَطْبُ فيها مِثْلَه في كتابِنا «العُودِ الهِنديِّ» إذ أبقيناه على عرِّه، وطَوَيناه على غُرِّه؛ لأنَّه أَدَبٌ خالصٌ، والعذرُ في ذلكَ مُوضَّحٌ هنالِكَ، بخلافِ هذا، لِتعلُّقِه بالتحليلِ والتحريمِ، وكمْ في الجُرْأةِ عليه من تحذيرٍ في الكتابِ الكريمِ، ودَنْدَنتِه حولَ الحديثِ[1]...

ولِيْ في الموضوعِ رسالةٌ سَمَّيتُها: «سِمْطَ الدُّرَرِ في الذَّبِّ عَن حديثِ خَيرِ البَشَرِ»[2].

---

(١) هياط: إصلاح. مياط: تنقية. ولهما معانٍ أخر، ولكن هذين الأطبق بالسياق.. والعلم لله.
الرث: البالي من كل شيء. الوَقْش: صغار الحطب، والجزل: ما عظم من الحطب. انتشبت: اجتمعت.
مِلءَ فروجه: تقول العرب جرى الفرس مِلءَ فروجه، وهي ما بين قوائمه، أي: من شدة إسراعه في الجري امتلأ ما بين قوائمه بالغبار والتراب.
استضرى: اختفى.
مسوَّدات- بالتشديد لا بالتخفيف-: أوراق الكتاب لم تنقح وتحرر من الأخطاء حتى تكون مبيضات.
دخون: مفرده دخن، وهو الكدر والسواد.
عرِّه: نقصه وخلله. غُرِّه: كَسْرِه.
ولعل الصواب في آخر الكلام هكذا: «...وكم في الجرأة عليه من تحذير في الكتاب الكريم، ودندنة حوله في الحديث»، والله أعلم.

(٢) لم أقف على هذه الرسالة، يسر الله بها.

فإنْ أنا لم أَحتَطْ للحديثِ اختَلتْ، وانطبقَ عليَّ قولُهم: رَمَتْنِي بدائِها وانسَلَّتْ، عندَ هذا أشفقتُ مِنَ الجِنايةِ، واحتجْتُ لاستئنافِ العِنايةِ، ولَئِنْ كانتِ الأيامُ بُؤسًا، والأيامُ وجْهُهَا عَبُوسًا وجرحُها لا يرقى بمساهرةِ العلومِ ومساورةِ الفُهومِ، شَقَقْتُ قَتِيفَها، وقَهَرتُ عَنِيفَها، ورُضْتُ جَناحَها، وقَصَّرتُ طِمَاحَها، وذَلَّلْتُ حِرَانها، وعالجتُها حتى ضَرَبَتْ جِرَانها، وبيَّضتُ نَحْوًا مِن ثُلُثِه خشيةَ التَّلَفِ، عازمًا في طَبْعِه على تَجشُّمِ الكُلَفِ، غيرَ طامعٍ مِن بني وَطَنِي مُساعِدٍ؛ إذْ ليسَ فيهم إلَّا مَن يَفُتُّ في الساعِدِ، بينَهم وبينَ النَّفْعِ كما بينَ الجِنِّ والثُّومِ، يَفِرُّ أَحَدُهم منه كما يَفِرُّ التَّقِيُّ حيثُ يخشى أنَّه مَأْثُومٌ(١).

ثُمَّ إنْ وَقَعَ لدى أهلِ الإنصافِ بمنزلةِ الإحسانِ، وشَجَّعُوا على إكمالِه ولَوْ بالنَّقْدِ والامتحانِ، فقد يَسَّرُوا الطريقَ، وكان الأَمَلُ مِن مولانَا قَوِيًّا في الإمهالِ والتوفيقِ، وإنْ بَقِيَ على تَجهُّمِ الدهرِ الأقيسِ، فإنَّ الفِرَارَ بِقِرابي يكون أَكيسَ.

وقد أسميتُه: «بَلابِلَ التَّغريدِ فيما استفدناهُ أيَّامَ التَّجريدِ»، وعُذْرِي لِعدَمِ اطِّرادِ الفوائدِ على نَسَقٍ، يُعرفُ مِمَّا يُسبَقُ، وعمَّا يَقعُ مِن التكريرِ، هوَ ما تَقتضيهِ المناسباتُ مِن التقريرِ، ولِإيثارِ الإحماضِ وتيسيرِ الارتباطِ، وتَنشيطِ الطائرِ، واستجلابِ الخواطرِ، واستمالةِ القلوبِ، واستهواءِ النفوسِ، والاحتيالِ على مواقعِ الرَّغَباتِ، ومصائدِ الشهواتِ، معَ ما سيأتي في الفائدةِ الثامنةِ تَجاوُزُنا في

---

(١) مُساورة: مُسايرة. القَتيف: السَّحابُ، والجموعُ، وما يَبِسَ مِنَ الطينِ. عَنِيفها: شديدُها الصَّلب. رُضتُ: كَسرتُ. طِماحها: أبصارُها الممتدة. جِرانها: صِعابها. عالجتُها: غَلبتُها. جِرانها: مُقَدَّمُ العنقِ إلى المنْحَرِ، وأصل الجِران والجِران في الدوابِ، استعارهما للتشبيهِ، تَجَشَّمَ: تَكَلَّفَ. الكُلَفُ: المَشَاقُّ.

الجَمْعِ بين الطيِّبِ والخَبيثِ، وتَسامُحُنا في القَرْنِ بينَ الأشعارِ والآياتِ والحديثِ، ونَستغفرُ اللهَ مما اقتضَى النَّدَمُ، أو زَلَّتْ به القَدَمُ، أو أفضى بنا إلى ما نَعنِي، أو جُمِعَ إلى ما لا يُسمِنُ ولا يُغني، إنَّه الغفورُ الرحيمُ».

على صلاحِ المرأةِ يدورُ الشأنُ

ص/ ٩٦: «المرأةُ مخلوقةٌ لتدبيرِ المنزلِ وإمارتِه، وتربيةِ النَّسْلِ، وتَثْقِيفِهِ، وتَسليةِ الأزواجِ وتنشيطِهم للأعمالِ، وكثيرًا ما نَسمعُ العربَ يقولون: بئسما أَدَّبَتْكَ به أُمُّكَ، وعَكْسُه.

فإذا اشْرأَبَّتْ أطماعُهنَّ لأعمالِ الرجالِ فَسَدَتْ حتى أعمالُ الرجالِ؛ إذ لا مُشجِّعَ لهم عليها ولا مُعينَ إلَّا هُنَّ.

وفي المَثَلِ: مَنْ يَسوقُ الحَميرَ وكُلُّهم بصِفَةِ الأميرِ، فالمرأةُ في مرتبةِ الوِزارةِ الخاصَّةِ، وهي غيرُ صالحةٍ للإمارةِ العامَّةِ، وكلٌّ مُيسَّرٌ لِـمَـا خُلِقَ له... والأدلةُ على أنَّ ما داخِلَ بابِ الدارِ مَعصوبٌ بِناصيةِ المرأةِ خارجةٌ عَنِ العَدِّ... وعلى الجملةِ فعلى صلاحِ المرأةِ يدورُ الشأنُ؛ إذْ هي أولُ مدرسةٍ للوَلَدِ، وأحسنُ ناصحٍ للرجالِ، وأفضلُ عَونٍ لهم على شريفِ الخِصالِ».

لا يَرْبو قَدرُ النِّعمِ إلاَّ...

ص/ ١٠٠ - «لا تَتجدَّدُ لِأحدٍ نِعمةٌ إلَّا حَدَثَتْ في صدرِه وَلْولةٌ لا تزولُ عنه أو يُفضِي بِخَبرِها إلى أحبِّ الناسِ إليه، وألصَقِهم به..

فإنْ لم يَجِدْ مَنْ تَسكنُ نفسُه بحديثِه إليه، لم تكنْ النعمةُ قَيِّمَةً لديهِ، لِهذا قال الطُّغْرائي يَتألَّمُ:

فــلا صــديقٌ إليــه مُشــتكى حَــزَني ولا أنــيسٌ إليــه مُنــتهَى جَــذَلِي

ومِن هذا القبيلِ كانتْ مسارعتُه ﷺ إلى خَديجةَ وإخبارِه إيَّاها بِقِصَّتِه، وكُلُّنا يَجِدُ ذلكَ مِنْ نَفْسِه، فإنَّه لا يَقِرُّ لِأَحدِنا قَرارُه إذا قُضِيتْ أوطارُه حتى يَنقلبَ إلى أهلِه ويُخبرَهم بما اتَّفَقَ له، حتى لو نَزَلَ بِقومٍ فأحسنوا قِرَاه، فلا بُدَّ وأنْ يَتحدَّثَ بحُكْمِ الطبيعةِ إلى خاصَّتِهِ بذلك، وأخصُّهم أهلُه، قال حاتِمٌ:

واعلــمْ بــأنَّ الضــيفَ مُخْــبِرُ أهلِــه بمَبِيــتِ ليلتِــه وإنْ لــم يُســألِ

ولا يَخرجُ عنه مؤمنُ آلِ ياسينَ: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦ – ٢٧]..

فإنَّه لا يربو قَدْرُ النِّعمِ إلا بينَ أحبابٍ يَتفتَّحُونَ أُنسًا إليها، وحُسَّادٍ تَغلي مَراجلُ قلوبِهم غَيْظًا منها، ومتى أُلقِيَتْ إليك نعمةٌ ولم تَعرفْ مقدارَها ولم تتبينْ قِيمَتَها، فارْمِ بها كما قالوا في وجهِ الحاسدِ، فإنْ انقبضَ لها جَبِينُه وتَشازَرَتْ منها عينُه، فاعلمْ أنَّها ثقيلةٌ في الميزانِ تَستوجِبُ عليك مزيدَ الشُّكْرانِ».

لا سكونَ إلى الزوجةِ الغَرْبِيَّةِ

ص/ ١٠٤-١٠٥: «فكثيرٌ مِن سُفَهاءِ الأحلامِ، وصِغارِ العقولِ، ومعدومِي المُروءةِ، يَغبِطونَ الإفرنجَ والمتفرنجِينَ على تَعلُّمِ نِسائِهم ومُشاركتِهنَّ لهم في بعضِ الأعمالِ، ولو كَشَفُوا عن سرائرِ قلوبِهم؛ لَأَلْفَوها تَحترِقُ بنارِ الغَيْرةِ مِن

مفاسدِ السُّفورِ الفاحشِ التي اضْطُرَّ كثيرٌ منهم إلى إيثارِ العُزوبيَّةِ، فرقُّوا لهم بدلَ مِن أنْ يَنْفَسُوهم..

لأنَّه لا يَنفُذُ إلى قلوبِهم شيءٌ مِنَ السُّكونِ الذي امتنَّ الله به في الزوجيةِ على عبادِه؛ إذ يَستحيلُ [السكونُ] دونَ أنْ يكونَ قلبُ المرأةِ خالصًا للزوجِ، فأمَّا التي تُمارسُ الشبابَ، وتُراقصُ الأحبابَ؛ فلنْ يَبْقَ في قلبِها إلَّا أرذلُ المواضعِ لزوجِها، وما بينَ العينينِ لا يُوصفُ، فالاعتناءُ بشأنِ المرأةِ حَجَرُ الأساسِ، وأولُ المُهِمَّاتِ، وألزمُ الواجباتِ، واللهُ أعلمُ.

أهلُ الجاهِ والثَّروةِ هم أعداءُ الحقِّ إلاَّ قليلا..

ص/ ١٠٩-١١٣: «إنَّ سنةَ اللهِ في عبادِه أنَّ الخاصَّةَ وأهلَ الثَّروةِ والجاهِ أعداءُ الحقِّ بالأغلبِ حيثُما كانوا، فإنْ قيلَ: إنَّ في أصحابِه ﷺ المستجيبينَ له مِنْ أولِ الأمرِ بعضَ أهلِ الشَّرفِ، كحَمزةَ وأبي بكرٍ وعُمرَ![1].

---

(١) ذكر الإمام المعلمي بعض أشراف قريش السابقين إلى الإسلام ثم قال: «فتدبَّر هذا، فقد جرت عادةُ الكُتَّاب إذا ذكروا السابقين إلى الإسلام ذكروا الضعفاء، فيتوهَّم القارئ أنهم أسلموا لضعفهم وسخطهم على الأقوياء وحبهم للانتقام منهم على الأقل؛ لأنه لم يكن لهم من الرياسة والعزِّ والغنى ما يصدّهم عن قبول الحق وتحمُّل المشاق في سبيله. والحقيقةُ أعظم من ذلك كما رأيت، إلا أن الرؤساء عاندوا واستكبروا، وتابعهم أكثر قومهم مع شدَّة تأثرهم بالإسلام، فكان في الشُّبَّان مَنْ كان قَوِيَّ العزيمة، فأسلموا وضَحُّوا برياستهم وعِزِّهم وغناهم، متقبِّلين ما يستقبلهم من مصاعب ومتاعب، وبقي الإسلام يعمل عمله في نفوس الباقين، فلم يزل الإسلام يفشو فيهم حتى بعد هجرة المصطفى ﷺ ثم لما كان صُلح الحديبية وتمكَّنَ المسلمون بعده من الاختلاط بالمشركين، ودعوة كلِّ واحد قريبه وصديقه فشا الإسلام بسرعة، وأسلم في هذه المُدَّة من الرؤساء: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة وغيرهم، والإسلام يعمل عملَه في نفوس الباقين.
ونستطيع أن نجزم أن الإسلام كان قد طرد الشرك وخرافاته من نفوس عقلاء قريش كلهم قبل فتح

فالجوابُ: إنَّ الغالبَ على أتباعِه الضَّعْفُ والمَسْكَنةُ، وقد هَدَى اللهُ إلى اتباعِه مَن سَبَقَتْ له السعادةُ مِن أهلِ النَّخْوةِ والشَّرَفِ لكنْ الحُكمُ إنَّما هو على الأكثرِ وكثيرًا ما تكونُ الدِّعايةُ إلى الإصلاحِ والتَّشدُّقِ بالوَطنيَّةِ مِن الخاصَّةِ، والناسُ يُصدِّقونَهم فيما يقولونَ ويَغْترُّون بهم فيما يزعمونَ، ولو تَدبَّرُوا آياتِ القرآنِ، لَعَرَفُوا أنَّه مُستحيلٌ شَرْعًا؛ لأنَّ سُنَّةَ اللهِ لا تتغيرُ، ومِن سُنَّتِه: أنْ يكونَ أهلُ النَّخْوةِ والشَّرَفِ أَعداءُ الحقِّ والإصلاحِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإنَّما يأتون إليه من ورائِه إذا قَهَرَتْهُمُ الظُّروفُ، واضْطَرَّتْهمُ الأحوالُ..

وقد جاءَ ذمُّ المُتْرَفِينَ والرُّؤساءِ، وبَيانُ أنَّهم أصلُ الشَّرِّ ومَنْبَعُ الفسادِ، ومَجْلَبةُ الدَّمارِ، في ما لا يُحصى مِنَ الآياتِ .. -ثم سَرَدَ أكثرَ مِن عشرينَ آيةً يُخبرُ فيها رَبُّنا عَزَّوَجَلَّ عَنِ الملأ الذين كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ وصَدُّوا عَنْ سبيلِ اللهِ.. ثم قال-:

فالمُسلِّمُ بأقوالِهم والمُصدِّقُ لمزاعمِهم كالمُتشكِّكِ في كتابِ اللهِ، نعوذُ باللهِ مِنَ الخِذْلانِ، وما دَعْواهمُ الإصلاحَ والخيرَ للأوطانِ إلا تمويهٌ وذَرُّ رَمادٍ على العُيونِ، واستمالةٌ لِقلوبِ المخدوعينَ، ودَنْدَنةٌ حولَ الأَغراضِ، وتمهيدٌ للرِّياسةِ، وحِرْصٌ على الكِبْرِياءِ في الأرضِ، وسَعْيٌ إلى ما قَصَرَتْ عنه أَيديْهم مِنَ الجَورِ، وتَوصُّلٌ إلى إرضاءِ شَهَواتِ الانتقامِ مِن عبادِ اللهِ، والتَّربُّعِ على الكُرسيِّ،

مكة، ولم يبق إلا العناد المحض يَلْفِظُ آخر أنفاسه، فلما فُتِحَت مكة مات العناد ودخلوا في الإسلام الذي قد كان تربَّع في نفوسهم من قبل». «آثار المعلمي» (١٢/ ٣٦٨).

والحُصولِ على المُرتَّباتِ الضَّخْمةِ، والتحكُّمِ في رِقابِ الضعفاءِ وأموالِهم، وقال فرعونُ لِقومِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

هذه حالُهم في كلِّ وَسَطٍ يكونون فيه، وأنَّى تُقْبلُ مزاعمُهم بلا حُجةٍ تُزكِّيهم مِن حُسنِ السُلوكِ، ولا بَيِّنةٍ باستجماعِ العَدالةِ، ومَعاذَ اللهِ أنْ نُصدِّقَ مَنْ لا عَدالةَ له في دينِه، إنَّا إذَنْ لظالمونَ.

إنَّما يُصدِّقُهم كلُّ ذي قَصدٍ قَبيحٍ، ويقومُ لهم أهلُ المَلَقِ بِما يُحبُّونَ مِنَ التَّوشيحِ، ثم يَتبعُهم الطَّغامُ الذين يَمِيلونَ معَ كلِّ رِيْحٍ، ولا عِبْرةَ بِمَنْ صَلَحَ مِنَ المُتْرَفِينَ وخَدَمَ الحقيقةَ؛ لأنَّه لا يكونُ إلَّا مِسكينَ القلبِ، لَحِقَ بأهلِ الصُّفةِ في الوَصْفِ، ثمَّ إنَّ الصالحينَ منهم قليلٌ، لا تَنخرِمُ بهمُ القضيةُ؛ إذ لا يُعلَّقُ الحكمُ بالشاذِّ، وإنَّما هو على الأغلبِ حَسْبمَا أسْلَفناه.

فيَنبغِي اتهامُ كلِّ دَعْوَةٍ تَنتشرُ عن رِضاهم، ومُعاكسةُ كلِّ نَهضةٍ يُدِيرونَ دَفَّتَها، ومُزاحفةُ كلِّ ثَورةٍ تَنجُمُ عن تدبيرِهم، لأنَّه لا يُرادُ منها إلا إطفاءُ نورِ الحقِّ، وبهذا قلتُ مِن قصيدةٍ في نَحْوِ هذا الموضوعِ:

والمُترفُونَ عُداةُ الخيرِ إنْ بَعُدُوا ... فهو الهُدى وأُسِيءُ الظَّنَّ إنْ قَرَبُوا

وإنَّما تكونُ الحرَكةُ صادقةً إذا صَدَرتْ عن الطَّبَقاتِ المهضومِ حَقُّها، المنهوبِ فَيْئُها، المضغوطِ على حُرِّيَّتِها، ثُمَّ إنَّك لا تَجِدَ أحدًا أحثَّ سَعْيًا لِمحْوِ مَراسمِ الشريعةِ مِنْ أولئكَ المُتْرَفِينَ، ولا أشدَّ منهم عداوةً لِرجالِ الدِّينِ، وحَمَلَةِ العلمِ، ولا سِيَّما إذا أَيِسُوا منهم وأَلْفَوهم أحرارًا صادقينَ، وعَرَفوا قُوَّةَ عَزائِمِهم

وشِدَّةَ شَكائِمِهم؛ إذ لا يَخافونَ انتكاثَ الفَتْلِ إلَّا مِنْ شَنِّهم غارةَ الانتقادِ عليهم، فيُبادرونَهم بابتغاءِ الغَوائلِ، وإلصاقِ التُّهَمِ بتَطلُّبِ العَثَرَاتِ.

وليسَ المرادُ بأنصارِ الحقِّ مِن ضَعَفَةِ الخَلْقِ، الهَمَجِ الرَّعاعِ الذين يَمِيلون مع كلِّ رِيْحٍ، ويَتبعون كلَّ ناعقٍ، كلَّا، ولكنِ الضَعَفَةُ فيما يَرى الناسُ، مع رُسوخِ دِينِهم، وقُوةِ يَقِينِهم، ونُفوذِ بصائرِهم، وصِحَّةِ عُقودِ ضمائرِهم، لا تُخشى هزائمُهم، ولا تَنفسِخُ عزائمُهم، ولا تَتزلزلُ عقائدُهم، ولا تَتغيرُ مبادئُهم، على شَبَهٍ قَوِيٍّ بِمَن قِيلَ فيهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، أولئكَ أساطينُ الحَرَكاتِ المباركةِ، وأَراكينُ الانقلاباتِ الصالحةِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥]».

عُلماءُ السُّوءِ ورُهْبانُ الخَدْعِ

ص/١١٣-١١٤: «ولكنَّهم [أي: المُتْرَفِينَ] قد يُحبُّونَ المُتملقِينَ المُتصاغِرينَ منهم؛ لِيَستعينوا بهم في قَضاءِ مَآربِهم وتَنفيذِ أغراضِهم، ويتخِذُوا منهم مِثالًا قَبيحًا في تصغيرِ العلمِ وتحقيرِ أهلِه، بتسخيرِهم في خِدْمتِهم وامتهانِهم في مجالسِهم، وتَردُّدِهم على أبوابِهم، وتَجِدُهم أيضًا ولا سيَّما في ابتداءِ أمورِهم يُصانعِونَ المُرائِين المُتحرشِينَ بالوِلايةِ ودَعْوى الصلاحِ، ويُقاربونهم لأَمْنِهم مِن جانبِهم، واعتقادِهم أنَّهم لا شَيءَ، لمعرفتِهم بأنَّهم أسرعُ الناسِ إلى الدِّهان، وبيعِ الذِّمَمِ بالثَمَنِ المُهانِ، ويَتنفَّقُون بهم عندَ العَوامِّ، ويُموِّهون بمُوالاتِهم على الطَّغامِ، ويَتخِذون منهم المهازلَ إذا خَلَوا بمَن يَأمَنُونه

الكلامَ، ومُنتحِلُو الولايةِ يَقتنِعون منهم بأيسرِ بُلْغةٍ مِنَ الاحترامِ، ويَتكثَّرُون بهم عندَ سُفهاءِ الأحلامِ، ولَئِنْ تَباينتْ مذاهبُهم واختلفتْ مشاربُهم، فقد تَشابهتْ قلوبُهم واجتمعتْ على خَصْلتَينِ:

إحداهما: التماسُه في الجامِدِينَ، فالمُترفونَ يُحاولونَ السَّيطرةَ على الأبدانِ والتَّحكُّمِ في الرِقابِ، والآخَرونَ يبتغونَ الزُّلْفى في القلوبِ والاستيلاءَ على النفوسِ.

الثانية: اتفاقُهم على أحرارِ العلماءِ، فإنَّهم يدٌ واحدةٌ عليهم..

إذَنْ لا غَرابةَ في اجتماعِ هؤلاءِ، وتبادُلِهم الثناءَ، وتقارُضِهمُ الخِيانَةَ، وتجاذُبِهم أطرافَ التَّمويهِ، وتسوُّقِهم بالباطل!

وأشدُّ ما يُغيظُني مِن أولئكَ المُتصنِّعين، كَثْرةُ دِعايتِهم إلى سِيْرةِ السَّلَفِ، على ما بينَهم وبينَها مِن البَونِ الشاسعِ، والفَرْقِ الواسعِ، والداهيةُ الدَّهْياءُ هيَ إيهامُهم أنَّ السَّلَفَ على مِثلَ حالِهم، وأنَّ رأسَ مالِ الوِلايةِ السُّبْحةُ الثقيلةُ، والسِّواكُ الطويلُ، وتشويهُ الهيئةِ، وتشعيثُ اللِّحيةِ، واطِّراحُ النَّظافةِ، وتَرْكُ التجمُّلِ، وإطراقُ الرأسِ، وقَصرُ الخُطَا، والسكوتُ على المُنكَراتِ، وإنكارُ بعضِ الأوضاعِ والرُّسومِ، على غيرِ المُتْرَفِينَ، وما أشبهَ ذلكَ مما تبكي له عُيونُ الإسلام، ويَتبرأُ منه خيرُ الأنامِ، ولا حَولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ، فقد زادَ الكيلُ، وعمَّ الويلُ، وطَفَحَ السَّيلُ، وبَلغَ السِّكِّينُ العَظْمَ وكمْ لي في نَفْيِ أحوالِهم من النَّثْرِ والنَّظْمِ، منه قولي:

وكَمْ تَرى مِن ذي وَقارٍ وهَيْئةٍ يرُوعُك في هندامِه وكلامِه

تَظُنُّ بِهِ خَيرًا وتَحْسَبُ أنَّهُ ... لِإصْلاحِ حَالِ النَّاسِ جُلُّ اهتمامِهِ
يَرَى مَبْلَغَ التَقوى الرُّسومَ فكُلُّ مَنْ ... يُقَصِّرُ فيها واقِعٌ في مَلامِهِ
فيَشتَدُّ غَيظًا للعِمامةِ والرِّدا ... إذا لم تكنْ في الحَجْمِ طِبْقَ مَرامِهِ
وما لِرسُولِ اللهِ زِيٌّ مُخصَّصٌ ... يُكَلِّفُ طُلَّابُ التَجَا بالتزامِهِ
بغيرِ انتصارٍ للتفرنجِ إنَّهُ ... دليلٌ على مَنْ رَقَّ حَبْلُ اعتصامِهِ
ولكنَّ أصحابَ التَصنُّعِ غَيَّروا ... مَنارَ الهُدَى مِن خَلْفِهِ وأمامِهِ
وزادُوا كما شَاءَ الرِّياءُ وأَلصقُوا ... بِهِ بِدَعًا كانتْ له شَرَّ ذامِهِ
أَرُونِي امرءًا مِنهم تَمعَّرَ عندَما ... تَمطَّى البَلا في قُطْرِنا بظَلامِهِ
وقامَ احتسابًا يومَ حلَّتْ بعُقْرِنا ... طلائعُ كُفْرٍ هَمُّها في الْتهامِهِ
أيُغضِي على هذا القَذا جَفْنُ مُسلِمٍ ... يَؤمَّلُ بالإسلامِ مَحْوَ أثامِهِ
ويَرضَى بتحريفِ الشريعةِ طامعٌ ... مِنَ اللهِ أنْ يَحظَى بحُسْنِ خِتامِهِ
ويُدْهِنُ في ذاتِ الإلهِ ولَوْ عَدَوا ... على شاتِهِ لم يَنحجِزْ عَن قيامِهِ

جَهابذةُ العلماءِ يَمْزجُون مجالسَهم بالفُكاهةِ

ص/ ١٣٦: «في قوله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ»[1] أنَّ مِن وُجوهِ الحاجةِ إلى إيرادِ السؤالِ حِرْصَهُ ﷺ على تنشيطِ الخواطرِ، وترويحِ النفوسِ، وملاطفةِ الأصحابِ، وما ثَمَّ شيءٌ مِن الأعْيِيَةِ والأُحْجِيَّةِ المنهيِّ عنها، ولم يَخْفَ الجوابُ على الشُيوخِ إلَّا كما قَرَّرنا مِن شدَّةِ ظهورِه، فَفِي الحديثِ غايةُ اللُّطْفِ ومُنتَهى الرِّفْقِ، وهُوَ أصلٌ كبيرٌ لِمَا

(١) أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يفعلُه جهابذةُ العُلماءِ من التنكيتِ والإحماضِ، وإيرادِ المُلَحِ والفُكاهاتِ في دروسِهم، لأنَّه يُجِمُّ القلوبَ، ويَفتحُ النفوسَ، ويَصْقُلُها مِن دَرَنِ المَلَلِ، ويُريحُها مِن ثِقَلِ الاستكراهِ، بخلافِ العلمِ المُجَرَّدِ والمسائلِ المسرودةِ؛ فإنَّها تُميتُ الأذهانَ، وتُضْجِرُ النفوسَ، وتُشوِّشُ البصائرَ».

تفضيلُ التَّمْرِ على العِنَبِ

ص/ ١٤٢: «وما زلتُ في إشكالٍ من تفضيلِ الفقهاءِ للرُّطَبِ على العِنَبِ، حتى وَرَدْتُ صنعاءَ سنة (١٣٤٩) فما هِيَ إلَّا أيامٌ حتى أَحسستُ بنوعِ مَلَلٍ له، خلافَ التَّمْرِ، فإنَّنا نأخذُ منه طِيلةَ السَّنةِ، ولا نُحِسُّ له بشيءٍ مِنَ المَلَلِ»[١].

تَفضيلُ جَريرٍ على الفَرَزْدَقِ

ص/ ١٤٢: «وأكثرُ الناسِ يُفضِّلونَ جَريرًا على الفَرَزْدَقِ، لا عَنِ استحقاقٍ، ولكنْ لموافقةِ هَوَى السلطانِ؛ لأنَّ جَريرًا مِنَ المتصاغِرينَ المُتملقِينَ، ولكنَّ الفَرَزْدَقَ معَ محبتِه لآلِ البيتِ قَوِيُّ النفْسِ حَمِيُّ الأَنفِ، فَثَقُلَ ظِلُّه عندَ الملوكِ، فعَمَدُوا إلى خَصْمِه ففَضَّلُوه بِدُونِ حقٍّ، وقال الجُهَّالُ بالتقليدِ»[٢].

---

(١) للمفاضلة بين العنب والرطب، انظر: «طريق الهجرتين» (٢/ ٨٠٨-٨٠٩)، «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٦٥٥-٦٦٣)، وذكر فيه مناظرة بمكة بحضوره رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي «العقود اللؤلؤلية» (٢/ ٢٦٣)، خبر مناظرةٍ أخرى في مجلس أحد أمراء الدولة الرسولية باليمن، وللعلامة محمد بن عبد الله الريمي (ت: ٧٩٢)، كتابٌ سمَّاه: «تحفة أهل الأدب في تفضيل العنب على الرطب»، انظر: حاشية الرملي على «أسنى المطالب» (٢/ ٣٩٣)، وللبدر الأمير مقامة منظومة في المفاضلة بينهما على لسان كل منهما، ثم الحكم بين الفريقين وقطع الشجار بين الشجرتين. انظر «ديوان الأمير الصنعاني» (٣٧٢-٣٧٥).
ولعلهم أطالوا في غير طائل، غفر الله لهم، وألحقنا بهم صالحين.

(٢) هذا التعليل ليس على إطلاقه، فقد وجد من النقاد قديمًا وحديثًا من يفضل جريرًا، وليسوا متصاغرين ولا متملقين، ولا يوجد سلطان يكرههم على شيءٍ من ذلك، أو يرغّبهم.

مِقياسُ الخطيبِ الناجحِ

ص/ ١٦٢: «إنَّ الخَطابة مَرْكبٌ ليسَ بالذَّلولِ، فيَجِبُ على مَنْ يُرَشِّحُ نفْسَه لها أنْ يَستكملَ الآلاتِ، وأنْ يستجمِعَ الأدواتِ، لِيَملِكَ الخواطرَ ويَستهوِيَ القلوبَ ويَخلِبَ العقولَ ويَستمِيلَ النفوسَ؛ حتى يَتمكنَ من إزعاجِها عَنِ الحَضيضِ ويُحلِّقَ بها إلى القُلَلِ، ومَنْ لم يُخْرِجِ الناسَ بلَوْنٍ غيرِ الذي دَخَلوا به فليسَ بخطيبٍ.

وسَمِعتُ مرةً واعظًا يَتكلمُ بكلامٍ باردٍ وحديثٍ مُعادٍ، قد حفِظَتْه الجُدْرانُ، وعَرَفتْه الجماداتُ، إلى حكاياتٍ موضوعةٍ، وكراماتٍ مكذوبةٍ، وأصحابُه مُطْرِقُونَ وهوَ يَلوكُ أساطيرَه كما تَلوكُ العَذارَى العِلْكَ، وتَمضَغُ العَجائزُ اللُّبَانَ، ويُطيلُ في مَدِّ الحروفِ عنِ اللائقِ؛ لِيَشغَل الوقتَ، وهم يَعُدُّونه من جوامعِ الكَلِمِ، ولمَّا أَعرضتُ عنه، قالوا: محجوبٌ واتَّهموني بالفُسوقِ والمُروقِ:

فقلتُ لهمْ هذا حجابٌ عَنِ الرِّياءِ ... وذَنْبي أنِّي ليسَ عندي تَصَنُّعُ
كلامٌ سَخيفٌ والْمُراؤونَ دَمْعُهم ... يَسيلُ وبعضٌ همُ كاليَهودِ مُقَنَّعُ
دعُونا في القُرآنِ والسُّنةِ التي ... أتانا بها خيرُ النبيينَ مَقْنَعُ

الاستهانةُ بالخطيبِ

ص/ ٤٤٧: «ومِنْ أقبحِ عاداتِهم... الاستهانةُ بالخطيبِ، فطالما رأيتُه في مجالسِهم ووَلائِمِهم بمَطْرحِ النِّعالِ، ومَسْقطِ الهَوانِ، وما تَرى في أُمَّةٍ أهونَ رجالِها عليها الخطيبُ، الذي تَحتشدُ في أفضلِ أيامِها؛ لِوَعْيِ كلامِه، والجلوسِ تحتَ مِنْبرِه، والائتمامِ به في أفضلِ عباداتِها، ولكنِ الدِّينُ هان قَدْرُه، واطَّرَحه

أهلُه، ولم تَبْقَ إلَّا رُسُومُه، المُعرَّضةُ أيضًا لِأنْ يكتسِحَها التمدُّنُ الممقوتُ، بسَيْلِه الجارفِ وريحه العاصفِ».

حقيقةُ الزُّهد في الدُّنيا

ص/ ١٦٧-١٦٨: «والقرآنُ مِن فاتحتِه إلى خاتمتِه حَثَّ على الزُّهدِ والتنويهِ بشأنِه، وهو مما لا نِزاعَ فيه عندَ انتفاءِ المبالغةِ، وحقيقتُه ما ذَكَرْنا مِن سيرتِه ﷺ، وقد أخطأَ مَن فَسَّره باطِّراحِ الدنيا جُملةً، والإعراضِ عنها بالكُلِيَّةِ، فأَخْذُ البَلاغِ مِنَ الدنيا وما يُشبِهُه؛ لا يُغايرُ الزهدَ، كما لا يُغايرُه ما يَحتاجُه الأئمةُ والعلماءُ والقُضاةُ، للإرهابِ وإظهارِ شَرَفِ العلمِ، على حَسَبِ تفاوُتِ أقدارِهم، وليسَ الكلامُ في مُجرَّدِ الزهدِ، وإنَّما هُوَ في الأوضاعِ المُستحْدَثةِ والقوانينِ المُستجَدَّةِ، والأعمالُ بالنِّيَاتِ، واللهُ يَعلمُ المُفسدَ مِنَ المُصلِحِ».

الكرامُ لا يَصُدُّهم اللئام!

ص/ ١٨٨-١٩٠: «...فهأنذا في أولِ درجاتِ العَقْدِ السادسِ مِنْ عُمُرِي؛ ما عاملتُ أَحَدًا مِنَ الرِّجالِ إلا كافأَ بالقبيحِ، ولا سِيَّما أولو القُربى منهم، كما قلتُ مِن قصيدةٍ:

وجُلُّ العِدَا مِمَّنْ يُؤلِّفُ بينَهم ... وبيَنِيَ لو صحَّتْ مَناسبُهم جَدُّ

فكَمْ تَحمَّلْنا عن بعضِهم مِن الأثقالِ، وَوَاسيناهم بما نَستطيعُ مِنَ المالِ، وضَحَّينا في الدِّفاعِ عنهم بالجاهِ؛ وسَعَينا في صالِحهم جَهْدَنا، وخاطَرْنا بأَنْفُسِنا، ثمَّ صارُوا إِلْبًا علينا، معَ أعدائِنا الذين خاصَمْناهم فيهم، على حَدِّ قولِه:

كم صاحبٍ عاديتُه في صاحبٍ ... فتصادَقا وبَقِيتُ في الأعداءِ

وبالجملةِ؛ فقد كادوا لنا بكلِّ ما في وُسْعِهم، إلَّا أنَّهم لم يَضُرُّونا إلَّا أَذًى، وخارَ اللهُ في عَدَواتِهم، وانطبقَ علينا ولله الحمدُ قولُ الشاعر:

مـا مِـنْ مُصـيبةِ نَكْبَـةٍ أُرْمَى بِهـا إلا تُـشَرِّفُني وتَرْفَـعُ شَـأني

وقد أطْلَعْناهم على ظاهرِ أمرِنا وخافِيْه، ولو عَلِمُوا أيَّ شيءٍ مِن عَيبِنا لأَذاعوه وباعُوه... ولكنَّ السَّاحةَ بَرِيَّةٌ، والجَيْبَ نَقِيٌّ، والعِرْضَ أبيضُ، وإنِّي لَكما قال الأولُ:

فَـسِرِّي كَـإعْلاني وتِلـكَ حَقِيقَـتِي فظُلْمَـةُ لَيـلي مِثْـلُ ضَـوءِ نَهارِيـا

نسألُ اللهَ أنْ يَكفِينَا شرَّ مَنْ أَحْسَنَّا إليه فإنَّهم كما قيلَ:

أُنـاسٌ أمِنَّـاهمْ فلمـا تبيّنُـوا براءتَنـا مِـن كلِّ عَيـبٍ تقوَّلـوا

ولا جَرَمَ فقد قال سفيانُ: ما وَجدْنا أصلَ عَداوةٍ سُوى اصطناعِ المعروفِ إلى اللِئامِ، وهلْ مِن ذنبٍ غيره لأهلِ البيتِ إلى أعدائهم حتى كادوا يُفْنُونهم قَتْلًا ويُمزِّقونهم أشْلاءً...

وما اقشعرَّ بَطْنُ مِصْرَ بمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا مِنْ فِعلِ المعروفِ معَ مَن لا يَستحقُّه؛ إذْ لم يَنِمَّ عليه إلَّا غَذِيَّ نِعْمتِه، وأسيرُ نُصْرتِه، كما اقتصَّ الباري تعالى حالَه في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]».

مصيرُ الملوك الظلمة!

ص/ ١٩٠: «ومَن تتبَّعَ الأمرَ في الذِينَ يقومون بالدُّوَلِ، رأى أنَّه لا يكونُ مآلَهم معَ أمثالِهم إلا التنكُّرُ والقتلُ لبعضِهم بعضًا، وفي حالةِ الدولةِ العَباسيةِ معَ أبي سَلَمةَ الخَلَّالِ، وأبي مُسْلِمٍ ما يَكفي، وقد وَرَدَ: «مَن أعانَ ظالمًا سَلَّطَه اللهُ عليه»[1]؛ إذْ لا شَكَّ أنَّ مُؤسِسي تلكَ الدولِ يَستعينونَ في إنشائِها بالظُّلمِ، فيَنقلبُ عليهم مَنْ ظَلَموا لِأجْلِه».

كيدُ الرجالِ أعظمُ من كيد النساء

ص/ ١٩١-١٩٣: «ولَئِنْ توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ هذا مُنتقِضٌ بِما عظَّم اللهُ مِن كيدِهنَّ في قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، كَشَفنا ذلك مِن وجوهٍ:

أَحَدُها: إنَّ عَظَمَتَه بالنِّسبةِ لضَعْفِ عُقولِهنَّ وصِغَرِ أدمغتِهنَّ بَشهادةِ التشريحِ، والشيءُ يَعظُمُ مِنَ الصغيرِ معَ حَقارتِه، كما أنَّ العظيمَ يَصغُرُ مِنَ الكبيرِ إنْ جَلَّ، ولهذا قال أبو الطَّيِّبِ:

عَلى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأتي العَزائِمُ ... وَتَأتي عَلى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

وَتَعظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صِغارُها ... وَتَصغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا، بإسناد فيه متهم كما ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١٠٦٣)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (٢١١)، وقال السخاوي: معناه صحيح.

ثانيها: مَجيءُ الخبرِ خاليًا عن لامِ التوكيدِ، ولو كانتْ عَظَمَةُ كيدِهنَّ مُطْلقةً، لَقالَ: إنَّ كيدَكنَّ لعظيمٌ.

ثالثُها: إنَّ العَظَمَةَ مُتلاشيةٌ في جَنْبِ قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، وهذا في الرجالِ، وهو مِن عندِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وذلكَ إنَّما هو مَحكِيٌّ عن العزيزِ يُمهِّدُ به من العُذْرِ، ويَدْرأُ مِنَ اللَّومِ، ويُغطِّي مِن سَوْأةِ امرأتِه، بدَعْوى انطباعِ الجِنْسِ على عِظَمِ الكيدِ، حتى يَخِفَّ عنها بعضُ العارِ، فهو رابعُ وجوهِ الجوابِ.

فأصلُ ذمِّ النساءِ كانَ في العصورِ الصالحةِ، حينَ كانتْ مذامُّ الرجالِ قليلةٌ، وحفَّاظُ الأيادي كثيرةٌ، وعَددُ الأحرارِ مُتوفِّرًا».

الصلاةُ مفتاحُ الفَرَجِ

ص/ ٢١٦: «يُؤخذُ مِن إكثارِه ﷺ الصلاةَ ليلةَ الخَندقِ، ومِن كونِه ﷺ كلَّما حَزَبَه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاةِ، عِظَمُ خَطَرِ الصلاةِ، وجليلُ نفعِها، وعميمُ فائدتِها، وسُرعةُ نتيجتِها، وحُسنُ موقعِها، لَدى انقطاعِ الحِيَلِ، وعَثَراتِ الأَمَلِ، وأنَّها تَنهى عَنِ الفحشاءِ والمُنكَرِ، وأنَّه لا يُمْكنُ رياضةُ النفوسِ بسُواها، عندَ اعتلاجِ الخواطرِ، وتَجاذُبِ الدَّواعي، واختلاجُ الظُّنونِ، وتَزاحُمِ الشَّهَواتِ، وتَراكُمِ الظُّلُماتِ؛ لأنَّ فيها مِن الأخذِ بالنفسِ إلى جانبِ القُدْسِ ما لا يُوجدُ في غيرها مِنَ العِباداتِ، بشَهادةِ قولِه ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ»[1]،

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا فضاءٌ واسعٌ، وجوٌّ شاسعٌ، نَقتصرُ منه على هذا، ثُمَّ لنا عودةٌ بالمناسبةِ إلى تحقيقِه، بما يَفتحُ به اللهُ، إنَّه هو الفتاحُ العليمُ»[١].

عطايا الملوك

ص/ ٢٢٦: «والعربُ لا تَرى بأسًا بانتجاعِ الملوكِ، والتعرُّضِ للأمراءِ؛ لِأنَّ حقَّ اللهِ في أيديهم؛ فهم فيه شُركاءُ.. ولقد كانَ أجِلَّاءُ الصَّحابةِ وفي مُقدِّمتِهم سيدا شبابِ أهلِ الجنةِ، يَنتجِعونَ معاويةَ، لِـمَـا لهم مِنَ الحقِّ في يديه، ثمَّ كان كثيرٌ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ، وعبدُ اللهِ بنُ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ، يَضربون آباطَ الإبلِ إلى سُدَّةِ يزيدَ بنِ معاويةَ يَطْلبون ما لهم مِنَ الأرزاقِ في بيتِ المالِ»[٢].

عِظَمُ شأنِ الأذانِ

ص/ ٥٦٦: «إن الأذانَ هِزَّةٌ صادقةٌ، وحَملةٌ واحدةٌ، وصيحةٌ عامَّةٌ، وقارعةٌ طامَّةٌ، وأَخْذةٌ رابيةٌ، ونَفِيرٌ شاملٌ تُزعزَعُ به الأساطينُ، وتُزلْزلُ له الشياطينُ، ثمَّ تُنَهْنِهُ رَبْوَها، وتَخْفِضُ بَهْرَها، وتَجمعُ جَراميزَها، وتَلُمُّ شَمْلَها، وتَتدراكُ فَلَّها، وتَعودُ لا بِعُلوِيَّة الهجومِ العامِّ، بل على سبيلِ الاختلاسِ، فتَتخلَّلُ قلوبَ الناسِ، بالهواجسِ والوِسواسِ»[٣].

---

(١) قد أوردت عودته المشار إليها هنا (ص/ ١٤١-١٤٣).
اعتلاج: التطام، مِن (اعْتَلجَت الأمواجُ). اختلاج: اضطراب.

(٢) انتجاع: طلب معروف الملوك وعطاءهم. السُدَّة: فناء البيت.

(٣) تنهنه: تكف. ربوها: انتفاخ جوفها بتصاعد النَّفَسِ؛ من قوة إدبار الهروب. بهرها: نَفَسها. جراميزها: أطرافها وقوائمها: يقال: جمع جراميزه، إذا انقبض لِيَثِبَ. فلَّها: هزيمتها.

صلاحُ الأُمَّةِ بصلاحِ نسائِها

ص/ ٦٢٨: «لن يَستطيعَ الرجلُ تسنُّمَ ذُرَى المجْدِ، إلَّا بزَوجٍ، تَنفخُ فيه رُوحَ الشجاعةِ والهِمَّةِ، وتُهوِّنُ له المغامرةَ بالحياةِ في طَلَبِ العِزِّ والرِّفعةِ، ومِن ذلكَ تَتوجهُ نَظرْتي وتتأكدُ صِحَّتُها، وهِيَ أنَّه لمَّا كاد اليأسُ يَتغلبُ مِن جهةِ إصلاحِ الرجالِ، لزَمانةِ أمراضِهم، وشِدَّةِ إعراضِهم، ومَهانةِ نفوسِهم، وانتكاسِ رُؤوسِهم، واندماجِهم على اللؤمِ والحَسَدِ، وانطباعِهم على الذُّلِ والمَلَقِ، رأيتُ أنَّه لا يُمْكنُ إصلاحُ الأمَّةِ الحَضْرميَّةِ، إنْ بَقِيَ في القَوسِ مَنْزِعٌ، إلَّا بالالتفاتِ إلى النساءِ، وتعليمِهنَّ المبادئَ والأَوْلَوِياتِ، وتعريفِهنَّ بمكارمِ الأخلاقِ، وحَثِّهنَّ على تأدِيةِ الواجبِ، مِن نصيحةِ الرجالِ، وأَجدِرْ بها حينئذٍ، أنْ تهتزَ العواطفُ، وتَحيا النفوسُ، وتَتحركَ القلوبُ، وتتوفرَ الدواعي، فالتأثيرُ مِن مُحدِّثاتِ الليلِ أكبرُ مِن كلِّ تأثيرٍ!!».

لا تَتزوجْ بارعةَ الجَمَالِ

ص/ ٦٤٨: «أشارَ بعضُ فقهائِنا إلى كَرَاهَةِ الاقترانِ بذاتِ الجمالِ البارعِ، لأنَّها قَلَّما تَسْلَمُ مِنَ التطلُّعِ، أو التقوُّلِ، ثم لا تكونُ في الأغلبِ إلَّا مَزْهُوَّةً بنفسِها!».

أكبرُ أغراضِ تَعدُّدِه ﷺ في النكاحِ:

ص/ ٦٥٠: «ومِن أكبرِ أغراضِه ﷺ في تَعدُّدِ الأزواجِ، انتشارُ سُنَّتِه، واختبارُ سِيرتِه، واستمالةُ عشائرِ الأزواجِ لِدِينِه ونُصْرتِه، وذلك في اللائي عَرفْنَ

ومَارَسْنَ، أرجى منه في الأبكارِ الفرائدِ، إلَّا أنَّ عائشةَ أَنَافتْ عليهنَّ في ذلكَ بما امتازت به من ثُقوبِ الفَهْمِ، ونَباهةِ الذِّهنِ، وحِدَّةِ المِزاجِ!

وأظهرُ عيوبِ الثُّيوبةِ؛ الحنينُ إلى الأزواجِ السابقينَ، وهو مفقودٌ فيمن تَتزوجُه ﷺ؛ لأنَّ محبتَه تُنسي كلَّ محبةٍ، وأُلْفَتُهُ تَغْمرُ كلَّ أُلْفةٍ».

لماذا كانت الصلاةُ أفضل من الجهاد

ص/ ٥٦٠-٥٦٧: «وها هنا إشكالٌ: إذْ ربَّما يقولُ قائلٌ: كيفَ تكونُ الصلاةُ أفضلَ مِنَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ؛ وإنَّما هِيَ قيامٌ وقعودٌ وركوعٌ وسجودٌ، تَقدرُ على الاستكثارِ منها كلُّ عجوزٍ، بل لا تَجِدُ كَثْرةَ العبادةِ إلَّا عندَ العجائزِ، وقد كَتَبَ عبدُ اللهِ بنُ المُباركِ وهو في مَيدانِ الجهادِ؛ إلى فُضيلِ بنِ عِياضٍ يَفتخرُ عليه[1]:

يـا عابـدَ الحَـرَمَينَ لـوْ أبصـرْتَنا ... لَعَرَفْـتَ أنَّـكَ في العبـادةِ تَلْعَـبُ

يـا مَـنْ يُخضِّـب نَحْـرَهُ بدموعِـه ... فَنُحُورُنَـا بِـدِمائنا تَتَخضَّـبُ

والجوابُ عِن ذلكَ: أنَّ كلامَ ابنِ المُباركِ إما مرجوحٌ مِن تفضيلِ الجهادِ، وإمَّا ناظرٌ إلى ظاهرِ الأمرِ دونَ خافِيه، وكُلٌّ يُؤخذُ مِن كلامِه ويُتركُ؛ ما عدا

---

(١) أخرج هذه القصة ابن عساكر (٣٢/ ٤٤٩)، والسبكي في «طبقات الشافعية» (١/ ٢٨٦)، وفي إسنادها محمد بن المفضل الشيباني، متهم بالكذب والوضع، وفيها من التحطط على العبادة ما لا يليق بشيخ الإسلام ابن المبارك، فما كان له أن يصف شيخه بالعبث واللعب في العبادة!
وفيها أن ابن المبارك أرسلها من طرسوس سنة (١٧٩)، مع ابن أبي سكينة البهراني حين ودعه للخروج للحج، مما يفيد أن راية الجهاد كانت تخفق في ذلك الوقت، وتحتها لهاميم الرجال، والفضيل يلعب بالعبادة في مكة!!! وبالتأمل في أحداث هذه السنة من تاريخ الحافظ ابن كثير يتبين أن موسم الحج فيها كان في أمن وسلام، أقامه بالناس خليفتهم هارون الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعليه فهي قصة باطلة، والعلم لله.

صاحبَ القبرِ الأعطَرِ ﷺ، وأمَّا استطاعةُ العجائزِ على الاستكثارِ مِنَ العبادةِ، بمعنى الكرامةِ، فذلك ليسَ بِمُسَلَّمٍ؛ لأنَّ مِن دُونِ ذلكَ العلمُ الصحيحُ، والإحسانُ الكاملُ، والمراقبةُ التامةُ، وأنَّى بذلكَ، ولَئِنْ حَصَلَ فذلكَ ﴿ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾، وقد قال إمامُ الحَرَمِينَ بأخَرَةٍ: رَجَعْنا إلى قولِه ﷺ: «عليكم بدِينِ العجائزِ»[1]، ومنه تَعرفُ أنْ ليس المرادُ مِن الصلاةِ مُجرَّدَ القيامِ والقعودِ، والركوعِ والسجودِ، إنَّ ذلكَ ما يَستطيعُه البَرُّ والفاجرُ والعالمُ والجاهلُ... ولكنِ المرادُ منها؛ الانكسارُ والخضوعُ، والإخباتُ والخشوعُ، والمراقبةُ والشهودُ، والاستغراقُ في تعظيمِ الجَبَّارِ المعبودِ..

فمَنْ دَخَلَ الصلاةَ مُمتلئَ القلبِ؛ بآلاءِ الباري وآياتِه وأسمائِه وصِفاتِه، فلا بُدَّ وأنْ يَكثرَ فُتُوحُه، وتَطيرُ رُوحُهُ، ويُشرقُ يومُه، ويُهيمنُ على جوارحِه الإيمانُ، فلا يَنفتِلُ منها إلاَّ خاضعًا لأحكامِ القرآنِ، مُنقادًا لشريعةِ سيِّدِ وَلَدِ عَدنانَ.

---

(١) ذكره الجويني والغزالي منسوبًا إلى النبي ﷺ قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٩٦١): قال ابن طاهر في كتاب «التذكرة»: هذا اللفظ تداوله العامة، ولم أقف له على أصل يرجع إليه من رواية صحيحة ولا سقيمة، حتى رأيت حديثًا لمحمد بن عبد الرحمن بن البيلماني، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ «إذا كان في آخر الزمان واختلف الأهواء فعليكم بدين أهل البادية»، وابن البيلماني له عن أبيه عن ابن عمرو نسخة كان يتهم بوضعها. انتهى، وهذا اللفظ من هذا الوجه رواه ابن حبان في «الضعفاء» في ترجمة ابن البيلماني والله أعلم.
ونقله عن ابن طاهر: الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (٥٠٥).
قلت: أخرجه ابن حبان في ترجمة ابن البيلماني من «المجروحين»، وقال فيه: حدث عن أبيه بنسخة شبيهًا بمئتي حديث كلها موضوعة، لا يجوز الاحتجاج به، ولا ذكره في الكتب إلا على جهة التعجب.

ومن حَسُنَتْ صلاتُه؛ حَسُنتْ سائرُ أمورِه؛ لأنَّ الصلاةَ مِعراجُ الأبرارِ، ودخولٌ في حَضْرةِ الملِكِ القَهارِ، واتصالٌ بجلالِ مَنْ يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ.

والتَّقْوى إنَّما هِيَ ثَمَرةُ مراقبةِ الجبَّارِ؛ وإذا كانَ مَنْ وَقَفَ بين يَدَي عظيمٍ مِن عظماءِ الدنيا؛ وأدَّى له واجبَ الخِدمةِ؛ لا يُخالفُه بعدَما يَخرجُ مِن عندِه، ولا سِيَّما إذا عَرَفَ أنَّه بعَينِه، وأنَّ له رقيبًا لا يَغفُلُ، وجاسوسًا لا يَذهَلُ، فما بالُكَ بمَنْ يَطَّلعُ على الضمائرِ، ولا يَخفى عليه ما في السرائرِ...

فالداخلُ في الصلاةِ مع مراعاةِ الركنِ الثالثِ مِن حقائقِ الدِّينِ؛ وهو الإحسانُ، لا بُدَّ وَأنْ تَنْهاه صلاتُه عَنِ الفَحْشاءِ والمُنكَرِ، ومتى نَهَتْه عن ذلكَ، كانتِ العبادةُ عليه أسهلَ، وتَيسَّرَ له الطريقُ إلى التحقيقِ بأجمعِ آيةٍ في القرآنِ للخيرِ والشَّرِّ، كما صَحَّتْ به الروايةُ عَنِ ابنِ عُمَر، وهِيَ قولُه تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠][1]...

وبعدُ فإنَّ الصلاةَ نعيمُ القلوبِ، وغذاءُ النفوسِ، وقَوَادمُ الأرواحِ وخَوَافِيها، تَطيرُ بها إلى جانبِ القُدْسِ العليِّ، وعِلمِ النورِ السَّنِيِّ، ولهذا كانَ ﷺ يقولُ: «**يَا بِلَالُ، أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**»[2]، ويقول: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[3]، ويكونُ مع

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٩)، وغيره عن ابن مسعود، بإسناد حسن، ولم أجده عن ابن عمر، فالله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦٤)، وأبو داود (٤٩٨٥)، بإسناد حسن.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨٥)، والنسائي (٣٩٤٠)، وغيرهما، بإسناد حسن.

أهلِه يَضحكُ مما يَضحكون منه، ويَتعجبُ مما يتعجبونَ منه، فإذا أُذِّنَ بالصلاةِ قامَ كأنْ لم يَعْرفْهم ولم يَعْرِفُوه»[1].

تَضييعُ الصلاةِ مِن أسبابِ خَرابِ الدنيا

ص/ ٥٧٣-٥٧٤: «المصلي لا يكونُ إلَّا وفيًّا، ولا يكونُ إلَّا أمينًا، فاللهُ جَلَّ شأنُه يقولُ في وَصْفِ المصلينَ مِن سورةِ المعارجِ وسورةِ المؤمنينَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ ... واضرِبْ بطَرْفِكَ أنَّى شِئتَ اليومَ في المسلمين، هل يَنبُعُ جُودٌ، وهلْ للأمانةِ وُجودٌ، وهل تَجِدُ مِنْ يَفِي بالعُهودِ، فهلِ اختلَّ المقياسُ؟ أو ضُيِّعتِ الصلاةُ بينَ الناسِ؟ والأولُ باطِلٌ، فلَزِمَ الثاني، ومَن ضَيَّعَها ضَيَّعَه اللهُ، ولذا سَلَّطَ اللهُ عليهم الأجانبَ، وفَسَدَتْ دنياهم فَضْلًا عَن آخرتِهم!».

العربيةُ وِعاءُ الوَحْيَينِ

ص/ ٦٦٢: «قدِ اعترفَ المُلحِدُ باتِّساعِ اللُّغةِ العربيةِ، وهو -لو لم يَعترفْ به- أَمرٌ معقودٌ عليه الإجماعُ، مُؤَيَّدٌ بالحِسِّ واللَّمْسِ، ولا مُكابرةَ مع المشاهدةِ، ولا سِيَّما معَ ما فيها مِن المَجازِ والاشتقاقِ، ومتى كانَ الأمرُ كذلكَ، أفَمِنْ عدلِ اللهِ

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» عن عائشة: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». قال العراقي: أخرجه الأزدي في «الضعفاء» من حديث سويد بن غفلة مرسلًا «كان النبي ﷺ إذا سمع الأذان كأنه لا يعرف أحدًا من الناس».
قلت: حديث عائشة رضي الله عنها في «صحيح البخاري» (٦٧٦) ولفظه: «كان ﷺ يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».

أنَّ يُبقِيَها محصورةً فيما ذَكَرَه المُلحِدُ[١]، ولا يَنشرُها بمقدارِ سَعَتِها، بينَ أُمَمِ الدنيا، وشُعوبِ العالَمِ؟ أَوَ لَيْسَ مِن فضلِ اللهِ على الأممِ أنْ يُنْعِمَها عيونًا بخيرِ هذه اللغةِ الواسعةِ؟ بلى وألفُ بلى، ولا سبيلَ إلى ذلكَ بمِثلِ أنْ يُفرِغَ فيها الكتابَ الخالدَ، الكافلَ مَصالِحِ الأممِ وحضارتِهم التامَّة، ومدنيتِهم السابقةِ ونجاتِهم من الخُطوبِ، وسلامتِهم مِنَ الحروبِ، إلى يومِ القيامةِ!!».

لماذا كَثُرَ النُبوغُ في العلماءِ العَجَم؟

ص/ ٦٧١: «ولمَّا كانَ القرآنُ بتلكَ الدَّرجةِ السامَيةِ من الحُسْنِ، بجَمالِه وإشراقِه، والإحسانِ بهدايتِه، وإرشادِه، انجَذَبتْ له النفوسُ، ومالتْ إليه القلوبُ، وقد سَعِدَ به مِنَ العَجَمِ أكثرُ مِمَّن سَعِدَ به من العربِ، وهل نَصَرَ الإسلامَ وألَّفَ الكُتُبَ، ودَوَّنَ الدواوينَ وحَفِظَ السُّنةَ، وجَمَعَ القواميسَ، غيرُ العَجَمِ؟

فلا شَكَّ أنّ نِسْبةَ العربِ إلى العَجَمِ في إحصاءِ العلماءِ والمُؤلَّفاتِ، تكونُ قليلةً جِدًّا[٢].

---

(١) قال الملحد: إذا كنتم تزعمون في القرآن الخير العام، والشفاء التام، والنفع الكثير، والإعجاز الكبير، فهلَّا كان نزوله بغير العربية من اللغات، التي يكثر بها الناطقون، أما العربية وإن كانت متسعة فأهلها قليل، ولا سيما لعهد نزول القرآن، وهل يليق بفائض الجود أن يمنع الأمم من ذلك الخير الغامر، ويختص به تلك الفئة القليلة، بين الجبال القاحلة، والموامي السحيقة، والدياميم المخيفة؟!

(٢) قال حبيب القلب بكر أبو زيد آل غيهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخطأ المشهور: من أن أكثر علماء الحديث من غير العرب. هو قول ألقي بلا استقراء، وقُرِّر بلا إحاطة، ولعلَّ قائله أراد عُجْمَةَ الدار، أما عجمة النسب فلا». «التعالم وأثره على الفكر والكتاب» ضمن «المجموعة العلمية» (١٢٣).

وقد كَثَّرَ ما لهم فيه؛ قِلَّةُ نصيبِهم من الحَسَدِ، بخِلافِ العربِ، فإنَّهم يُجاحدون ما لِإخوانِهم، ولا سِيَّما المعاصِرينَ منهم، ويحاولونَ كتمانَه بكلِّ ما تَنتهِي مقدرتُهم إليه، حتى إنَّهم يَسلُكون بعضَ علمائِهم في عِدادِ العَجَمِ لِأدنى مجاورةٍ».

لم نعدم إلا شخصه الكريم ﷺ

ص/ ٦٧٧: «والحاصلُ: أنَّ ما اجتمعَ في نفسِه ﷺ من محاسنِ الخِلَالِ، ومكارمِ الأخلاقِ، هو بعَينِه المُعجِزاتُ.

لـولا عجائـبُ صُـنعِ اللهِ مـا نَبَتَـتْ تلـكَ الشـمائلُ في لَحْـمٍ ولا عَصَـبِ

وفوقَ ذلكَ؛ فمعجزةُ القرآنِ كما تَقرَّرَ؛ خالدةٌ على مَرِّ الليالي، فلم نَعْدَمْ منه ﷺ إلاَّ شَخْصَه الكريمَ.

يـا عـينُ إنْ بعُـدَ الحبيـبُ ودَارُهُ ونَـأَتْ منـازلُه وشَـطَّ مَـزارُهُ

فلقـد ظَفِـرْتِ مِـنَ الحبيـبِ بطائـلٍ إنْ لـم تَرَيْـه فهـذهِ آثـارُهُ

لا تَفنَى على مَرِّ الآبادِ، ولا تَخْلَقُ على كَثرةِ التَّرْدادِ، بل لا يَزدادُها التَّكرارُ إلا صِقَالًا، ولا كَثرةُ التأملِ إلَّا جمالًا!!».

قلت: وللشيخ ناجي بن معروف الأعظمي البغدادي (ت: ١٣٩٧) كتاب«عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية»، عُني بنشره ابن أخيه الشيخ بشار بن عواد بن معروف في ثلاثة مجلدات.

جمعية إخوان الصفا

ص/ ٧٠١-٧٠٢: «حاولتْ جمعيةُ إخوانِ الصَّفَا أنْ تَجمعَ بينَ الفلسفةِ والشريعةِ، وأسرت حَسْوًا في إرْثِنا، واستَقَتْ بلا دَلْوٍ ولا رِشَا، ودَلَّتْ على فُسُولتِها وضَعْفِ نِيَّتها، واللهُ غالبٌ على أمرِه، وكم كادَ للإسلامِ خَلْقٌ في القديمِ والحديثِ، فنكَصُوا على أعقابِهم خائبين، وكَبَوا لِوُجوهِهم خاسرين!»[1].

تَنقيةُ الدخيلِ طريقُ المَجدِ

ص/ ٨٢١: «وإنَّا لنرجو أنْ تَعتنِقَ الإسلامَ أمَّةٌ ذاتُ حَوْلٍ وطَوْلٍ، فتَعودُ به سِيْرَتَه الأُولى مِنَ النَّصَاعةِ، والسَّلامةِ مِنَ البدَعِ والمُحدَثاتِ، فَيتِمُّ ظهورُه على الدِّينِ كُلِّه!».

الفُرْقة هلاكٌ

ص/ ٨٥٨-٨٥٩: «وما يَرِيشُ جَناحَ الفِتَنِ، ويَستوْرِي زِنادَ الشُّرورِ، كالانشقاقِ الداخليِّ، ولم نَرَ أُمَّةً قَطُّ انهزمتِ انهزامًا فاضحًا، إلَّا مِن تلكَ الناحيةِ، وأنَّى يُتصورُ الإصلاحُ في الخارجِ، بدُونِه في الداخلِ، وفاقدُ الشَّيءِ لا يُعطِيه».

---

(١) لعل الصواب: «أسرت حسوًا في ارتغا..»، وهو مثل يراد به أن من يحتسي لبن الناقة يتظاهر بأنه يكتفي بالرغوة الظاهرة، وهو يحسو اللبن، فضرب مثلًا لمن يظهر أمرًا ويبطن غيره، ومراد السقاف أن إخوان الصفا أسروا أمرًا وهو الإلحاد وأظهروا أمرًا آخر وهو الحكمة والفلسفة، وهم يتكلمون بلا فهم ولا معرفة، وعبَّر عن هذا المعنى الأخير بقوله: استقت بلا دلو، والعلم لله.

أذنابُ الغربِ

ص/ ٦٧٣: «ولقد يشتدُّ تألمي إذا بَلَغَنِي -وكثيرًا ما بَلَغَنِي- عَن بعضِ الأذنابِ الساقطينَ، أنَّه يَتَرَنَّمُ بِمَقالةٍ لبعضِ الإفرنجِ، ويَترنَّحُ عليها، ويَعُدُّها مِن جوامعِ الكَلِم، معَ وجودِ أمثالِها بكثرةٍ لدينا في الأدبِ الجاهليِّ، والإسلاميِّ، والسُّنَّةِ والقرآنِ، وما ذاكَ إلَّا لِجَهْلِهِ مِن جهةٍ، وخِسَّةِ نفسِه وسُقوطِها مِن الأُخرى، وتَزَيُّنُه بادِّعاءِ معرفتِه بأَدَبِ الأجانبِ، مِنَ الثَّلاثِ ظُلُماتٍ، بعضُها فوقَ بعضٍ، قاتَلَهمُ اللهُ أنَّى يُؤفكونَ!!».



المنتخَبُ من كتاب: تحقيق الفرق[1]

الاختلافُ المذمومُ

ص/ ١٢١: «وما أُريدُ بمذمومِ الافتراقِ إلَّا ما أثارَ الضغائنَ أو جَلَبَ الشِّقاقَ، أو جَرَّ إلى سُوءِ الأخلاقِ، أو عاقَ عن التقدمِ، أو أَفضَى إلى التَّندُّمِ، وليسَ منه الاختلافُ في فروعِ المسائلِ الاجتهاديةِ إذا لم يَذْهبْ بأصحابِه إلى التعصُّبِ المذمومِ والتحزُّبِ الممقوتِ».

شرفُ العلمِ لِمَنْ عَمِلَ به

ص/ ١٢٦: «لا يَسْلَمُ شرفُ العلمِ الضَّخْمُ، ولا مجدُه الأثيلُ، ولا مرتبتُه العاليةُ، إلَّا لِـمَنْ كان عاملًا بعِلْمِه، ففي الآياتِ والأحاديثِ من الوعيدِ والتهديدِ لِـمَنْ لم يَعمَلْ بعلمِه ما ليسَ عليه مِن مَزيدٍ».

حيثُما دراتِ الزُّجاجةُ

ص/ ١٢٧: «...يتكلمُ أَحَدُهم بما يُوافقُ هَواه ويُلائِمُ غَرَضَه ويُمْلِيه شيطانُ مَيلِه، وبَهيمةُ شَهْوتِه، ولا يَتحرجُ عما فيه تَثبيتُ عِزِّهِ وجاهِهِ، ويَغْمَطُ ما يَتعلقُ بأخِيه ويَدورُ حيثُما دراتِ الزُّجاجةُ، ويَتَلَوَّنُ كلَّ يومٍ بلونِ الغَرَضِ والحاجةِ، لا يُبالي أنْ يَذُمَّ ما كانَ يمدحُ أو يَمدحُ ما كانَ يَذمُّ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]».

---

(١) «تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره، وما يتصل بذلك من حد الولاية وحكم الإلهام»، طبع بتحقيق وتعليق الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف -حفظه الله ونفع به-، وقدم له بترجمة ضافية للحافظ السقاف، استفدتُ منها، شكر الله له وأثابه.

لا يَسْلَمُ العَالِمُ الماجِدُ مِنْ الجَاحِدِ الحَاسِدِ!

ص/ ١٣٢: لا يُمكنُ للعالمِ الحُرِّ أنْ يَعيشَ بلا حاسدٍ وهو وارثُ علمِ النبيينَ، واللهُ يقولُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]، وكلَّما كانَ عزيزَ النفسِ حَميَّ الأَنَفِ، أَبِيَّ الضَّيْمِ، صادعًا بالحقِّ، كَثُرَ حُسَّادُه بطبيعةِ الحالِ؛ إذِ النعمةُ لا يَنفكُّ عنها الحَسَدُ، كما قالَ أبو عُبادةَ:

مُحَسَّدٌ وكأنَّ المكرُماتِ أبتْ أنْ تُوجَدَ الدهرَ إلا عندَ محسودِ

وقد قيلَ للمُهلَّب ما أكثرَ وقوعَ الناسِ فيكَ وفي قومِك، فأَنشدَ:

إنَّ العَرَانِين تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةً وَلَنْ تَرَىٰ لِلئَام النَّاسِ حُسَّادَا

رُمِيَ الغَزَالي بالكفرِ، وضُرِبَ عالِمُ المدينةِ بالسِّياطِ لِإصرارِه على الفُتْيا بإلغاءِ طَلاقِ المُكرَهِ، ومُنِع أبو حنيفةَ من الإفتاءِ لتعصُّبِ ابنِ أبي ليلى عليه وسِعَايتِه به إلى السُّلطانِ؛ إذ لم يُدرِكْ شَأْوَه ولم يَشُقَّ غُبارَه، وصَبَرَ على المِحْنةِ التي لا تُطاقُ أحمدُ، وطُرِدَ الآمِدِيُّ مِن مِصْرَ [(١)]، وكُتِبَ عليه مَحْضَرٌ بالزَّنْدقةِ في الشامِ أَمضَى عليه كافَّةُ العلماءِ إلَّا واحدًا غَلَبَه الحقُّ على هَواه فكَتَبَ فوقَ إمضائِه:

---

(١) انظر ما رمي به الغزالي في «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣٢٧-)، وانظر محنة الإمام مالك في «طبقات ابن سعد» (٥/ ٤٦٨)، «ترتيب المدارك» (٢/ ١٣٠).
وانظر لمحنة الإمام أبي حنيفة «وفيات الأعيان» (٤/ ١٨٠)، «الوافي بالوفيات» (٣/ ١٨٥).
وخبر محنة الإمام المبجل أحمد بن حنبل مشهور، وفيه مؤلفات خاصة، للحافظ المقدسي، ولغيره.
وانظر خبر الآمدي في «وفيات الأعيان» (٣/ ٢٩٣)، «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٦٥).

حَسَدُوا الفَتَى إذْ لَم يَنالُوا سَعْيَهُ فَالقَوْمُ أعداءٌ لَهُ وخُصُومُ

ولله دَرُّ الحُطَيْئةِ في قولِه عَن آلِ شماس بن لأي:

أَقِلُّوا عليهم لا أبَا لأبيكمُ مِنَ اللؤمِ أوْ سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

وما أحسنَ ما قالَه مروانُ بنُ أبي حَفصةَ:

ما ضَرَّني حَسَدُ اللِّئامِ ولم يَزَلْ ذو الفضلِ يَحْسُدُه أولو التقصيرِ

وذكرتُ أنَّ الإمامَ البُخَاريَّ لم يُسْلِمْ رُوحَه لباريها حتى ضاقتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ، وهذا تَقِيُّ الدِّينِ ابنُ تَيميَّةَ يُتروحُ مِن كلامِ الأسيوطي أنه مظلومٌ في التعصُّبِ عليه الذي أفضَى به إلى السِّجنِ ثم الموتِ فيه، ورأيتُه يَعترفُ له بفضلٍ كبيرٍ خارقٍ للعَوائدِ...

وما زالَ أهلُ الحقِّ مِن غابرِ الزمانِ مَقْذِفَ الأفائِكِ، ومَرْمَى العضائِهِ، وطرائِدَ الملائِكِ»[1].

ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لَعُظِّما

ص/ ١٣٤-١٣٥: ثمَّ إنَّ نَصَاعةَ العالِمِ وصراحتَه: زيادةٌ في نَفْرةِ الناسِ عنه لامتلائِهم وَحْشةً منه، ولا سِيَّما إذا طَرَحَ أقرانُه الكَفَاءةَ، وآثَرُوا الزُّلْفى لَدَى أبناءِ

---

(١) يتروح: يوجد، العضائه: جمع عضه؛ وهي البهتان والكذب. الملائك: الملوك.

وانظر لمحنة الإمام البخاري «تاريخ بغداد» (٢/ ٣٤٠)، مقدمة «الفتح» (١/ ٤٩١)، «أدب الطلب ومنتهى الأرب» (٦٦-٦٧).

وتكرر سجن شيخ الإسلام سبع مرات، انظرها مفصلة في «المدخل إلى آثار شيخ الإسلام ابن تيمية» للعلامة بكر أبو زيد (٣١-٣٧).

الدنيا وأهانُوا منزلةَ العلمِ، وبَقِيَ هو على التمسُّكِ بذلكَ، غيرَ أنَّه لا يَضْيرُه، بل كلَّما كانَ مُنقبِضًا عنهم ومُبتعِدًا عَنِ الذُّلِ لهم كانَ أَشرفَ لِمهْنتِه، وأليقَ بوَظيفتِه، وأحفظَ لكرامةِ العلمِ الذي لا درجةَ فوقَه سُوى النُّبوةِ، وقد أجمعَ سَلَفُنا على استحسانِ أبياتِ الجُرْجانيِّ التي لم يَبْقَ بحِفْظي منها إلَّا قولُه:

يقولـــون لي فيـــكَ انقبـــاضٌ وإنَّمـــا ... رأَوا رجـــلًا عَـــن موقـــفِ الذُّلِّ أحجمـــا

أَرى النـــاسَ مَـــن دانـــاهمُ هـــانَ عنـــدَهمْ ... ومَـــن أكْرَمَتْـــهُ عِـــزَّةُ النفـــسِ أُكرِمـــا

ولـــو أنَّ أهـــلَ العلـــمِ صـــانُوه صَـــانَهم ... ولـــو عظَّمُـــوه في النفـــوسِ لعُظِّمـــا

ولكـــنْ أهـــانُوه فهَـــانُوا ودنَّسُـــوا ... مُحيَّـــاه بالأطمـــاعِ حـــتى تجَهَّمـــا

ولـــم أَبتـــذِلْ في خِدْمـــةِ العلـــمِ مُهجـــتي ... لِأُخْـــدُمَ مَـــن لاقيـــتُ لكـــنْ لِأُخـــدَما

أأشـــقى بـــه غرسًـــا وأَجْنِيـــه ذِلَّـــةً ... إذنْ فاتبـــاعُ الجهـــلِ قـــد كان أَحزمـــا

وإنَّه لَمِنَ الصعبِ جِدًّا أنْ يَبقى الأفرادُ متمسكينَ بَشَرَفِ العلمِ بعدَما يَتكرمُ به الأكثرون أو يبيعونه بالأثمانِ التافهةِ، أَكْلةً فما دونَها.

غيرَ أنَّ العاقبةَ لهم، واللهُ ناصرُهم، وما أهانَ العلمَ إلا أبناؤُه الذينَ يَتملقُون للأغنياءِ، ويَتذللونَ للعظماءِ، ويتزلفونَ للأمراءِ، قاتَلَهم اللهُ أنَّى يُصرَفونَ.

كثرةُ الأتباعِ ليسَ مِقياسًا

ص/ ١٣٦-١٣٧: ومِنَ العَجَبِ العُجَابِ أنَّني سمعتُ صاحبَكم بالأمسِ يُدَلِّلُ على إخلاصِ العالِمِ لِصِدْقِه بكَثْرةِ الأتباعِ، ووَفْرةِ المُلتفِّين حَوْله، وعلى

العَكْسِ بالعَكْسِ، وهو خطأٌ مِنَ القولِ وزَلَّةٌ لا يُقالُ لصاحبِها لَعًا[١]؛ لأنَّه حطٌّ باللازمِ مِن مراتبِ المرسَلين، فمنهم مَن لم يَتَّبِعْه أَحَدٌ، ومنهم منْ لم يَتَّبِعْه إلا واحدٌ وإلَّا اثنانِ وإلَّا رَهْطٌ، كما في «الصحيح»[٢].

أفيقولُ المسكينُ إنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ غيرُ صادقين ولا مُخلِصين! سبحانَك هذا بُهْتانٌ عظيمٌ، ولكن إذا ضلَّتِ العقولُ لم تَدْرِ الألسُنُ كيف تَزِنُ ما تقولُ، وأحرى بمَنْ تكَلَّمَ عن جَهالةٍ أن يقولَ هذا وأكبرَ، وبمَن شَمَلَهمُ الجهلُ والنفاقُ أنْ يَسكتوا على مِثلِهِ فلا يُنكرُ..

فلا يَسبِقْ إلى وَهَمِ أَحَدِكم أنَّ إقبالَ الطَّغَام أو إدبارَهم مِعيارٌ لشيءٍ مِن ذلك، وهم عَسْكَرُ الدَّجَّالِ، وأتباعُ كلِّ ناعقٍ، وعُشَّاقُ كلِّ غريبٍ، وما أحسنَ ما قلتُ من أَثْناءِ قصيدةٍ:

ومَـن ظَـنَّ إقبـالَ الطَّغَـامِ على امـرئٍ دليـلًا على الـودِّ الإلـهي فقـد قَـرَفْ[٣]

حُسَّادُ العظماءِ همُ عُشاقُ الشُّهْرةِ الكاذبةِ

ص/ ١٤٢-١٤٣: ثم إنَّكم لا تَجِدون للعلماء حُسَّادًا أكثرَ مِن أولئكَ المتوسِّمِينَ بالصلاحِ؛ لتَفانِيهم في عِشْقِ الشُّهْرةِ الكاذبةِ والجاهِ المنفوخِ، ولا سِيَّما إذا كانَ لآبائِهم شيءٌ منه، والوصولُ إلى المجْدِ مُتعذرٌ عليهم من طريقِ العلمِ؛ لأنَّه بعيدُ المَرامِ، أَبِيُّ الزِّمامِ، لا يُضْبطُ باللِّجامِ، ولا يُرى في المنامِ، ولا

---

(١) لعًا: يقال للعاثر: لعًا لك؛ دعاء له بأن يتعس من سقطته.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قرف: اقترف ذنبًا وكسب خطيئة.

يُورَثُ عَنِ الآباءِ والأعمامِ، فكيفَ يَنالُه مَن أنفقَ صِباه على الأحشاءِ، وشبابَه على الفحشاءِ، وأمسى بينَ الزِّقِّ والعُودِ، وأصبحَ بينَ مُوجِباتِ الحدودِ؟ حتى يَتِمَّ شبابُه، وتَشِيبَ أترابُه، فيَغشَى محرابَه؛ لِيَملأَ جرابَه، ويُسوِّي طَيْلَسانَه ليَحْرِفَ لسانَه؟

ولمَّا أعياهم الوصولُ إلى الشَّرَفِ مِن هذا الطريقِ الذي تَنْدَقُّ فيه الأعناقُ، معَ تَمنِّيهم أنْ يكونوا أرفعَ من العلماءِ شأنًا، وأعلى منهم مكانًا، عَمَدُوا إلى تحقيرِ العلماءِ الصادعِين بالحقِّ، وتَورَّكُوا عليهم، وتَمضَّضُوا بأعراضِهم، لِيَبْنُوا لهم ناموسًا أجوفَ، على أنقاضِ مجدِ العلمَاء، الذين يحاولون هَدْمَه بماحِي زُورِهم، وباطلِ غُرورِهم، ويَأبَى اللهُ إلا أن يُتِمَّ نُورَه».

تشويهُ الهيئةِ ليسَ من هَدْيِ السَّلَفِ الطَّيِّبِ

ص/ ١٤٤: وربَّما شوَّهُوا مِن هيئاتِهم إيهامًا بأنَّ السَّلَفَ كانوا مُشوَّهِين، وأنَّهم يتقيلونهم، وحاشا السلفَ الطَّيبَ مِن ذلك؛ فإنَّهم على قَدَمِ الاتباعِ، وبِمَعْزِلٍ عن الابتداعِ، وقد عَلِمتُم من سِيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ محافظتَه على التجمُّلِ، وإصلاحَه عِمامَتَه بالمِرْآة، وإذا لم يَجِدْ تأمَّلَ في الماءِ، وقال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»[1].

---

(١) أخرجه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٣٥٢)، والخطيب في «الجامع» (٩٠٧)، وفي سنده العلاء بن كثير: ضعيف، بل اتهم بالوضع، مع الانقطاع بين مكحول وعائشة رضي الله عنها.
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٩٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١١٤٤)، وفي سنده أيوب بن مدرك، قال ابن عدي: هذا حديث منكر عن مكحول، ولأيوب بن مدرك عن مكحول مناكير.

لمَ لا يتفق الدُّعاة؟!

ص/ ١٤٦-١٤٧: «لِمَ لا يَتَّحِدُ الدُّعاةُ والطريقُ فَذَّةٌ، والمذهبُ عندَنا في الأصولِ والفروعِ واحدٌ، ومِنهاجُ الحقِّ واضحٌ؟ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

لماذا لا يَتناصحون بالحقِّ، ويَتصارحونَ بالصِّدْقِ، مع لُطْفٍ ووِئامٍ، ورِفْقٍ وسَلامٍ، لو كان لهم وازعٌ من الدِّينِ وغَيْرةٌ على الشريعة؟

وأُشْهِدُكم أنَّني مِن أولِ الموافِقين المساعِدين على ذلك متى وُجِدَ فيه راغبون، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ولنْ يَكْرَهَه إلَّا جاهلٌ مقصِّرٌ عن الجَوْلِ، ويَهابُ أنْ يُضيِّقَ العلمُ عليه القولَ، ويَخافُ أنْ يَنحطَّ قَدْرُه إذا وُزِن كُلٌّ بفضلِه ووُضِعَ بحيثُ يستحقُّ.

وإن تَباينتْ بالدُّعاةِ الأغراضُ، وتَفَرَّقتْ بهمُ الأهواءُ، وتعاظَمَ بعضُهم في نفسِه لِحَقارتِه، وأَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ لِخِسَّتِه، وأبَوا إلا الإعراضَ عن واضحِ

وقال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ١٨٦): روى أيوب بن مدرك عن مكحول نسخة موضوعة ولم يرَه.

وأخرجه ابن أبي حاتم في «العلل» (٢٤٧٨)، وفي سنده محمد بن عبد الرحمن بن محمد العرزمي، قال الدارقطني: متروك الحديث، وأبوه وجَدُّه. لذلك قال أبو حاتم: هذا حديث منكر.

وأخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١٧٣)، وفي سنده عثمان بن عبد الله بن عمرو، متهم بالوضع.

وأما قوله: «إن الله جميل يحب الجمال» فهو في «صحيح مسلم» (٩١)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

النصوصِ ومُحكَمِ الآياتِ، وأَصَرُّوا على التلزُّمِ بالأضاليلِ والموضوعِ مِنَ الحكاياتِ، فلا أقلَّ مِن أنْ تَزِنُوا أيُّها الناسُ عمومًا وأيُّها الطَّلَبَةُ خُصوصًا كلَّ ما يُقالُ بمِيزانِ العلمِ الصحيحِ الذي تَرْجِعون إليه في الحلالِ والحرامِ والصلاةِ والصيامِ، فما وَافَقَهُ فهو المقبولُ، وما خَالَفَه فهو المردودُ، ولن تَعْوَزُوا جوابًا عن كلِّ مسألةٍ تُريدونها إن تَوَفَّقتُم للبحثِ، وأَدْمنتُمُ الإمعانَ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولا تقولوا على اللهِ ما ليسَ لكم به علمٌ، واطْلُبُوا بيانَ الدليلِ حتى لا يَشْتَبِهَ عليكم التمويهُ والتأويلُ، وإياكم وتصديقَ الخُرافِ، وقبولَ الجُزافِ، فإنَّ الانصياعَ لذلك يُزلزِلُ قواعدَ الإيمانِ».

الرجوعُ إلى الحقِّ شَرَفٌ خالدٌ

ص/١٤٨: «الحقُّ أحقُّ أنْ يُتَّبعَ، والرجوعُ عن الغَلَطِ أَذْكَرُ مِنَ الاستمرارِ على الصوابِ، أَوَ لا تَرَونَ أنَّنا تَذْكرُ بمزيدِ الاستحسانِ رجوعَ ابنِ الخطابِ إلى قولِ المرأةِ في المهورِ؟ وانصياعَ ابنِ أبي طالبٍ لرأيِ عَبِيدةَ السَّلْمانيِّ في مَنْعِ بيعِ أُمَّهاتِ الأولادِ؟ وما جَرَى هذا المَجْرَى مِنَ الوقائعِ التي عَدَّ الشافعيُّ جُملةً منها في رِسالتِه. ولا نَذْكرُ لهم ما جَرَوا فيه كعادتِهم على الصوابِ إلا نادرًا عندَ ذكرِ اختلافِ المذاهبِ والاسترواحِ بالدليلِ»[1].

---

(١) أما رجوع عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المشار إليه فقد أخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٢/١٥٤)، وجوَّد إسناده الحافظ ابن كثير في «تفسيره» [النساء: ٢٠]، واحتج به غير واحد من محققي العلماء.

صداقة الصالح

ص/ ١٦٣: وأرى الناسَ يَتملَّقونُ لي عندَ حاجتِهم فأَثِقُ بهم وأضُرُّ نفسي لِنَفْعِهم، ثم يَفِرُّونَ منِّي بعدَ قضائِها فرَارَهم مِنَ الأَسَدِ. وكم عاهدْتُ نفسي على عَدَمِ الانخداعِ لهم، ولكنَّ الطَبْعَ أغلبُ وهذه هي عادتُهم معَ اللهِ فكيفَ أَطمعُ منهم بما لا يعاملونَ به رَبَّهم...

وقد تَعوَّدتُ مِنَ الناس أنَّهم يَدْفِنُون عنِّي ما يَرَون مَلاحتَه، ويَنْشُرُون ما يتوهمون قَبَاحَتَه، وكثيرًا ما يَكْذِبون إِثْري، ويتقولون في نَظْمِي ونَثْرِي، ويُوحُون إلى جرائدِ النفاقِ عنِّي بالأخبارِ المُشوَّهةِ والأكاذيبِ المُموَّهةِ، وأُفوِّضُ أمري إلى اللهِ».



وأما رجوع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٤١٤)، والبيهقي (١٠/ ٥٧٥)، وغيرهما بإسناد صحيح.

الخاتمة

أكتفي بهذا القدرِ من الفوائدِ المنتخَبةِ من هذهِ الأسفارِ الثلاثةِ، وإنْ كانَ في الأجلِ فُسحةٌ وفي الحالِ مكنةٌ فسوفَ أُبحِرُ في سِفْرَيه التاريخَينِ: «بضائعِ التابوتِ»، و«إدامِ القوتِ»، لاستخراجِ بعضِ كنوزِها المدفونةِ، وفرائدِها المكنونةِ..

رحمَ اللهُ السقافَ وغَفَرَ له، ونفعنا بعلْمِ علمائِنا، وأَلْحَقَنا بهم صالِحين، غيرَ خَزايا ولا نادمِين..

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

وفَرَغْتُ مِن تبييضِ: «الارتشافِ...» عصرَ يومِ السبتِ السادسِ من شهرِ صفر سنةَ إحدى وأربعين بعد الأربعمئة والألف من هجرة رسولنا الكريم ونبينا العظيم ﷺ.

(٦/ ٢/ ١٤٤١)

كتبهُ

أبو الخَطَّابِ أَحْمَدُ بنُ غَانِمِ بنِ حَسنٍ الأَسَدِيُّ

فهرست المحتويات

خطبةُ المؤلف..... ٣
في كتابَيْه النَفِيسينِ: ٣
ومَعالمُ عَملي هُنا هيَ:..... ٥
صفحاتٌ من حياة العلامة السَقّاف ٦
الاسمُ والنسبُ:..... ٦
المولدُ والنَشأةُ: ٦
السَقّافُ في بيتِه: ٧
السَقافُ مصنفًا: ١١
الأول: مصنَّفاتُه الأدبيةُ ١٢
الثاني: مصنَّفاتُه الحديثيةُ: ١٣
الثالث: مصنَّفاتُه الفِقْهيةُ: ١٣
الرابع: مصنَّفاتُه التاريخيةُ:..... ١٤
الخامس: مؤلَّفاتُه العقديةُ:..... ١٥
نُبوغُ السَقّافِ: ١٥
السَقّافُ دوحةُ تَحرُّرٍ ومَعينُ إنصافٍ: ٢٠
خُشوعُه وتَواضُعُه: ٣٧
اهتمامُ السَقّافِ بشأنِ الأُمَّةِ ٤٠
إبطالُ تُهَمةٍ:..... ٤٩
لفظُ القَصيدتينِ: ٦٠
جوابُ الإمامِ يحيى على قصيدةِ السَّقافِ: ٦٤
السقافُ يَرحلُ إلى ربِّه: ٦٩
العُود الهندي عن أمالي في ديوان الكِنْدي ٧٠
التسميةُ والسببُ: ٧٠
أمَّا سَبَبُ تَبييضِه ٧١
المُنتخبُ مِنْ كتابِ العُودِ الهِنديِّ ٧٦
قَصْرُ الخَطْوِ لِلرجالِ مذمومٌ..... ٧٦

ألَمُ الفراقِ ٧٦
لا ثقةَ مطْلقةً بالنساءِ: ٧٧
الفسادُ دَيْنٌ فالزمِ العفافَ: ٧٧
لماذا كانَ الليلُ مَجْمعَ الهمومِ ؟ ٧٨
شجاعةُ رسولِ الله ﷺ وثباتُ قلبه عندَ الخطوبِ ٧٨
كيفَ عفا رسولُ اللهِ ﷺ عن قريشٍ وقَتَلَ بني قُريظَةَ؟ ٧٩
من صفاتِ الكريمِ ٨٠
سبحانَ مَنْ لا يَزولُ مُلْكُه ٨٠
مِن محاسنِ الشريعةِ ٨٠
قاعدةٌ في المَدَّاحِين والهجَّائينَ ٨٠
أهلُ الكمالِ في جَهْدٍ: ٨١
توجُّعٌ مِنْ حالِ العَلَوِيِّينَ ٨١
سَعَةُ الفَمِ بينَ المدحِ والذمِّ ٨٢
الفرقُ بينَ الجميلِ والمليحِ ٨٢
أهلُ المَلَقِ لا يَتورَّعونَ: ٨٢
عِزَّةُ العلماءِ الراسخينَ: ٨٢
لا ذُلَّ في طريقِ الجَنَّةِ ولا عِزَّ في طريقِ النارِ ٨٣
تَفضيلُ حِلْفِ الفُضولِ على مِيثاقِ الأُممِ المُتحِدةِ ٨٣
كتابةُ الفوائدِ ٨٥
غَيْرةُ العَربِ ٨٥
لا يُألَمُ بالفِراق إلَّا أهلُ النفوسِ الكريمةِ ٨٥
لا لَومَ في بكاءِ حُزْنِ الفِراقِ ٨٥
قاعدةٌ في الشِعْرِ ٨٦
الفِراقُ بَريدُ الموتِ ٨٦
كيف يُتسلَّى من ألَمِ الفِراقِ ٨٦
متى يكونُ نَشْرُ العيونِ مفيدًا؟ ٨٨
لماذا يَذكرُ العربُ عَناءَ السفرِ في أشعارِهم ٨٨

قَبولُ الشِّعرِ وإجزالُ الثوابِ عليه ٨٨
المتَشبِّعُ بِما لم يُعْطَ ٨٩
حُسْنُ الظنِّ بالبخيلِ مِن خِذْلانِ اللهِ! ٩٠
الطبع غلاَّب: ٩٠
مَحبةُ اللهِ هي الغايةُ ٩٠
داءٌ عُضالٌ ٩١
بينَ الراضِي والمُتسخطِ ٩١
لا يخلو عظيمٌ مِن الحَسَدِ ٩١
لا كَرامةَ لأحدٍ عندَ مُستَبِدٍّ ٩١
ضَياعُ الفاضلِ بينَ الحُسَّاد ٩٢
الكِتابُ النَّفيسُ خيرُ جليسٍ ٩٢
لا عِزَّ إلاَّ في الإسلامِ ٩٣
مِنْ أحسنِ الدعاءِ! ٩٤
لا تتكبرْ ومَنْ فوقَكَ أكبرُ ٩٤
حَدُّ علاقةِ الأبناءِ بالآباءِ ٩٥
عدوى خِسَّةِ الأُمِّ على الوَلَدِ ٩٥
استنفادُ الآباءِ مجد الآباء! ٩٥
وَصْفُ طباعِ الملوكِ ٩٦
هَيبةُ رسولِ اللهِ ﷺ وتواضعُه ٩٦
العَلاقةُ بينَ الجَمَالَينِ ٩٦
عَيشُ العُظماءِ وَعيشُ السَفِلَةِ ٩٧
الغيث يذكِّر بالأحباب! ٩٧
رَدْعُ الشَّيبِ ٩٧
الشَّيبُ مصيبةٌ وعِلَّةٌ: ٩٨
الرَّاحةُ في الدنيا مُحالةٌ ٩٨
حُبُّ الثَّناءِ ٩٩
عَلامةُ المُستبِدِّ ٩٩

صِحَّةُ الوصفِ بقاضي القُضاةِ ١٠٠
البَلاغةُ شيءٌ والدِّينُ شيءٌ آخَرُ ١٠٠
لا نِفاقَ في قُريشٍ ١٠١
تَجنِّي الملوكِ على عُظَماءِ الرِّجالِ ١٠١
التَّحرِّي في كَلامِ المُؤرِّخِينَ ١٠٢
أشرفُ حَنينٍ ١٠٢
حالُ الأغنياءِ مُحيِّرٌ ١٠٢
لا يَخلو منهما الزَّمانُ ١٠٣
التَّجلُّدُ لِلشامتِينَ ١٠٣
تَرْكُ المِزاحِ تَنكُّبٌ لِطريقِ السَلَفِ ١٠٤
سِرُّ شِدَّةِ مَيلِ الرجلِ إلى المرأةِ ١٠٤
تفسيرٌ بَديعٌ لِخِطابِ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للهدهدِ ١٠٦
الفَرْقُ بينَ العِزِّ والكِبْرِ، والتواضعِ والمَلَقِ ١٠٧
أسبابُ بُغْضِ المستبدِّينَ لأهلِ العلمِ ١٠٨
أحقُّ الناسِ بالسَلامةِ مِن العُيوبِ ١٠٩
العبرة بالأغلبِ ١٠٩
المفاضلةُ بينَ القلمِ والسيفِ ١٠٩
انكسارٌ أمامَ البلغاءِ: ١١٠
سَعَةُ الصدرِ آيةُ السعادةِ ١١٠
وضْعُ المعروفِ في مَحَلِّه ١١١
أصلُ نَكَباتِ التاريخِ ١١١
أثَرُ الكلامِ على الكرامِ ١١٣
وَضْعُ المدحِ في غيرِ مَحلِّه مِن الكبائرِ! ١١٣
المعاني الظاهرةُ مُشتركةٌ ١١٤
خاتمةُ العُودِ الهنديِّ ١١٤
المُنتَخَبُ من كتاب: بَلابِل التَّغريد فيما استفَدناهُ أيامَ التجريد ١١٦
على صَلاحِ المرأةِ يدورُ الشأنُ ١٢١

لا يَرْبو قَدرُ النِّعمِ إلاَّ ١٢١
لا سكونَ إلى الزوجةِ الغَرْبِيَّةِ ١٢٢
أهلُ الجاهِ والثَّرْوةِ هم أعداءُ الحقِّ إلاَّ قليلا ١٢٣
عُلماءُ السُّوءِ ورُهْبانُ الخَدْعِ ١٢٦
جَهابذةُ العلماءِ يَمْزجُون مجالسَهم بالفُكاهةِ ١٢٨
تفضيلُ التَّمْرِ على العِنَبِ ١٢٩
تَفضيلُ جَريرٍ على الفَرَزْدَقِ ١٢٩
مِقياسُ الخطيبِ الناجحِ ١٣٠
الاستهانةُ بالخطيبِ ١٣٠
حقيقةُ الزُّهْدِ في الدُّنيا ١٣١
الكرامُ لا يَصُدُّهم اللئام! ١٣١
مصيرُ الملوك الظلمة! ١٣٣
كيدُ الرجالِ أعظمُ مِن كيدِ النساءِ ١٣٣
الصلاةُ مفتاحُ الفَرَجِ ١٣٤
عطايا المُلوكِ ١٣٥
عِظَمُ شأنِ الأذانِ ١٣٥
صلاحُ الأُمَّةِ بصلاحِ نسائِها ١٣٦
لا تَتزوجْ بارعةَ الجَمَالِ ١٣٦
أكبرُ أغراضِ تَعدُّدِه ﷺ في النكاح: ١٣٦
لماذا كانت الصلاةُ أفضلَ مِنَ الجهادِ ١٣٧
تَضييعُ الصلاةِ مِن أسبابِ خَرَابِ الدنيا ١٤٠
العربيةُ وِعاءُ الوَحْيَينِ ١٤٠
لماذا كَثُرَ النُبوغُ في العلماءِ العَجَمِ ؟ ١٤١
لم نعدم إلا شخصه الكريم ﷺ ١٤٢
جَمعيةُ إخوانِ الصَفَا ١٤٣
تَنقيةُ الدخيلِ طريقُ الـمَجدِ ١٤٣
الفُرْقة هلاكٌ ١٤٣

أذنابُ الغربِ ١٤٤
المُنتَخَبُ مِن كتابِ: تحقيقِ الفَرقِ ١٤٤
الاختلافُ المذمومُ ١٤٥
شرفُ العلمِ لِمَنْ عَمِلَ به ١٤٥
حيثُما دراتِ الزُّجاجةُ ١٤٥
لا يَسْلمُ العَالِمُ المَاجِدُ مِنْ الجَاحِدِ الحَاسِدِ! ١٤٦
ولو عَظَّمُوه في النفوسِ لَعُظِّما ١٤٧
كثرةُ الأتباعِ ليسَ مِقياسًا ١٤٨
حُسَّادُ العظماءِ همُ عُشاقُ الشُّهْرةِ الكاذبةِ ١٤٩
تشويهُ الهيئةِ ليسَ من هَدْيِ السَّلَفِ الطَّيِّبِ ١٥٠
لِمَ لا يَتَّفقُ الدُّعاةُ؟! ١٥١
الرجوعُ إلى الحقِّ شَرَفٌ خالدٌ ١٥٢
صَدَاقةُ المصالحِ ١٥٣
الخاتمة ١٥٤
فهرست المحتويات ١٥٥

وللمؤلف تقبل الله منه:

١-الإمتاع بما تعلق بالنبي ﷺ من إجماع.

٢-الإسعاد بأقوال جمهور العلماء المتعلقة بخير العباد ﷺ.

٣-شرح الأرجوزة المئية في ذكر حال أشرف البرية ﷺ.

٤-المدخل إلى علم السيرة النبوية على صاحبها أفضل صلاة وأزكى تحية.

٥-التعليق على أوجز السير لخير البشر ﷺ.

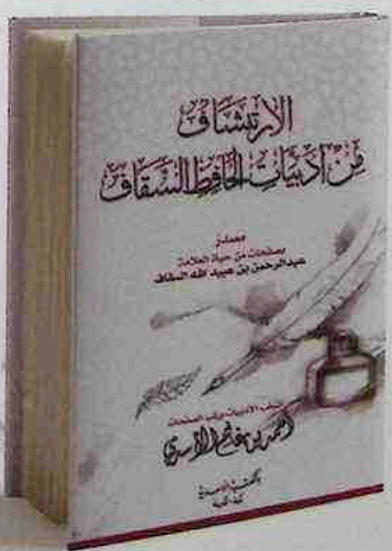
٦-الأبهر من أسلاك الجوهر مصدرٌ بترجمة محررة لشيخ الإسلام الشوكاني.

٧- العذب النمير من شعر البدر الأمير، مصدرٌ بترجمة محررة لابن الأمير الصنعاني.

٨- الإمام عبد الرحمن بن يحيى المعلمي حياته وآثاره.

٩-سهام الإصابة في الذب عن الصحابة. للعلامة السماوي (تحقيق)

١٠-جني القطاف من تفاسير السور الثلاث؛ (الضحى، الشرح، الكوثر).



SR : 23.00
9789776715042
9 789776 715042
المكتبة الأسدية
مكة المكرمة